كتاب الوزراء والكتّاب

تأليف

أبي عبدالله محمّد بن عبدوس الجهشياري

المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة

كتاب الوزراء والكتاب

كتاب الوزراء والكتاب

تأليف

أبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري

المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة

قدم له

الدكتور حسن الزين

دار الفكر الحديث
للطباعة والنشر

دار

منطقة الصنايع - شارع محيي الدين الخياط
ص.ب : ١١/٨٤١١ بيروت - لبنان
☎ : ٣٦٠٠٥٠

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

تقـــــديم

بقلم د. حســن الــزين

لهذا الكتاب الذي يتحدث عن تاريـخ وحياة الوزراء وكتاب الوزراء والخلفاء فضيلتان أولاهمــا سياسية والثانية اجتمــاعية واقتصــادية .

فالعصر الذي يــــؤرخ له أبو عبد اللــــه محمد بن عبــدوس الجهشياري المتوفي عام ٣٣١ للهجــرة بشكل مفصل وهام ويحظــى باهتمامه الاساسي ، هو العصر الذي بدأت ملامحه في الظهور منذ مطلع القرن الثالث للهجرة حين أخذ نفوذ الخلفاء في التقلص والزوال أمام تدخلات الحاشية ونفوذ النساء والمحظيات .

والحديث عن الــوزراء وعن الكتــاب وهم الطبقــة الحاكمــة وأصحــاب العلاقة المبــاشرة بالرعية يمكــن القارىء من الحصــول على معلــومات هامــة عن مختلــف الطبقــات الاجتمــاعية كمــا تظهرها علاقتها بتصرفات الكتاب والوزراء أو تعرضها لاحكامهم واتجاهاتهم . والوزراء والكتاب هم الفئة التي تكون عادة أشد التصاقا بمشاكل الشعوب في مختلف طبقاتها الاجتماعية . فاذا ما ألقيت الاضواء على تصرفاتهم التاريخية فلا بد لمثل تلـك الاضواء أن تكشــف فيما تكشف عن معالم ما يتعدى هذه التصرفات ممــا تتصل فيه فيؤثر فيها أو يتأثر بها .

وحكاية هؤلاء الحاكمين من كتاب ووزراء مع الشعوب حكاية قديمة قدم التاريخ ، تمتد جذورها الى بداية ظهور حكم البشــــر

للبشر ولكنها في العصور التي يتحدث عنها المؤلف والفترة التي يهتم بها اكثر من غيرها، تتخذ منحى خاصا جديرا بالاهتمام والدرس لان كتب التاريخ العربي في أكثرها قد أهملت كثيرا من نواحي حياة الكتاب والوزراء وهم كما سلف القول أكثر التصاقا بمشاكل المجتمع الذي يحكمون، وتصرفاتهم تظهر الانعكاس الاشد وضوحا لطموحات هذا المجتمع واحداثه في خيرها وشرها وحركتها وجمودها ، فهم المرآة القريبة من الشعب والوجه المتحرك والمتفاعل لرؤية الحكم واتجاهاته وآثار نظمه .

عبر تصرفات الكتاب وردات فعلهم تستطيع أن تجد تفسيرا لحركات الفكر والاقتصاد في مدها وجزرها ، وفي تطورها وركودها ، دون أن تستطيع تقدير ذلك عبر تصرفات الخلفاء الا بصعوبة أشد نظرا لبعدهم عن بساطة الحياة الاجتماعية للرعية وتسترهم وراء الحاجز الذي يمكن أن نسميه «الوزراء والكتاب»، وعلى سبيل المثال نحيل القارىء على هذه الابيات لشاعر نصراني كان منقطعا الى البرامكة ، للاطلاع على ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية لدى أهل الكتاب ، حيث نلمس من خلال الوصف الذي يقدمه لنا الشاعر أن التباهي باللباس الفاخر في كنائسهم وما يستتبع ذلك من مستوى اقتصادي مرتفع يمكنهم من الحصول على أفخر الملابس التي لا يضاهيها ما في قصور آل برمك وزراء العباسيين الذين انعموا على الشاعر بمطرف خز لم يكن كافيا لمنافسة سائر أتباع دينه داخل الكنيسة . وفي هذا المطرف الذي أهداه له جعفر بن يحيى يقول الشاعر أبو قابوس النصراني الحيري :

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا
رأيت مباهاة لنا في الكنائس
فلو كان هذا المطرف الخزجبة
لباهيت أصحابي به في المجالس
فلا بد لي من جبة من جبابكم
ومن طيلسان من جياد الطيالس
ومن ثوب قوهي وثوب غلالة
ولا بأس لو أتبعت ذاك بخامس

ويقول الكتاب أن الوزير وجه الى أبي قابوس من كل صنف ذكره عشر قطع .

ما تعبر عنه هذه الروايـة سواء من الوجهـة الاجتماعيـة أو السياسية أو الطبقيـة أو لجهة التسامح الديني والمسـاواة كثير كثير . لا مجال الى تفصيله هنا لانه يبدو ويظهر أكثر جلاء في كـل ما اوصله الينا الجهشياري في كتابه الذي نقدم ·

وهو بالاضافة الى هذا الوجه الاجتماعي والسياسي التاريخي يقدم لنا صورة وافية عن النظام الاداري والمالي الذي كان متبعا في تلك العصور لا سيما في عصر المؤلف ، فنظام الدواوين وطرق تسجيل العقارات والاموال وصرفها يطل على القارىء في قسمه الكبير والهام مدعما بالوقائع المعاشة والتصرفات التاريخية في تطبيق بعض من وجوه هذا النظـام ·

يضاف الى ذلك ما نجد في هذا الكتاب من صور واقعية لجلوس القضاة وأحكامهم واستقلالهم الكبير الذي تظهره الوقائع ، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر ما ورد عن قاضي خراسان الذي رفض التقيد بطلب الخليفة العبـاسي المأمون عندما رفض أن يحكـم للفضل بن سهل على عبد الله بن مالك بشهادة شاهدين أحضرهما وقال : « ليس بمثل شهادة هذين تباح ظهور المسلمين » ، ولما صاح المأمون من وراء الستر قائلا : « أحكم له بشهـادتهما » أصر على رفضه ·

من أجل كل هذه الامور تبدو قراءة هذا الكتاب جذابة ومفيدة وربما ضرورية لجلاء الكثير من الحقـائق التاريخية والاجتمـاعية والسياسية التي تتعلق بفترات هامة من التاريخ العربي الاسلامي ·

بســـم الله الرحمن الـرحيم

مقـــدمة

قال ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري في كتابه المصنف في اخبار الوزراء والكتــاب :

روي عن كعب الاخبار انه قال :

اول من وضع الكتاب السرياني وسائر الكتب آدم عليه السلام قبل موته بثلاث مئة سنة ، ثم كتبها في الطين ، ثم طبخه . فلما انقضى ما كان أصاب الارض من الغرق ، وجد كل قوم كتابهم فكتبوه ، فكان اسماعيـل وجد كتاب العرب .

وروي : أن ادريس اول من خط بالقلم بعد آدم .

وروي : ان أول من وضع الكتاب بالعربية اسماعيل بن ابراهيم : وكان أول من نطق بالعربية ، فوضع الكتاب على لفظه ومنطقه .

وروي في خبر آخر : ان أول من كتب بالعربية ثلاثة رهط من ولان ، يقال لاحدهم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة .

وروي أيضا : ان اول من كتب بالعربية من العرب حرب ابن امية بن عبد شمس .

وكان أول من رتب طبقات الناس ، وصنف طبقات الكتـــاب ، وبين منازلهم جمشيد بن أونجهان .

وكان لهراسب بن منوخا بن كيمنش اول من دوّن الدواوين ، وحضر الاعمال والحسبانات ، وانتخب الجنود ، وجد في عمارة الارضين ، وجباية الخراج لأرزاق الجيش ، وبنى مدينة بلخ .

أخبرني عبد الواحد بن محمد أنه سمع محمد بن واضح يقول :

رايت بأصبهان كتبا قديمة للأكاسـرة الى عمالهم في الخراج والعمارة ،

صدورها ، اذا كان الكتاب الى جماعة : خلدتسم ، واذا كان الى واحد : خلدت . ثم يذكر بعد ذلك ما يريد .

وكان للأكاسرة اربعة خواتيم ، فكان على خاتم الحرب والشرط : الاناة . وعلى خاتم الخراج والعمارة : التأييد ، وعلى خاتم البريد : الوحاء، وعلى خاتم المظالم : العدل .

وكان لملوك فارس ديوانان ،، احدهما : ديوان الخراج ، والآخر ديوان النفقات ، فكان كل ما يرد فالى ديوان الخراج ، وكل ما ينفق ويخرج في جيش او غيره ففي ديوان النفقات .

وكان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة ، ممن في خدمتهم، لبسة لا يلبسها أحد ممن في غير تلك الطبقة ، فاذا وصل الرجل الى الملك عرف بلبسته صناعته ، والطبقة التي هو فيها .

فكان الكتاب جميعا في الحضر يلبسون لبستهم المعهودة ، فاذا سافر الملك تزيوا بزي المقاتلة .

وكانت ملوك فارس جميعا تغلظ على من زوّر ،، او نقش خاتما على خاتم الملك ، وتلحقه من العقوبة بأهل الجنايات العظائم .

وكانت ملوك فارس تسمي كتاب الرسائل تراجمة الملوك ، وكانوا يقولون لهم : لا تحملكم الرغبة في تخفيف الكلام على حذف معانيه ، وترك ترتيبه والابلاغ فيه ، وتوهين حججه .

وكان الرسم جاريا في أيام الفرس ، أن يجتمع أحداث الكتاب ومن نشأ منهم بباب الملك ، متعرضين للاعمال ، فيأمر الملك رؤساء كتابه بامتحانهم ، والتفتيش عن عقولهم ، فمن رضي منهم عرض عليه اسمه ، وأمر بملازمة الباب ، ليستعان به ، ثم امر الملك بضمهم الى العمال ، وتصريفهم في الاعمال ، وتنقلهم على قدر آثارهم وكفاياتهم من حال الى حال، حتى ينتهي بكل واحد منهم الى ما يستحقه من المنزلة . ولم يكن يتهيأ لاحد ، ممن عرفه الملك وعرض عليه اسمه ، أن يتصرف مع احد من الناس الا عن امر الملك واذنه . وكانت الملوك تقدم الكتاب . وتعرف فضل صناعة الكتابة، وتخطي اهلها ، لما يجمعونه من فضل الراي الى الصناعة ، وتقول : هم نظام الامور ، وكمال الملك ، وبهاء السلطان ، وهم الالسنة الناطقة عن الملوك ، وخزان أموالهم ، وامناؤهم على رعيتهم وبلادهم .

وكان ملوك فارس اذا انفذوا جيشا انفذوا معه وجها من وجوه كتابهم ، وأمروا صاحب الجيش ألا يحل ولا يرتحل الا برايه ويبتغون بذلك فضل راي الكاتب وحزمه . ثم يقول الملك للكاتب المندوب للنفوذ معه : قد علمت أن الاساورة سباع الانس ، وانه لا عقوبة عليهم الا في خلع يد من

طاعة ، أو فشل عن لقاء ، أو هرب عن عدو ، وما سـوى ذلك فلا لوم عليهم فيه ، وعليك اعتمد في تدبير هذا الجيش فينفذ الكاتب مدبرا له ؛ فاذا احتاج الى مكاتبة باعذار او انذار ، او اخبار او استخبار ، كتب فيه عـن صاحب الجيش .

وكان ملوك فارس ، قبل أنو شروان ، يقاسمون الناس على ثمرهم وغلاتهم ، فكان اكثر ما يأخذونه الثلث ، واقله السدس ، ويأخذون فيما بين ذلك على قدر الشرب والربع ، فامر قباذ بن فيروز بمساحه الارض ، وعدد النخل والشجر ، واحصاء الجماجم ، وعزم على وضع وضائع الخراج ، فهلك قبل تمام ذلك .

ولما ملك انو شروان استتم المساحة والعدد وأحصى الجماجم ، ثـم جلس مجلسا عاما ، وامر كتابه باحصـاء جمل ذلك ، ففعلوا ، فخاطـب الناس بما راه من ذلك ، من وضع الخراج على جريان ما مسح من الارض ، وعلى ما عده من الشجر والنخل ، وما احصى من الناس ، وأن يجبى ذلك في ثلاثة أنجم ، في كل أربعة اشهر الثلث ، واستشارهم ، فلم يشر احـد منهم بشيء ، فاعاد القول ثلاث مرات والناس صمـوت . فقام رجل من عرض الناس ، فقال : ايها الملك ، أتضع الخراج الباقي على الانسـان الفاني ، وعلى كبد تموت ، وعلى زرع يجف ، ونهر يذهب ، وعين تريد ؟ فقال كسرى : ياذا الكلفة المشئوم ، من أي طبقات الناس انت ؟ فقال : أنا رجل من الكتاب ، فقال كسرى لكتابه : اضربوه بالدوى حتى يموت . فضربه الكتاب تبريا الى كسرى من رايه حتى مات . وقالوا : نحن راضون بما صنع الملك . فصنفت الوضائع على أصناف الغلات والنخل والشجر .

ووجدت في عهد لسابور بن أردشير فصلا يخاطب فيه ابنه ، يقول : وزيرك يكون مقبول القول عندك ، قوي المنزلة لديك ، يمنعه مكانه منك . وما يثق به من لطافة منزلته عندك من الخنوع لاحد ، او الضرعة الى احد ، أو المداهنة لأحـد في شيء مما تحت يديه لتبعثه الثقـة بك علـى محض النصيحة لك ، والمنابذة لمن أراد غشك ، وانتقاصك حقك ، وان أورد عليك رايا يخالفك ، ولا يوافق الصواب عندك ، فلا تجبهه جبه الظنين ولا ترده عليه بالتجهم ، فيفت في عضده ذلك ، ويقبضه عن ابثاثك كل راي يلـوح صوابه ، بل اقبل ما رضيت من رايه ، وعرفه ما تخوفت من ضرر الراي الذي انصرفت عنه ، لينتفعوا بأدبك فيما يستقبلون النظر فيه . واحذر كل الحذر من أن تنزل بهذه المنزلة سواه ، ممن يطيف بك من خاصتك وخدمك ، وأن تسهل لأحد منهم السبيل الى الانبساط بالنطق عندك ، والافاضة في

امور رعيتك ومملكتك ،، فانه لا يوثق بصـحة آرائهم ، ولا يؤمن الانتشـار فيما أفضي من السر اليهم .

ومن هذا العهد فصل ، قال فيه :

واعلم أن قوام امرك بدرور الخراج ، ودروره بعمارة البلاد ، وبلوغ الغاية في ذلك يكون باستصلاح اهله ، بالعـدل عليهم والمعونة لهم ، فان بعض الامور لبعض سبب ، وعوام الناس لخواصهم عدة ، وبكـل صنف منهم الى الآخر حاجة ، فاختر لذلك افضـل من تقدر عليه من كتابـك . وليكونوا من اهل البصر والعفاف والكفاية ، واسند الى كل امرىء منهـم شقصا يضطلع به ، ويمكنه الفراغ منه . فان اطلعت على أن أحدا منهم خان أو تعدى ، فنكل به ، وبالـغ في عقوبته ، واحذر أن تستعمـل على الارض الكثير خراجها الا البعيد الصوت ، العظيم شرف المنزلة . ولا تولين أحدا من قادة جندك ، الذين اتخذتهم عدة للحرب ، وجنـة من الاعداء ، خراجا ، فلعلك أن تهجم من بعضهم على خيانة للاموال ، وتضييع للعمل ، فان سوغته المال ، وأغضيت له على التضييع ، كان ذلـك هلاكا للمال ، واضرارا بالرعية ، وداعية الى فساد غيره ، وان انت كافأته على فعلـه استفسدته ، وأذهبت بهاءه ، وأضغنت صدره ، وهذا أمر توقيـه حزم ، والاقدام عليه خرق ، والتقصير فيه عجـز . ثم أعلم انه اذا تطعـم جمع الاموال من غير الجهة التي تعود أخذها منها ، اشتد ركونـه الى الدنيا ، وصار طلبه الاموال من غير الوجه الذي قرب به ، وأعطي عليه . وليس شيء افسد لسائر العمال والكتاب ، ولا أدعى الى خراب أماناتهم ، وهلاك ما تحت أيديهم ، من جهالة الملك ، وقلة معرفته بحالاتهم ، وتركـه مكافاة المحسن باحسانه ، والمسيء باساءته ، فأكثر الفحص عن عمال الخراج وسيرهم وآثارهم ، واختر لذلك العيون الموثوق بهم . واعلم أن من أهـل الخراج من يلجىء بعض أرضه وضياعه الى خاصة الملك وبطانته ، لأحد امرين ، أنت حري بكراهتهما : اما الامتناع من جور العمال ، وظلم الولاة ، فتلك منزلة يظهر بها سوء اثر العمال ، وضعف الملك ، واخلاله بما تحت يده ، واما لدفع ما يلزمهم من الحق والكسـر له ، فهذه خلة يفسد بها أدب الرعية ، وتنتقص الملك ، فاحذر ذلك ، وعاقب الملجئين والملجأ اليهم .. قبل معاقبة العمال .

وفصل من كتاب لاردشير يخاطب به وزراءه :

أعلموا أنكم ان هممتم الا تستعينـوا الا بمن تكاملت فيه الخصـال الرضية ، واحرز المذاهب المحمودة ، فقد رمتم شيئا عسيرا غير موجود .

فاكتفوا من دين المرء وورعه ، بان يكون للكبائر والفواحش مجتنبا ، ومن الاصرار على العسف والظلم مستوحشا ، ومن امانته وعفافه أن يكون عما يعرض له من طمع ، وامر في دخوله ظاهر نقص او ضرر ، متنزها ، ومن غنائه ونفاذه ان يكون بالعمل الذي تستعينون به فيه مضطلعا ، وأن لا يضيع لكم فيما يلي من اموركم حقا وأعلموا ان لكم أعمالا يكفيكموها من دونكم ، وأعمالا لا يضطلع بها سواكم ، فاعرفوا حدود ذلك ، ولا تتكلفوا ما يكفيكموه من تحت أيديكم ، ولا تكلفوا ما يجب عليكم النظر فيه من سواكم ، فان حدث لكم فراغ بعد قضائكم ما عليكم ، فاستعينوا بالتودع والراحة على ساعات الشغل .

وكان كشتاسب يقول للكتاب :

الزموا العفاف ، وادوا الامانة في كل ما يفوض اليكم ، واجمعوا على غرائزكم وعقولكم سماع الادب ، واستعملوا ما استفدتم من الادب بما طبعت عليه عقولكم ، وليكن اجتباؤكم بالقسط والمعدلة ، ولا تزينوا لنا ما لا تليق بنا الاحدوثة به ، والايثار له .

ولما ملك أبرويز بن هرمز جمع رعيته وخطب عليهم خطبة ، قال في فصل منها يخاطب وزيره :

اكتم السر ، واصدق الحديث ، واجتهد في النصيحة ، واحترس بالحذر ، فعلي الا أعجل عليك حتى استأنى ، ولا اقبل عليك حتى استيقن ، ولا أطمع فيك فاغتالك .

وحكي ان الجور كثر في ايام الملك أنو شروان ، فقال له موبذان موبذ :

أيها الملك ، اني سمعت فقهاءنا يقولون : انه متى لم يغمر العدل الجور في بلدة ، ابتلى أهلها بعدو يغزوهم ، وخيف تتابع الآفات عليهم ، وقد خفنا ذلك بشيء قد فشا من جور اسبابك .

فنظر أنو شروان في ذلك ، فاستقر عنده ان ظلما وجورا قد جرى ، فصلب ثمانين رجلا منهم ، من الكتاب خمسون رجلا ، ومن العمال والامناء ثلاثون رجلا .

وكانت الأكاسرة بعد أنو شروان تقول لاهل الخراج :

من كره منكم الاداء الى العمال ، فهذا بيت مالنا فادوا اليه . فلم يكن عامل يبسط يده الى ظلم أحد ، خوفا من عدول الرعية الى بيت المال بأداء الخراج ، فيستدل بذلك على مذهبه .

ولم يكن يركب الهماليج في أيام الفرس الا الملك والكاتب والقاضي .

وكان أرسطاطاليس أدّب الاسكندر ، فلما نشأ الاسكندر وعلا ، وعرف من ارسطاطاليس ما عرفه من الحكمة ، كان شبه الوزير له ، وكان يعتمد

عليه في الراي والمشورة . فكتب اليه يخبره انه قد كثر في خواصه وعسكره قوم ليس يأمنهم على نفسه ، لما يرى من بعد هممهم وشجاعتهم ، وشذوذ آلتهم ، وليس يرى لهم عقولا تفي بهذه الفضائل التي فيهم بقدر هممهم .

فكتب اليه ارسطاطاليس :

فهمت ما ذكرت عن القوم الذين ذكرت . فأما هممهم ، فمن الوفاء بعد الهمة ، واما ما ذكرت من شجاعتهم مع نقص عقولهم ، فمن كانت هذه حاله فرفهه في المعيشة ، واخصصه بحسان النساء ، فان رفاهة العيش توهي العزم ، وان حب النساء يحبب السلامة ، ويباعد من ركوب المخاطرة، وليكن خلقك حسنا ، تستدع به صفو النيات ، واخلاص المقالات ، ولا تتناول من لذيذ العيش ما لا يمكن أوساط اصحابك مثله ، فليس مع الاستئثار محبة ، ولا مع المؤاساة بغضة .

واوصى ابرويز ابنه شيرويه وصية طويلة ، قال في فصل منها :

وليكن من تختاره لوزارتك امرأ كان متضعا فرفعته ، وذا شرف كان مهتضما فاصطنعته ، ولا تجعله امرأ اصبته بعقوبة فاتضع عنها ، ولا امرأ اطاعك بعد ما اذللته ، ولا احدا يقع في خلده أن ازالة سلطانك خير له ، وأدعى الى ثبوته ، واياك أن تستعمل ضرعا غمرا ، ولا كبيرا مدبرا ، قد اخذ الدهر من عقله ، كما اخذت السن من جسمه .

وكانت الفرس تقول :

للوزير على الملك ، وللكاتب على الصاحب ، ثلاث خصال : رفع الحجاب عنه ، واتهام الوشاة عليه ، وافشاء السر اليه .

وفي كتاب من كتب الهند :

اذا كان الوزير يساوي الملك في المال والهيبة والطاعة من الناس ، فليصرعه الملك ، فان لم يفعل ، فليعلم انه المصروع .

ومما استحسنه من شدة التحرز ما حكى في كتاب من كتب الهند :

انه أهدى الى بعض ملوكهم حلى وكسوة ، وبحضرته امرأتان من نسائه ، ووزير من وزرائه . فخير احدى امرأتيه بين اللباس والحلية ، فنظرت المرأة الى الوزير كالمستشيرة له ، فغمزها باحدى عينيه على أخذ الكسوة ، ولحظه الملك ، فعدلت عما أشار به من الكسوة ، واختارت الحلى ، لئلا يفطن الملك للغمزة ، ومكث الوزير اربعين سنة كاسرا عينه ، ليظن الملك انها عادة وخلقة .

واستشار سابور ذو الاكتاف وزيرين كانا له ، في أمر من اموره ، فقال له احدهما :

لا ينبغي للملك ان يستشير منا أحدا الا خاليا ،فانه اموت للسر ،

واحزم في الراي ، وادعى الى السلامة ، واعفى لبعضنا من غائلة بعض ؛ لأن الواحد رهن بما افضى اليه ، وهو أحرى الا يظهره ، رهبــة للملك ، ورغبة اليه ، واذا كان عند اثنين فظهــر ، دخلت على الملــك الشبهة ، واتسعت على الرجلين المعاريض ، فان عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، وان اتهمها أتهم بريئا بجناية مجرم ، وان عفا عنهما ، عفا عن واحد لا ذنب له ، وعن الآخر والحجة عليه .

وروي ان داود اول من قال : « أما بعد » وهو فصل الخطاب .
وروي ان اول من قال : أما بعد قس بن ساعدة .

آسماء من ثبت على كتابة رسول الله

صلى الله عليه وسلم

علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان كانا يكتبان الوحي ، فان غابا كتبه ابي بن كعب ، وزيد بن ثابت .

وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه .

وكان المغيرة بن شعبة ، والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس .

وكان عبد الله بن الارقم بن عبد يغوث والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم ، وفي دور الانصار بين الرجال والنساء .

وكان زيد بن ثابت يكتب الى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي .

وروي عنه انه قال : كنت أكتب لرسول الله يوما ، فقام لحاجة فقال لي : ضع القلم على اذنك ، فانه اذكر للمملي ، واقضى للحاجة .

وروي أن معيقب بن ابي فاطمة ، حليف بني أسد ، كان يكتب مغانم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان حنظلة بن الربيع بن المرقع بن صيفي ، ابن اخي اكثم ابن صيفي الاسيدي ، خليفة كلّ كاتب من كتاب النبي اذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب . وكان يضع عنده خاتمه ، وقال له : الزمني ، واذكرني بكل شيء لثالثة . فكان لا يأتي على مال ولا طعام ثلاثة أيام الا اذكره ، فلا يبيت رسول الله وعنده شيء منه .

ومرّ رسول الله صلى الله عليه واله وسلم بامراة مقتولة يوم فتح مكة ، فقال لحنظلة ، الحق خالدا فقل له : لا تقتلن ذرية ولا عسيفا . ومات حنظلة بمدينة الرها ، فقالت فيه امرأته :

يا عجب الدهر لمحزونة *	تبكي على ذي شيبة شاحب
ان تسأليني اليوم ما شفني	اخبرك قولا ليس بالكاذب
ان سواد الرأس أودى به	وجدي على حنظلة الكاتب

وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب له ، ثم ارتد ولحق بالمشركين ، فقال : ان محمدا ليكتب بما شئت . فسمع بذلك رجل من الانصار ، فحلف بالله ان أمكنه الله منه ليضربنه ضربة بالسيف . فلما كان يوم فتح مكة جاء به عثمان ، وكان بينهما رضاع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عبد الله قد أقبل تائبا ، والانصاري يطيف به ومعه سيفه ، فأعاد عليه عثمان القول ، فمد رسول الله يده فبايعه ، وقال للأنصاري : لقد تلومتك ان توفي بنذرك ، فقال : هلا أومضت الي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينبغي لي أن اومض .

وروي عن الشعبي :

ان رسول الله كتب اربعة كتب ، في الاول : باسمك اللهم ، فنزلت « هود » وفيها : « بسم الله مجراها ومرساها » . وكتب في الثاني : بسم الله ، فنزلت بنو اسرائيل وفيها : « قل ادعوا الله أو أدعوا الرحمن ». فكتب في الثالث : « بسم الله الرحمن » . ثم نزلت سورة النمل وفيها : « انه من سليمن وانه بسم الله الرحمن الرحيم » ، فكتب في الرابع : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

أيام أبي بكـر

رضي الله عنه

وكان يكتب لابي بكر عثمان بن عفان وزيد بن ثابت ، كتابه .

وروي أن عبد الله بن الارقم كتب له ، وأن حنظلة بن الربيع كتـــب له ايضـا .

أيام عمر بن الخطـاب

رضي الله عنه

وكان يكتب لعمر زيد بن ثابت . وكتب له عبد الله بن الارقم . وكتب له على ديوان الكوفة ابو جبيرة بن الضحاك الانصاري .

وكان عمر يقول لكتابه ، ويكتب الى عماله :

ان القوة على العمل الا تؤخروا عمل اليوم لغد ، فانكم ان فعلتم ذلك تداكت عليكم الاعمال ، فلا تدرون بأيها تبتدون ، وايها تأخذون .

وكان عمر اول من دون الدواوين من العرب في الاسلام ، وكان السبب في ذلك ، ان ابا هريرة قدم عليه من البحرين ومعه مال ، فلقي عمر ، فقـــال له عمر : ماذا جئت به ؟ قال : خمس مئة الف درهم ، فقال عمر : اتـــدري ما تقول ! قال : نعم ، مئة الف درهم ، ومئة الف درهم ، ومئة الف درهم ، ومئة الف درهم ، ومئة الف درهم . فقال عمر : اطيب هو ؟ قال : لا ادري . فصعد عمر المنبر ، فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال :

ايها الناس ، قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلفناه كيلا ، وان شئتـــم ان نعد عدا . فقام اليه رجل ، فقال : يا امير المؤمنين ، قد رأيـــت هؤلاء الاعاجم يدونون ديوانا لهم . قال : دونوا الدواوين .

ولما امر عمر الفيرزان حضره وقد بعث بعثا له ، فقال له : هذا البعث قد أعطيت أهله الاموال ، فان تخلف منهم رجل واخل بمكانه فما يدرى صاحبك واشار عليه بالديوان ، وفسره له وشرحه ، فوضع عمر الديوان .

ولما استكتب أبو موسى زياد ابن أبيه ، كتب اليه عمر يستقدمه . فاستخلف زيادا على عمله ، فلما قدم عليه سأله عمن استخلفه ، فأعلمه انه استخلف زيادا ، فقال له : استخلفت غلاما حدثا ! فقال : يا امير المؤمنين ، انه ضابط لما وليّ ، خليق بكل خير .

وكتب اليه عمر يأمره بالقدوم عليه ، والاستخلاف على العمل . فاستخلف زياد عمران بن حصين ، وقدم عليه . فقال عمر : لئن كان ابو موسى استخلف حدثا لقد استخلف الحدث كهلا ، ثم دعا بزياد ، فقال له : ينبغي ان تكتب الى خليفتك بما يجب انيعمل به . فكتب اليه كتابا ، ودفعه الى عمر ،فنظر فيه ثم قال :أعد ، فكتب غيره ، فقال له : اعد ، فكتب الثالث ، فقال عمر : لقد بلغ ما أردت في الاول ، ولكني ظننت انه قد روى فيه ، ثم بلغ في الثاني ما اردت ، فكرهت أن اعلمه ذاك ، وأردت أن اضع منه . لئلا يدخله العجب فيهلك .

ولما رفع ضبة بن محصن العنزي والمتظلمون على ابي موسى ظلاماتهم الى عمر ، وشكوه ، قالوا : وزيره له غلام ختار ، ومائدة ، وله برذون .

ولما استحضر عمر زيادا ، قال زياد : فأتيته وعلي ثياب كتان ، وعلي خفان ساذجان ، وفي يده مخصرة على راسها حديد ، فغمزها في خفي حتى خرقته وأدمى رجلي فلما كان من الغد ، رجعت اليه في خفين غليظين ، وعلي ثوبان من قطن ، فلما رآني قال : هكذا يا زياد ! هكذا يا زياد ! ثم قال لي : بكم أخذت هذين الخفين ؟ قلت بواف — يريد درهما وافيا — فأعطاني درهما وقال : اشتر لي مثلهما .

قال : وكان عمر يملي على كاتب بين يديه ، فكتب الكاتب غير ما قال عمر ، فقال له زياد : يا أمير المؤمنين ، قد كتب غير ما قلت . فنظر في الكتاب ، فكان كما قال زياد ، فقال عمر : انّى علمت هذا ، قال : رأيت رجع فيك وخطه ، فرأيت ما أحارت كفه غير ما رجعت به شفتيك .

وكتب عمر الى ابي موسى يأمره بحفر نهر لاهل البصرة ، فحفر لهم النهر المعروف بنهر الابلة .

وروي أن عمر وهب لزياد عند وصوله اليه الف درهم ، ثم تذكرها بعد ،

فقال : ضاع الف اخذه زياد . فلما دخل عليه قال له : ما فعل الفك ؟ قال أشتريت به عبدا واعتقته ، فقال : ما ضاع الفك .

ثم قال له : يا زياد ، هل انت حامل كتابي الى ابي موسى في عزلك عن كتابته ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، ان لم يكن ذلك عن سخط ، قال : ليس عن سخط ، ولكني أكره ان أحمل فضل عقلك على الرعية .

وكان عمر أول من قرر التأريخ من الهجرة ، لان أبا موسى كتب اليه : انه يأتينا منك كتب ليس لها تأريخ — وكانت العرب تؤرخ بعام الفيل — فجمع عمر الناس للمشورة ، فقال بعضهم : ارخ بمبعث النبي ، وقال بعضهم بمهاجره ، فقال عمر : لا ، بمهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فان مهاجره فرق بين الحق والباطل . وكان ذلك في سنة سبع أو ثماني عشرة من الهجرة .

أبو الزناد : وكان أبو الزناد : عبد الله بن ذكوان ، يكتب ليحيى بن الحكم بن أبي العاص ، وهو والي المدينة ، فغلا السعر بالمدينة ، فقال بعض ظرفائهم :

الم يحزنك ان السعر غال	لقول ابي الزناد ايا غلام
فلو عاش الانام بلا كلام	لقلنا بعدها حرم الكلام

أيــــام عثمـــــان

رضي الله عنه

وكان يكتب لعثمان بن عفان ، مروان بن الحكم ، وكان عبد الملك ابن مروان يكتب له على ديوان المدينة ، وابو جبيرة الانصاري على ديوان الكوفة وكان عبد الله بن الارقم بن عبد يغوث ، أحد كتاب النبي ، يتقلد له بيــت المال . وكان ابو غطفان بن عوف بن سعد بن دينار ، من بني دهمان ، من قيس عيلان ، يكتب له ايضا . وكان يكتــب له أهيب مولاه ، وحمران بــن ابان مولاه .

ولما قصد المصريون في الدفعة الاولى عثمان بن عفان وجه اليهم بجابر بن عبد الله ، حتى ردهم .

وروي عن جابر انه قال : ان المصريين لما صاروا بايلة راجعين عن عثمان ؛ مرّ بهم راكب انكروا شأنه ، فأخذوه ، فاذا هو غلام لعثمان على جمل له معروف ، وكان عثمان يحج عليه ، ففتشوه فوجدوا معه قصبة من رصاص ، فيها صحيفة عليها خاتم عثمان ، ففتحوا الصحيفة فاذا فيها كتاب من عثمان الى عبد الله بن سعد ، عامله على مصر ، فيه : اذا قدم عليك فلان وفلان وفلان ، فاضرب أعناقهم ، وفلان وفلان وفلان ، فاقطع أيديهم وأرجلهم ؛ فسمى الذين كانوا ساروا الى عثمان ، وانصرفوا عنه من أهل مصر . فكروا راجعين حين وقفوا على ذلك ، فاقرءوا الكتاب اصحاب رسـول الله . فعاتب قوم عثمان على ذلك ، فقال : اما الخط فخط كاتبي ، وامــا الخاتم فخاتمي ، ولا والله ما امرت بذلك — وكان بخط مروان بن الحكم — فقال القوم : ان كنت كاذبا فلا امامة لك ، وان كنت صادقا فليس يجوز ان يكون اماما من كان بهذه المنزلة من الغفلــة ، حتى يقدم عليه كاتبه بهــذا الامر العظيم .

أيام عليّ بن أبـــي طالب

رضي الله عنه

وكان يكتب لعلي سعيد بن نمران الهمداني ؛ وكان عبد الله بن جعفر يكتب له ايضا . وروي أن عبد الله بن جبير كتب له . وكان عبيد الله بن أبي رافع يكتب له .

وحكي عن عبيد الله هذا انه قال :

كنت بين يدي علي بن ابي طالب ، فقال : يا عبد الله ، الق دواتك ، واطل شباة قلمك ، وفرج بين السطور ، وقرمط بين الحروف .

ولما قدم علي الى البصرة استتر عنه زياد ، فلقيه عبد الرحمن بـــن ابي بكرة ، فقال له : يا اصلـــع ، اين عمك ؟ فقال : ادلـــك عليه على ان تؤمنه ، فأدخله عليه في دار امه . فقال له علي : اين ما عنـــدك من المال ؟ فقال : عندي على حاله ، فقال له : مثلك فليؤتمن . ثم اقبل مع علي ، فقال لأصحابه : أتاكم ابن بجدتها . فلما سار عن البصرة استعمله على الخراج والديوان ، وقال له : احفظ ما استكفيتك .

أيام معاوية بن أبي سفيان

وكان يكتب لمعاوية على الرسائل عبيد الله بن أوس الغساني ، وكان يكتب له على ديوان الخراج سرجون بن منصور الرومي .

وكان لمعاوية كاتب ، يقال له : عبد الرحمن بن دراج — وكان له اخ ، يقال له : عبيد الله بن دراج ، وكانا مولييه — فقلده الخراج بالعراق ، عن تقليده المغيرة الحرب بها ، وطالب اهل السواد ان يهـدوا له في النوروز والمهرجان ، ففعلوا ، فبلغ ذلك عشرة الاف ألف درهم في سنة .

وكان عمرو بن سعيد بن العاص يكتب على ديوان الجند .

وكان معاوية اول من اتخذ ديوان الخاتم ، وكان سبب ذلك : انه كتب لعمرو بن الزبير بمئة الف درهم الى زياد ، وهو عامله على العراق ، ففض عمرو الكتاب وجعلها مئتي الف درهم ، فلما رفع زياد حسابه ، قال معاوية : ما كتبت له الا بمئة ألف درهم ، وكتب ألى زياد بذلك ، وامره ان يأخذ المئة الف منه ، فحبسه بها . فاتخذ معاوية ديوان الخـاتم ، وقلده عبد الله بن محمد الحميري ، وكان قاضيا .

وكانت العرب اذا كتبت الى احد ، شـريفا كان او مشروفا ، بـدأ الكاتب بنفسه الى المكتوب اليه ، وكتب : من فلان الى فلان .

وقد حكي أن العلاء بن الحضرمي كتب الى رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

من العلاء بن الحضرمي الى محمد رسول الله ، وكان عامله على البحرين . وعلى ذلك جرى الامر الى أيام معاوية ، فأراد عبد الله ابن عمر ان يكتب اليه ، لما استجمع عليه ، في حاجة ، فأشار ولده أن يبدأ به في الكتاب ، فكتب : الى معاوية بن أبي سفيان ، من عبد الله بن عمر .

وكان زياد يجلس في كل يوم للنظر في اسباب عمله الا يوم الجمعة .

وخلا يوما يملي على كاتبه اسرارا له ، وبحضرته عبيد اللـه ابنه ، فنعس زياد ، فقام ينام ، فقال : لعبيد الله : تعهد هذا ، لا تغير شيئا مما رسمته له ، فعرضت لعبيد الله حاجة الى البول ، واشتد ذلك به ، فكره

أن ينبه أباه ، وكره ان يقوم عن الكاتب ، فشد ابهاميه بخيط وختمهما ، وقام لحاجته . فاستيقظ زياد قبل عودة عبيد الله ، فلما نظر الى الكاتب : سأله عن خبره ، فخبره : فاحمد ذلك من فعل عبيد الله .

وذكر أن زيادا دخل يوما ديوانه ، فوجد فيه كتابا ، وفيــه : ثلاثة دنان ، فقال : من كتب هذا ؟ فقيل : هــذا الفتى ، فقال : اخرجــوه من ديواننا لئلا يفسده ، وامح هذا واكتب : أدن .

وكان يكتب لزياد على الخراج زاذا نفروخ ؛ ويكتب له على الرسائل عبد الله بن أبي بكرة ، وجبير بن حية ، وكان يكتب له ايضا مرداس مولاه .

وتوفي زياد يوم الثلاثاء لاربع خلون من شهر رمضان من سنة ثلاث وخمسين .

وقد روي ان سليمان بن سعيد ، مولى الحسين ، كتب لمعاوية ، وأن سليمان المشجمي ، من قضاعة ، كتــب له على فلسطين . فكتب الــى سليمان هذا :

اتخذ لي ضياعا ، ولا تكن بالداروم المجداب ، ولا بقيسارية المغراق ، واتخذها بمجاري السحاب . فاتخذ له البطنان من كورة عسقلان .

وكتب له على بعض دواوينـــه عبيد الله بن نصر بن الحجاج بــن علاء السلمي .

وروي ان حبيب بن عبد الملك بن مروان كتب له على ديوان المدينة .

وكان يكتب له على ديوان خراج حمص ابن أوثال النصراني ، ولــه بحمص قصر يعرف به .

وكان عبد الرحمن بن خالد بن الوليــد عاملا على حمص ، فطالــت امرته ، فخافه معاوية أن يبايع له أهل الشام بالخلافة ، لما كان عندهم من آثار أبيه ، خالد بن الوليد ؛ ولقائه عن المسلمين في أرض الروم ، فدس اليه ابن أوثال من سقاه سما فمات . فجلس المهاجر بن خالد بن الوليد مع عروة بن الزبير بالمدينة ؛ فقال عروة للمهاجر : هذا ابن أوثال يفخر بقتل عبــد الرحمن . فخرج المهاجر من فوره حتى أتى دمشق ، فسأل عن ابن أوثال ، فأخبر انه منكتاب معاوية ، فوقف ناحية حتى خرج من ديوانه ، فلما رآه المهاجر قال له : ان لي اليك حاجة ، فاعدل معي ، فعــدل معه الى زقاق يعرف بزقاق عطاف بدمشق ، وكان معه سيف ، فعلاه به فقتله ، فأخــذه معاوية فحبسه سنة ، ثم خلاه .

وأهدى زياد الى معاوية هدايا كثيرة ، وكان فيها عقد جوهر نفيس ، فأعجب به معاوية ، فلما راى ذلك زياد ، قال له : يا أمير المؤمنين ، دوخت لك العراق ، وجبيت لك برها وبحرها ، وغثها وسمينها ، وحملت اليــك

لبها وقشورها . فقال له يزيد : لئن فعلت ذلك لقد نقلناك من ولاء ثقيف الى عز قريش ، ومن عبيد الى ابي سفيان ، ومن القلم الى المنابر ! وما امكنك ما اعتددت به الا بنا ، فقال له معاوية : حسبك ! وريت بك زنادي .

تفضيل العرب للسيف على القلم : ولم تزل العرب تفضل السيف على القلم ، وفي ذلك يقول سليط ابن جرير بن لبيد بن عقبة بن خالد بن عبد عمرو النمري :

أتحقرني ولست لذاك أهلا	وتدني الاصفرين من الخوان
جهابذة وكتابا وليسوا	بفرسان الكريهة والطعان
ستعرفني وتذكرني اذا ما	تلاقى الحلقتان من البطان

ومن هذا المعنى سرق ابو عبادة ، الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد ابن شملال بن جابر بن سلمة بن مسهر بن الحارث بن جشم بن أبي حارثة ابن جدي بن تدول بن بحتر عن عنود بن عنيز بن سلامان بن ثعل ابن عمرو بن الغوث بن طيىء ، البحتري قوله :

تعنو له وزراء الملك راغمة	وعادة السيف ان يستعبد القلما

تعنو : تخضع ، ومنه قول الله عز وجل : « وعنت الوجوه للحي القيوم » .

قال عمر بن شبه : حدثنا المعافى بن نعيم ، قال :

وقفت انا ومعبد بن طوق على مجلس لبني العنبر ، انا على ناقة ، وهو على حمار ، فقاموا الينا ، فبدءوا بي ، فسلموا عليّ ، ثم انكفئوا على معبد ، فقبض يده عنهم ، وقال : لا ، ولا كرامة ! بدأتم بالصغير من قبل الكبير ، وبالمولى على العربي ، فاسكتوا . فانبرى هن منهم له ، فقال : بدأنا بالكاتب قبل الامي ، وبالمهاجر قبل الاعرابي ، وبراكب الراحلة قبل راكب الحمار .

وقلد معاوية عبد الرحمن بن زياد خراسان سنة ثمان وخمسين ، وكان ضعيفا سخيا . وفيه يقول زياد بن عمرو العتكى :

سألناه الجزيل فما تلكا	واعطى فوق منيتنا وزادا
وأحسن ثم أحسن ثم عدنا	واحسن ثم عدت له فعادا
مرارا لا أعود اليه الا	تبسم ضاحكا وثنى الوسادا

ولم يزل عليها الى أن ولي يزيد ، وقتل الحسين عليه السلام ، فاستخلف على عمله قيس بن الهيثم . وأقبل الى يزيد ، فأنكر قدومه ، ثم رضي عنه ، وسأله عما حصل له ، فاعترف بعشرين الف الف درهم ، فسوغه اياها .

وكان معه من العروض أكثر منها . فقال يوما لاسطفانوس كاتبه :

ويحك يا اسطفانوس لا أني لاعجب كيف يجيئني النوم وهذا المال عندي ! فقال له : وكم مبلغه ؟ قال : اني قدرت ما عندي لمئة سنة ، في كل يوم الف درهم . لا احتاج منه الى شرى رقيق ولا كراع ولا عرض من العروض ، فقال له اسطفانوس : انام الله عينك ايها الامير ، لا تعجب من نومك وهذا المال عندك ، ولكن أعجب من نومك اذا ذهب ثم نمت .

فذهب ذلك كله : أودع بعضه فذهب ، وجحد بعضه ، وسرق أسبابه (١) بعضه ، فآل امره الى أن باع فضة مصحفه .

وكان يركب حمارا صغيرا تنال رجله الارض ، فلقيه مالك بن دينار ، فقال له : ما فعل المال الذي قلت فيه ما قلت ؟ قال : كل شيء هالك الا وجهه يا أبا يحيى .

---

(١) أسبابه : القائمون بتنفيذ اموره والمشرفون على أعماله .

ايام يزيد بن معاوية

وكان يكتب ليزيد بن معاوية عبيد اللـه بن أوس الغساني كاتب معاوية . ويكتب له على ديوان الخراج سرجون بن منصور .

ولما اتصل بيزيد مصير الحسين ، رضي الله عنه ، الى الكوفة ، كره ذلك وشق عليه ، فشاور سرجون بن منصور فيمن يولي العراق ، ليقاوم الحسين ، فقال له سرجون : عبيد الله بن زياد — وكان يزيد كارها له — فقال : لا خير فيه ، فسم لي غيره ، قال : ارايت لو كان معاوية حيا فأشار به عليك أكنت قابلا ؟ قال : نعم ؛ فأخرج اليه عهدا من معاوية لعبيد الله بولاية الكوفة ، وعليه خاتمه ، وقال له : هذا عندي ، ولم يمنعني من اخبارك به من أول الامر الا علمي ببغضك لعبيد الله ، فقال له : فأنفذه اليه ، وكان عبيد الله يتقلد البصرة مع مسلم بن عمرو الباهلي .

وكتب معه عن يزيد اليه :

أما بعد . فان الممدوح مسبوب يوما ما ، وان المسبوب ممدوح يوما ما، وقد انتميت الى منصب كما قال الاول :

رفعت فجاورت السحاب وفوقه فمالك الا مرقب الشمس مرقب

وقد ابتلي بحسين زمانك دون الازمان ، وبلدك دون البلدان ، ونكبت به من بين العمال ، فاما تعتق أو تعود عبدا ، كما يعبد العبد ، والسلام .

وقلد يزيد بن معاوية سلـم بن زياد خراسان ، وكان يكتب لـه اسطفانوس كاتب أخيه عبد الرحمن .

ايام معاوية بن يزيد بن معاوية

وكان يكتب لمعاوية بن يزيد : الريان بن مسلم ، ويكتب له على الديوان سرجون بن منصور النصراني .

ايام مـــروان بن الحكم

وكان يكتب لمروان سفيان الاحول ، ويكتب له على الديوان سرجون بن منصور النصراني . وقد روي : انه كتب له ابو الزعيزعة .

ايام عبد الملك بن مروان

وكان يكتب لعبد الملك قبيصة بن ذؤيب بن حلحلة بن عمرو الخزاعي ، ويكنى : أبا اسحاق ، وكان خاصا به ؛ وبلغ من لطافة محله منه أن كـــان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل أن يقرأها عبد الملك .

وكان مروان بن الحكم قد عهد الى ابنه عبد العزيز بعد عبد الملك ، فهمّ عبد الملك ، لما تمكن واستقـــام امره ، بخلعه والعهد لابنيه : الوليـــد وسليمان ؛ فنهاه عن ذلك قبيصة بن ذؤيب ، وقال له : لعل الموت يأتـــي عليه فتستريح منه ، فقلده مصر . فورد الكتاب في جمادي الاولى سنة خمس وثمانين بوفاته ، فقرأ قبيصة الكتاب قبل عبد الملك ، على عادته في أمثاله ، فعزاه بأخيه عبد العزيز . فولى عبد الملك ابنه عبد الله بن عبد الملك مصر ، وعقد لابنيه الوليد وسليمان العهـــد بعده ، وكتب الى البلدان بذلـــك ، فبايعوا .

وقائع واحداث : وكان يكتب لعبد العزيز بن مروان يناس بن خمايا ، من أهل الرها ، وكان غالبا عليه ، وبنى له عبد العزيز قصرا على بـــاب الجامع بالفسطاط . فلما ورد عبد الملك خبر وفاة عبد العزيز وجه الضحاك بن عبد الرحمن الى مصر ، وقال : لتصر الى يناس ، كاتـــب عبد العزيز ، فاقسم ماله بينك وبينه . قال الضحاك : فصرت اليه فقاسمته ، فكان أكثر ما قاسمته عليه النحاس ، الذي كان يعمل بأرض الروم ، خلا الحلى والجوهر فانى لم اقاسمه عليهما ، وقلت : أمير المؤمنين يقاسمك على هذا . وحملت جميعه الى عبد الملك ، فلما وضعته بين يديه ، جعل يقلبه بقضيب كان في يده ، فمر به عقد فأخذه ، ثم قال ليناس : دونك هذا الحلي ، فأخذه . فلما انصرف قلت : لقد احسن امير المؤمنين في مقاسمتك : فقال لي : لحبة مـــن ذلك العقد خير من جميع ما ترك .

وكان يكتب لعبد الملك على ديوان الرسائل ابو الزعيزعة مولاه ، فقال له عبد الملك يوما : يا ابا الزعيزعة ، هل اتخمت قط ؟ قـــال : لا ، قال : فكيف ؟ قال : لأنا اذا طبخنا انضجنا ، واذا مضغنا دققنا ، ولا نكظ المعدة ، ولا نخليها .

وكان زفر بن الحارث بحضرة عبد الملك ، وبحضرته ابو الزعيزعة ، بعد ان اجتمع عليه ، فقال زفر لعبد الملك : الحمد لله الذي نصرك علـــى كره من كره ! فقال ابو الزعيزعة : ما كره ذلك الا كافر ، فقال له زفر : كذبت ! قال الله لنبيه محمد : « كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا مـــن المؤمنين لكارهون » أمؤمنين سماهم أو كفارا ؟ فغضب عبد الملك ؟ فقـــال زفر : يا امير المؤمنين ، ارايت لو قلت : الحمد لله الذي نصرك ، فقد كنت مسرورا بذلك ؟ اما كنت تمقتني ، ويمقتني الله عز وجل ، وانا اقاتلك تسع سنين ! فقال : صدقت لا

وكان يكتب لعبد الملك أيضا ، روح بن زنباع الجذامي ، ويكنى روح : ابا زرعة . وكان عبد الملك كثيرا يقول : ان روح بن زنباع شامي الطاعة ، عراقي الحظ ، حجازي الفقه ، فارسي الكتابة .

وكان معاوية همّ بروح هذا ، فقال له : لا تشمتن بي عدوا أنت وقمته، ولا تسوءن بي صديقا أنت سررته ، ولا تهدمن مني ركنا انت بنيته ، هلا أتى حلمك واحسانك على جهلي ؟ فأمسك عنه ،، وأنشد ::

اذا الله سنى عقد شيء تيسرا

وكان عبد الملك بن مروان قلد اخاه بشرا العراق ، وضـــم اليه روح ابن زنباع . فلما وصل بشر الى العراق أغري بالشراب ، فثقل عليه مكان روح بن زنباع ، فقال : من يحتال لي فيه ؟ فقال سراقة البارقي : انا . ثم

صار سراقة الى دهليز روح ، فكتب على الحائط :

يا روح ، من لدنانير مجرشة اذا نماك لأهل المغرب الناعي!
ان الخليفة قد شالت نعامته فاحتل لنفسك يا روحبن زنباع!

وكتب فوقه : قال بعض شعراء الجن . فلما وقف روح على ذلك ، غدا على بشر ، فاستأذنه في الرجوع الى الشام ، فجعل بشر يحبسه ويسأله ان يقيم ، فأبى ، فأذن له ، فشخص فلما دخل على عبد الملك قال : الحمد لله على سلامتك يا امير المؤمنين ! قال : وما ذاك ؟ فأخبره الخبر ، فقال له : سخر منك بشر واهل العراق لما ثقت عليهم ، فاحتالوا في الراحة منك .

ثم كتب لعبد الملك ربيعة الجرشي ، فلما عزم على تقليد الوليد العهد ، شاوره وقال له اني قد عملت على توليته شيئا من النواحي اولا ، فاذا مرت له مدة قلدته ، فقال امهلني سنة ، فابى عليه ، فقال له : يا امير المؤمنين ، انك لو بعثت الوليد يقسم الاموال بين الناس ما رضوا عنه ، فكيف ببعثه جابيا ، ان احتاط ذم ، وان رفق عجز ! ولكن وله المعاون والصوائف يكن ذلك له شرفا وذكرا .

ويشبه هذا شيئا ما حكي عن ابي العباس الطوسي مع ابي جعفر المنصور ، وذلك ان المنصور قال له ، ولعيسى بن علي ، والعباس بن محمد ، وغيرهم من خواصه : اني قد عزمت على تقليد المهدي السواد وكور دجلة . فاستصوب جميعهم رايه خلا الطوسي ، فانه استخلاه ، ثم قال له : ارايت ان سلك المهدي غير سيرتك ، واستعمل التسهيل ، اترضى بذلك ؟ قال : لا والله ، قال : فانت تريد ان تحببه الى الرعية ، وتقليدك اياه يبغضه اليهم ، لا سيما ما قرب منك . ولكن يتولى هذه الولاية عيسى بن موسى ، وتجعل المهدى الناظر في ظلامات الناس ، وتأمره يأخذه بانصافهم . فضحك منه حتى فحص برجليه .

ومات قبيصة بن ذؤيب ، فولى مكانه عمرو بن الحارث الفهمي ، مولى بني عامر بن لؤى ، فمات عمرو ، فقلد جناحا ، مولاه ، ديوان الخاتم ، واقتصر على باقي كتابه .

ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان : احدهما بالعربية ، لاحصاء الناس واعطياتهم ، وهذا الذي كان عمر قد رسمه ، والاخر لوجوه الاموال ، بالفارسية . وكان بالشام مثل ذلك ، احدهما بالرومية ، واخر بالعربية . فجرى الامر على ذلك الى ايام عبد الملك بن مروان .

فلما قلد الحجاج العراق ، كان يكتب له صالح بن عبد الرحمن ، ويكنى : ابا الوليد . وكان يتقلد ديوان الفارسية اذ ذاك زاذان فروخ ،

فخلفه عليه صالح بن عبد الرحمن ، فخف على قلب الحجاج ، وخص به ، فقال لزاذان فروخ : اني قد خففت على قلب الحجاج ، ولست آمن ان أزيلك عن محلك لتقديمه أياي ؛ وانت رئيسي ، فقال زاذان فروخ : لا تفعل ؛ فانه أحوج الي مني اليه ، قال : فكيف ذلك ؟ قال : لا يجد من يكفيه الحساب ، فقال صالح : اني لو شئت حولته بالعربية ، قال : فحـــول منه سطرا ، فحول منه شيئا كثيرا . فقال زاذان فروخ لاصحابه : التمسوا مسكنا غير هذا . وامر الحجاج صالحا بنقل الدواوين الى العربية في سنة ثمان وسبعين.

وكان عامة كتاب العراق تلامذة صالح ، فمنهم المغيرة بن ابـــي قرة ، كتب ليزيد بن المهلب ؛ ومنهم قحذم بن أبي سليم ، وشيبة ابن أيمن ؛ كاتبا يوسف بن عمر ، ومنهم المغيرة وسعيد ، ابنا عطية ، وكان سعيد يكتـــب لعمر بن هميرة ، ومنهم : مروان بن أياس ، كتب لخالد القسري ، وغيرهم .

وقال الحجاج يوما لصالح اني فكرت فيك ، فوجدت مالك ودمك حلالا لي ، وأنني غير آثم ان تناولتهما ، فقال له صالح : ان اغلظ ما في الامر — أعز الله الامير — أن هذا القول بعد الفكر ، فضحك منه ولم يقل له شيئا .

وكان الحجاج لما قدم العراق ثقل امـــره على اهل البلاد ؛ فاجتمـــع الدهاقين الى جميل بن بصبهري ، وكـــان حازما مقدما ؛ فشكـــوا اليه ما يتخوفون من شر الحجاج ، فقال لهم : خبروني : أين مولده ؟ فقـــالوا له : الحجاز ، قال : ضعيف معجب ، فأين منشؤه ؟ قالوا : الشام ، قال : ذاك شر ، ثم قال : ما أحسن حالكم اذا لم تبتلوا معه بكاتب منكم ! — يعني من أهل بابل — . فابتلوا بزاذان فروخ ، وكان أعور شريرا . وضرب لهـــم جميل المثل المشهور : ان فأسا ليس فيها عود القيت بين شجر ، فقـــال بعض الشجر لبعض : ما القي هذا ها هنا لخير ، فقالت لهم شجرة عادية : ان لم يدخل في است هذا عود منكن فلا تخفنه .

تحويل الدواوين من الرومية الى العربية : وكان يتقلد ديوان الشـــام بالرومية ، لعبد الملك ولمن تقدمه ؛ سرجون ابن منصور النصراني ، فأمره عبد الملك يوما بشيء ، فتثاقل عنه ، وتوانى فيه . فعاد لطلبه ، وحثه فيه ، فراى منه تفريطا وتقصيرا ، فقال عبد الملك لابي ثابت ، سليمان بن سعد الخشني — وكان يتقلد له ديوان الرسائل — اما ترى ادلال سرجون علينا ؟ واحسبه قد راى أن ضرورتنا اليه والى صناعته ، افما عندك حيلة ؟ قال : لو شئت لحولت الحساب الى العربية ، قال : فافعل ، فحوله . فرد اليه عبد الملك جميع دواوين الشام .

وحكي أنه كان لعبد الملك كاتب نصراني من اوساط كتابه ، يقال له : شمعل ، وانه أنكر عليه شيئا فحذفه بمخصرة كانت في يده ، اصابت رجله

فاثرت فيها ، فرای شمعل جماعة من اسباب عبد الملك ممن يعاديه ، وقد ظهر فيهم السرور ، فانشأ يقول :

امن ضربة بالرجل مني تهافتت عداتي ولا عيب علي ولا نكـر
وان امـير المؤمنيـن وفعلـه لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

بعض تصرفات الحجاج : ولما قلد الحجـاج عبيد الله بن المخـارب الفلوجتين ، قال لما وردها : أهاهنا دهقان يعاش برايه ؟ فقيل له : جميـل بن بصبهري ، فأحضره وشاوره ، فقال جميل : اقدمت لرضـا ربك ، ام لرضا من قلدك ، ام لرضا نفسك ؟ فقال : ما استشرتك الا لرضا الجميع ، فقال : احفظ عني خلالا : لا يختلف حلمك على رعيتك ، وليكن حلمك علـى الشريف والوضيع سواء ، ولا تتخذن حاجبا ، ليرد عليك الوارد من أهـل عملك على ثقة من الوصول اليك ، واطـل الجلوس لأهل عملك يتهيبـك عمالك ، ولا تقبل الهدية ، فان صاحبها لا يرضى بثلاثين ضعفا لها ، فـاذا فعلت ذلك فاسلخ جلودهم من قرونهم الى أقدامهم .

قال : فعملت بوصيته ، فجبيتها ثمانية عشر الف الف درهم .

ولما هزم يزيد بن المهلب ، وهو يتقلد خراسان من قبـل الحجاج ، عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحارث ، عند محاربته اياه ، امـر يحيى بن يعمر العدواني ، وكان يكتب له على الرسائل ، أن يكتب الـى الحجاج بالفتح ، فكتب يحيى بن يعمر :

انا لقينا العدو ، فمنحنا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة ، واسرنا طائفة ، ولحقت طائفة برعوس الجبال ، وعرائر الاودية ، وأهضام الغيطان ، وأثناء الانهار ، فبتنا بعرعرة الجبل ، وبات العدو بحضيضه .

فقال الحجاج : منيكتب ليزيد بن المهلب ؟ فقيل له : يحيى ابن يعمر ، فكتب الى يزيد يأمره بحمله اليـه على البريد ، فقدم اليه ، فرای افصـح انسان . فقال له : اين ولـدت ؟ قال : بالاهواز ، فقال : من ايـن هذه الفصاحة ؟ فقال : حفظت كلام ابي ، وكان فصيحا ، فقال له الحجـاج : أخبرني ، هل يلحن عنبسة بن سعيد ؟ قال : نعم ، كثيرا ، قال : ففلان ؟ قال : نعم ، قال : فأخبرني عني ، هل الحن ؟ قال : لا ، انت أفصح الناس ، قال : لتخبرني ، قال : انك تلحن لحنا خفيا ، تزيد حرفا أو تنقص حرفا ، وتجعل ان في موضع أن ، قال : قد أجلتـك ثلاثا ، فان وجدتك بعد ثلاثـة بالعراق قتلتك .فرجع الى خراسان .

وقال الحجاج يوما لبعض كتابه : ما يقول النـاس فيّ ؟ فاستعفاه ، فلم يعفه . قال : يقولون : انت ظلوم ، غشوم ، قتال ، عسوف ، كذاب . قال : كل ما قالوا فقد صدقوا فيه ، الا الكذب ، فوالله ما كذبت منذ علمت أن

الكذب يشين أهله !

وكان يزيد بن ابي مسلم ــ واسم ابي مسلم : دينار ــ من موالي ثقيف . وليس مولى عتاقة ، وكان اخا الحجاج من الرضاعة ، يتقلد للحجاج ديوان الرسائل ، وكنيته ابو العلاء ، وكان الحجاج يجري له في كل شهر ثلاث مئة درهم ، يعطي امراته منها خمسين درهما ، وينفق في ثمن اللحم خمسة واربعين درهما ، وينفق باقيها في ثمن الدقيق وباقي نفقته ، فان فضل منها شيء ابتاع به ماء وسقاه المساكين ، وربما ابتاع قطفا ففرقها فيهم ، وهو مع ذلك يقتل الخلق للحجاج .

وحكي ان الحجاج عاده من علة ، فوجد بين يديه كانونا من طين ، ومنارة من خشب . فقال له : يا ابا العلاء ، ما أرى رزقك يكفيك . قال : ان كانت ثلاث مئة لا تكفيني ، فثلاثون الفا لا تكفيني .

ولما حضرت الحجاج الوفاة في شهر رمضان سنة خمس وتسعين استخلف يزيد بن ابي مسلم على خراج العراق ، فأقام بعده تسعة اشهر .

وحكي انه سمع من قبر الحجاج صوت ، فصير الى يزيد ابن ابي مسلم ، فعرف ذلك ، فركب في أهل الشام حتى انتهى الى قبره فتسمع ؛ فلما سمع الصوت قال : يرحمك الله يا ابا محمد ، لا تدع القراءة حيا ولا ميتا ! ثم ركب .

وهذا يشبه ما روي عن عائشة بنت سعد بن ابي وقاص :

ان معاوية مرّ بسعد في طريق مكة بعد صلاة الصبح ، ومعه أهل الشام ، فوقف على سعد في طريق مكة ، فسلم عليه ، فلم يرد عليه السلام ، فقال معاوية لاهل الشام : اتدرون من هذا ؟ هذا سعد صاحب رسول الله صلى الله عليه واله وسلم لا يتكلم حتى تطلع الشمس . فبلغ سعدا ذلك ، فقال : ما كان ذلك مني والله على ما قال ، ولكني كرهت ان اكلمه .

وبلغ عبد الملك بن مروان ان بعض كتابه قبل هدية ، فقال له : اقبلت هدية منذ وليتك ؟ فقال : امورك مستقيمة ، والاموال دارة ، والعمال محمودون ، وخراجك موفر ، فقال له . اخبرني عما سألتك عنه ؟ فقال : نعم ، قد قبلت ، فقال : والله ان كنت قبلت هدية لا تنوي مكافاة المهدي لها انك لئيم دنيء ، وان كنت قبلتها تستكفي رجلا لم تكن تستكفيه لولاها ، انك لخائن ، وان كنت نويت تعويض المهدي عن هديته ، والا تخون له امانة ، ولا تثلم له دينا ، فلقد قبلت ما بسط عليك لسان معامليك ، واطمع فيك سائر مجاوريك ، وسلبك هيبة سلطانك ، وما في من اتى امرا لم يخل فيه من لوم أو دناءة او خيانة أو جهل ، مصطنع . وصرفه عن عمله .

مصعب بن الزبير : وكان يكتب لمصعب بن الزبير على الخراج سار زاذ ، صاحب باذين . ويكتب له على الرسائل عبد الله بن ابي فروة ، ويكنى عبد الله : ابا عبد الله ، وهو جد الربيع مولى المنصور .

وقائع واحداث : وكان عبد الله ، وعبد الملك ، ومصعب ، في حداثتهم اخلاء ، لا يكادون يفترقون ، وكان اذا اكتسى عبد الملك كسوة اكتسى الاخوان مثلها ، فاكتسي عبد الملك حلة واكتسى ابن ابي فروة مثلها ، وبقي مصعب لا يجد ما يكتسي به ، وكان اقلهم شيئا . فذكر ابن ابي فروة ذلك لأبيه ، فكساه مثل حلتيهما على يدي ابنه ، فلما ولي مصعب العراق استكتب ابن ابي فروة . فكان عنده يوما اذ اتى مصعب بعقد جوهر ، قد أصيب في بعض بلاد العجم لبعض ملوكهم ، لا يدري ما قيمته ، فجعل مصعب يقلبه ويعجب منه ، ثم قال لابن ابي فروة يا عبد الله ، ايسرك ان اهبه لك ؟ قال : نعم والله ايها الامير ، ان ذلك ليسرني . فدفعه اليه ، فرآه قد سر به سرورا شديدا ، فقال مصعب : والله لأنا بالحلة يوم كسوتنيها اشد سرورا منك بهذا الان . وكان العقد سبب غنى ابن ابي فروة وغنى عقبه .

وذكر مصعب الزبيري انه وجد عامل خراسان كنزا ، وفيه نخلة كانت لكسرى ، مصنوعة من الذهب ، عثاكيلها من لؤلؤ وجوهر ، وياقوت احمر وأخضر ، فحملها الى مصعب بن الزبير . فجمع المقومين لها لما وردت عليه ؛ فقوموها بألفي الف دينار . فقال : الى من ادفعها ؟ فقيل : الى نسائك وأهلك ، فقال : لا ، بل الى رجل قدم عندنا يدا ، واولانا جميلا ، ادعوا عبد الله بن أبي فروة ، فدفعها اليه فلما قتل مصعب كاتب ابن ابي فروة عبد الملك ، وبذل له مالا ، فسلم منه بماله ، وكان ايسر اهل المدينة .

واسم أبي فروة كيسان ، مولى الحارث الحفار ، مولى عثمان بن عفان .

وكان محمد بن عبد الله بن ابي فروة نبيلا ظريفا ، فذكر مصعب الزبيري : انه كتب الى جارية له كان لها من قبله موضع ، وكان مقيما في بستان :

ان لي عند كل نفحة بستا	ن من الورد أو من الياسمينا
نظرة والتفاتة لك ارجو	ان تكوني حللت فيما يلينا

وقد روي لعبد الله ابيات شعر وهي :

ولما اتينا منزلا طله الندى	أنيقا وبستانا من النور حاليا
اجد لنا حسن المكان وطيبه	منى فتمنينا فكنت الامانيا

واجتاز مصعب الزبيري بالمدينة فلم ينزلها ، لعزيمة كانت من عبد الله

عليه ، لشيء أنكره ، الا يعرج عليها ، وان ينزل البيداء ، فالتقى عبد الله ابن جعفر وعاصم بن عمر في صبيحة تلك الليلة ، فقال عبد الله ابن جعفر لعاصم : أما ترى ما صنع بنا هذا الفتى حيث فر منا ولم يعرج علينا ؟ وخرجا اليه . فأقبل مصعب عليهما ، فقال : كاني بكما وقد التقيتما فقلتما : استخف بنا هذا الفتى وطوانا ، ولم تعلما عذري ! ان أمير المؤمنين عزم علي أن أنزل البيداء ، ولست اعصيه ، ثم قال لعاصم : يا أبا عمر ، احتكم . فعدد أشياء ، من رقيق وغنم واثاث ، فقال : ليس هذا عندنا حاضرا ، ولكن لك تيمته . فقوم ستة عشر الف دينار ، فامر له بها . ثم اقبل على عبد الله بن جعفر فقال : يا ابا جعفر ، لك ضعفها ، فقال : ومالك لا تحكمني ؟ قال : لعلمي بتخففك ، قال : والله لو فعلت لخرجت مما ترى صفرا ! فلما انصرفا قال عبد الله لعاصم : هل رأيت مثل هذا الفتى : أعقل ، وأكرم ، وأحلم ؟.

وذكر محمد بن سلام عن ابي اليقظان :

ان كاتبا كان لمصعب بن الزبير كتب : من المصعب ، فقال مصعب : ما هاتان الزائدتان ؟ يعني : الالف واللام .

ايام الوليد بن عبد الملك

وكان يكتب للوليد القعقاع بن خليد العبسي . وكان الوليد اول من كتب من الخلفاء في الطوامير ، وأمر بأن تعظم كتبه ويجلل الخط الذي يكاتب به . وكان يقول : تكون كتبي والكتب الي خلاف كتب الناس بعضهم الى بعض .

وكان يكتب له على ديوان الخراج سليمان بن سعد الخشني ، وعلى ديوان الخاتم ، شعيب الصابى ، مولاه ، ويكتب له على المستغلات بدمشق : نفيع بن ذؤيب ، مولاه ، واسمه مكتوب في لوح في سوق السراجين بدمشق .

ايام سليمان بن عبد الملك

وكان يكتب لسليمان سليم بن نعيم الحميري . وورد عليه كتاب مسلمة يذكر دخوله بلاد الروم . وانه بلغ ما لم يبلغه احد ، فقال لكاتبه : وقع عليه: ذاك بالله لا بمسلمة .

وكان يكتب لسليمان على ديوان الرسائل الليث بن ابي رقية ، وعلى ديوان الخاتم نعيم بن سلامة .

بناؤه الرملة ومسجدها : كان رجل من اهل فلسطين ، يعرف بابن بطريق ، يكتب له ، فأشار عليه ببناء الرملة . وكان السبب في ذلك ان ابن بطريق سأل اهل لد حائرا (١)، كان في الكنيسة ؛ أن يعطوه اياه يبني فيه منزلا ؛ فأبوا عليه ، فقال لهم . والله لاخربنها ، يعني الكنيسة . ثم قال سليمان : ان امير المؤمنين عبد الملك بنى في مسجد بيت المقدس ، على هذه الصخرة قبة ، فعرف ذلك له ، وان الوليد بنى مسجد دمشق ، فعرف له ذلك ، وان بنيت مسجدا ومدينة نقلت الناس الى المدينة ، فبنى مدينة الرملة ومسجدها ، فكان ذلك سبب خراب لد . ولما عزم سليمان بن عبد الملك على بناء مسجد الرملة اراد أن ينقل عمد كنيسة جورجيس اليه ، فاستمهله البطرك ، وكتب الى بلاد الروم ، فورد الجواب عليه : أن دله على مغارة بالقرب من الداروم ، فان فيها باقي العمد التي بنيت منها الكنيسة ، فدله . فاستخرج سليمان العمد ، فبنى بها المسجد ، وبقيت كنيسة جورجس .

وكان يكتب على النفقات وبيوت الاموال والخزائن والرقيق عبد الله ابن عمرو بن الحارث .

ابن المهلب واستعماله على العراق : لما تولى سليمان الخلافة صرف يزيد بن ابي مسلم ، كاتب الحجاج ، عن العراق ، حربه وخراجه ، في سنة ست وتسعين ، وقلد الحرب يزيد بن المهلب ، وكان قلده الحرب والصلاة والخراج ، فكره يزيد تقلد الخراج ، لاخراب الحجاج العراق ، وخاف ان عسف أهله بالمطالبة أن يذموه ، وان قصر في العسف أن ينقص

---

(١) الحائر : الموضع المطمئن الهادىء .

ما يستخرجه عما استخرجه الحجاج . فاستعفى يزيد بن المهلب سليمان من الخراج.، واشار عليه بصالح ابن عبد الرحمن الكاتب ، ففعل سليمان ذلك .

ثم قلد سليمان يزيد خراسان مضافة الى العراق في سنة ثمان وتسعين فعمد لجرجان ، وكانت منيعة ، وكان كل من يتقلد خراسان يتحاماها ، والح عليها ، ففتحها .

وكان يكتب ليزيد بن المهلب ، المغيرة بن ابي قرة ، مولى سدوس ، فكتب يزيد الى سليمان يخبره بفتح جرجان ، ويعظم عنده الامر وموقع النعمة في ذلك ، ويعرفه انه قد حصل في يده من المال ، مما افاء الله على المسلمين ، بعد أن صار الى كل ذي حق حقه ، من الفيء (و) من الغنيمة ، ستة آلاف درهم ، فقال له المغيرة كاتبه : لا تكتب بتسمية مال ، ودعه مجملا ، ولعل امير المؤمنين اذا لم يعرف مبلغه أن يسمح به لك ، واذا عرفه استكبره وامر بحمله ، وان امسك عنك فيه بقي ذكر المال مخلدا في الديوان، وان ولى وال بعدك أخذك به ، وان كان من يتحامل عليك لم يرض منك باضعافه . فابى يزيد قبول ذلك ، وامضى الكتاب به ، فورد على سليمان في اول سنة تسع وتسعين ، وتوفي في صفر منها قبل أن يأمر في المال بشيء .

عزله وهربه ومقتله : وقلد الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فصرف يزيد بن المهلب ، فلما صار اليه ، ساله عن الاموال التي كتب بها الى سليمان بن عبد الملك ، فقال له : كنت من سليمان بالمكان الذي رايت ، وانما كتبت اليه لاسمع الناس به ، وقد علمت انه لم يكن ليأخذني بشيء مما سمعت به ، ولا يامر اكرهه ، فقال عمر : ما اجد في أمرك الا حبسك ، فاتق الله ، وأد الامانة فيما قبلك من المال ، فانها حقوق المسلمين ، ولا يسعني تركها ، وامر بحبسه . فلم يزل في الحبس الى أن حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة ، فهرب يزيد من محبسه في سنة احدى ومئة ، لانه كان يخاف يزيد ابن عبد الملك ، وكان سليمان ولاه العهد بعد عمر بن عبد العزيز ، فأداه ذلك الى المخالفة على يزيد بن عبد الملك ، وخلعه اياه ، حتى سرح اليه الجيوش مع اخيه مسلمة بن عبد الملك ، فقتل يزيد وأكثر آل المهلب .

حظوته عند سليمان : وكان ليزيد بن المهلب منزلة خاصة بسليمان ، وكان يجلسه على سريره ، فاذا جاء سليمان تنحى يزيد بن المهلب عنه ، وان جاء يزيد بن المهلب وسليمان على السرير جلس معه .

وحكي أن سليمان بن عبد الملك قال ليزيد بن ابي مسلم : أترى صاحبك(١)

---

(١) يقصد الحجاج ، والي العراق في العصر الاموي .

بلغ قعرها ام هو يهوى به ؟ فقال : لا تقل ذاك يا أمير المنين ، فانه والى وليك ، واخاف عدوك . وجعل نفسه لك جنة ؛ ودينه لك وقاية ، وانه يوم القيامة لعن يمين ابيك ، ويسار اخيك ، فاجعله حيث شئت .

اسامة بن زيد على خراج مصر : وكان سليمان ولي رجلا من موالي معاوية ، يقال له : اسامة ابن زيد ، من اهل دمشق ، وكان كاتبا نبيلا ، الخراج بمصر ، فبلغه ان عمر بن عبد العزيز يقرصه ، ويغمص عليه في سيرته . فقدم اسامة ابن زيد على سليمان بمال اجتمع عنده ، ووافقه على ما احتاج اليه ، وعمل على الرجوع الى عمله ، وتوخى وقتا يكون فيه عمر عند سليمان . فلما بلغه حضوره مجلسه استأذن عليه ، فلما وصل اليه ، قال له : يا أمير المؤمنين ، اني ما جئتك حتى نهكت الرعية وجهدت ، فان رايت أن ترفق بها ، وترفه عنها ، وتخفف من خراجها ما تقوى به على عمارة بلادها ، وصلاح معايشها ، فافعل ، فانه يستدرك ذلك في العام المقبل، فقال له سليمان : هبلتك امك (١) ، أحلب الدر (٢) ، فاذا انقطع فاحلب الدم والنجا . فخرج اسامة بن زيد ، فوقف لعمر بن عبد العزيز حتى خرج ، فركب ثم سار معه ، وقال له : انه بلغني يا أبا حفص ، انك تلومني وتذمني ، وقد سمعت اليوم ما كان من مقالتي لابن عمك ؛ وما رد علي ، وعرفت عذري ، فقال عمر : سمعت والله كلام رجل لا يغني عنك شيئا !

عزل عمر لاسامة : فلما توفي سليمان كتب عمر ، وهو على قبره ، بعزل اسامة بن زيد ، وبعزل يزيد بن ابي مسلم ، فاغتابه الناس وقالوا : هذا الحرص ، الا صبر حتى يدفن الرجل ! فقال لما بلغه ذلك : اني والله خفت الله عز وجل ، واستحييته ان اقرهما يحكمان في امور الناس طرفه عين وقد وليت امورهم .

---

(١) هبلته امه : ثكلته أمه .

(٢) الـدر : اللبـن .

كتـــابه : وكان يكتب لعمر الليث بن أبي رقية ، مولى ام الحكم بنـــت ابي سفيان . وكتب له ايضا رجاء بن حيوة ، وخص به ، وكان من كتـــابه اسماعيل بن ابي حكيم ، مولى الزبير . وكان يكتب له على ديوان الخـــراج سليمان بن سعد الخشني . وكان يتقلد ديوان الرسـائل أيام عبد الملك بن مـــروان .

حرصه على الاقتصاد في القراطيس : وكان عمر بن عبد العزيز يأمر كتابه بجمع الخط كراهية استعمال الطوامير ، فكانت كتبه انما هي شبـــر او نحوه .

فروي عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم :

ان اباه كتب الى عمر بن عبد العزيز يسأله قراطيس ، فكتب اليـــه عمر : ان دقق القلم ، واوجز الكتاب ، فانه أسرع للفهم .

وكتب الى عامل آخر ، كتب اليه يطلب منه قراطيس ، ويشكو قلتهـــا عنده : ن دقق قلمك ، واقلل كلامك ، تكتف بما عندك من القراطيس .

نصيحته لابن مهران وتوليته ابنه الجزيرة : وقال ميمـــون بن مهران : قال لي عمر بن عبد العزيز ــ وقد كان قلده الخراج بالجزيرة ، وبيت المال بحران ــ : يا ميمون ، دع أربع خصـــال : لا تدخلن على سلطـــان ابدا ما امكنك ، وان قلت آمره بالمعروف ، وانهاه عن المنكر ولاتخلون بامرأة ابدا ، وان قلت أعلمها القرآن ، ولا تكلمن بكلام تريد أن تعتـــذر منه ، ولا تطلبن المعروف ابدا الى من لا يضعه في اقاربه .

وقلد عمر بن عبد العزيز عمر بن ميمون بن مهران الجزيرة .

---

(١) جمع طومـــار : الصحيـــف .

وكان عمر بن عبد العزيز كتب الى ابي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أحص المخنثين بالمدينة . فصحف الكاتب ، فقال : اخص . فجمع كل من قدر عليه منهم ، فخصاهم جميعا .

كتب له الصباح : وكان من كتابه الصباح بن المثنى ، فروى أبو صالح عبد الله ابن صالح ، كاتب الليث بن سعد ، رسالة كتبها الصباح هذا عن عمر ابن عبد العزيز ، الى عياض بن عبد الله ، ثم قال في آخرها : « وكتب الصباح بن المثنى يوم الخميس لاربع خلون من ذي الحجة سنة تسع وتسعين » .

وكان الصباح من جلة كتاب عمر وعليتهم .

وقال عمر بن عبد العزيز لعمر بن الوليد بن عبد الملك : امك بنانة أمة للسكون ، كانت تدخل حوانيت حمص لما الله أعلم به ، فاشتراها دينار بن دينار — يعني كاتب عبد الملك ومولاه — من فيء المسلمين ، فاهداها لابيك ، فحملت بك ، فبئس المحمول ! وبئس الجنين ! والله لهممت ان ابيعك واجعل ثمنك في بيت مال المسلمين ، فان لكل مسلم فيك حقا .

وذكر ابن أبي الزناد عن ابيه :

انه كان يكتب لعمر بن عبد العزيز ، وانه كان يكتب الى عبد الحميد ابن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في المظالم فيراجعه ، (وكان عبد الحميد عامله على الكوفة) . قال ، فأملى عليه يوما كتابا اليه ، قال فيه ، انه يخيل الي انى لو كتبت اليك أن تعطي رجلا شاة ، لكتبت الي : اضأن ام ماعز ؟ فان كتبت اليك باحدهما ، كتبت الي : اصغير ام كبير ؟ فان كتبت اليك باحدهما ، كتبت الي ، اذكر أم انثى ؟ فاذا اتاك كتابي هذا في مظلمة ، فأعمل به ولا تراجعني ، والسلام .

وسأل عمر بن عبد العزيز عن يزيد بن أبي مسلم ، كاتب الحجاج ، فقيل له : انه غزا الصائفة (١) ، فأمر بالكتاب اليه برده ، وقال : لا أستنصر بجيش هو فيهم ، فرده من الدرب .

---

(١) الصائفة : الغزوة أثناء فصل الصيف .

ايام يزيد بن عبد الملك

وكان يكتب ليزيد قبل الخلافة رجل ، يقال له : يزيد بن عبد الله . ثم استكتب اسامة بن زيد السليحي . واعاد يزيد بن عبد الملك سليمان ابن سعد الى الدواوين ، وكان عفيفا عالما بصناعته ، وكان عمر ابن عبد العزيز صرفه عن ديوان الخراج .

وقد كان اسامة بن زيد يتولى خراج مصر للوليد بن عبد الملك ، وهو الذي ينسب اليه قصر اسامة . ولما افضت الخلافة الى يزيد ابن عبد الملك طلب اسامة بن زيد ، فقال سليمان بن سعد الخشني ليزيد ابن عبد الله : لم بعث امير المؤمنين الى اسامة بن زيد ؟ فقال : لا أدري ، قال : أفتدري ما مثلك ومثل اسامة ؟ قال : لا ، قال : مثلك ومثله مثل حية كانست في ماء وطين وبرد ، فان رفعت رأسها وقع عليها حافر دابة ، وان بقيت ماتت بردا ، فمر بها رجل ، فقالت : ادخلني في كمك حتى أدفأ ثم اخرج ، فادخلها. فلما دفئت قال لها : اخرجي ، فقالت : اني ما دخلت في هذا المدخل قط فخرجت حتى انقر نقرة ، اما أن تسلم منها ، واما أن تموت ، ووالله لئن دخل اسامة لينقرنك نقرة اما أن تسلم معها واما أن تموت .

قال عمر بن شبة حدثني بعض أصحابنا عن الوضاح بن خيثمة قال :

امرني عمر بن عبد العزيز باخراج قوم من السجن ، فأخرجتهم وتركت يزيد بن أبي مسلم ، كاتب الحجاج ، فحقد ذلك علي ونذر دمي . فاني لبافريقية ، اذ قيل لي : قدم يزيد بن ابي مسلم صارفا لمحمد بن يزيد ، مولى الانصار ، من قبل يزيد بن عبد الملك ، بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، فهربت منه ، وعلم بمكاني ، فأمر بطلبي ،فظفر بي ، وصير بي اليه . فلما رآني قال لي : لطالما سألت الله ان يمكنني منك ! فقال وضاح : وانا ، لطالما سألت الله ان يعيذني منك ! قال : فوالله ما أعاذك مني ، والله لاقتلنك ، ثم والله لاقتلنك ، والله لو سابقني ملك الموت اليك لسبقته . ثم دعا بالسيف والنطع ، فأتي بهما ، وأمر بالوضاح ، فأقيم في النطع وكتف ، وقام وراءه رجل بسيف ، واقيمت الصلاة ، فخرج اليها ، فلما سجد اخذته

السيوف ؛ ودخل الى الوضاح من قطع كتافه وخلى سبيله ، وقال : انطلق راشـــدا .

وكان سبب قتل يزيد بن ابي مسلم ، انه اجمع ان يصنع بأهل افريقية ما صنع الحجاج بأهل العراق ، من رده من منّ الله عليه بالاسلام الى بلده ورستاقه، وأخذهم بالخراج(١)، فقتلوه واعادوا محمد بن يزيد ، مولى الانصار وكان محبوســا في يده ، وكتبوا الى يزيد بن عبـــد الملك يقولون : انهـــم لم يخلعوا يدا من الطاعة ، ولكن يزيد بن ابي مسلم سامهم ما لا يرضى الله به ولا المسلمون ؛ فقتلناه ، واعدنا عاملك محمد بن يزيد .

فكتب اليهم يزيد بن عبد الملك : اني لم أرض بما صنع يزيد بن أبـــي مسلم . واقر محمد بن يزيد على افريقية ، وكان ذلك في سنة اثنتين ومئة .

وقلد يزيد بن عبد الملك عمر بن هبيرة العراق ، فلما صار ابن هبيـــرة الى العراق عزم على الجباية ، فخاف مكان صالح بن عبد الرحمن عند يزيد بن عبد الملك ، فقال لكاتبه عبدة العنبري : هل الى صالح من سبيل ؟ قال : لا والله ، ما أعرف اليه سبيلا الا ان تظلمه ، فقال : وكيف لي بظلمه ؟ قال : كان رفع الى يزيد بن المهلب ست مئة الف درهم ، ولم يأخذ منه بها براءة . فكتب ابن هبيرة الى يزيد بن عبد الملك : ان بي الى صالح حاجة ، فان رأى امير المؤمنين أن يوجهه اليّ فعل .فدعا يزيد بصالح فاخبره ، فقال : والله ما به الي حاجة ، ولقد تركت العراق ، ولو أتاه ابكم أكمه عـــرف ما فيه ، فانفذه اليه . فلما وصل الى ابن هبيرة أمر به فعذب ، فكان كلما عذب بضرب من العذاب ، قال : هذا القصاص ! قد كنت اعذب الناس بمثل هذا ، حتى عذب بضرب منه ، كان يدعى الفزارية ، كان اياس بن معاوية دل ابن هبيرة عليه ، فقال صالح : هذا ما لم اعذب به . فلما الح ابن هبيرة على صـــالح بالعذاب ، جاء جبلة بن عبد الرحمـــن ، وجبهان بن محـــرز ، والنعمـــان السكسكي ، فقالوا : نحن نضمن صالحا وما عليه ، فقال لهم الكـــاتب : احضروا المال ، فقالوا : قبل الليل ، فدخل الكاتب على ابن هبيرة فأعلمه ، فلم يخرج اليهم حتى امسوا وانصرفوا ، واصبح صالح ميتا .

---

(١) عندما احتاج الحجاج الى المال وضع الجزية على كل الذين يعتنقون الاسلام من أهل الكتاب رغم أن في ذلك مخالفة لعقد الذمة وبالتالي لاحكام الشـرع لان المسلم لا يدفع الجزية .

ايام هشـــام بن عبد الملك

وكان يكتب لهشام سعيد بن الوليد بن عمرو بن جبلة الابرش الكلبي ـ ويكنى ابا مجاشع ، وكان غالبا عليه .

ولما توفي يزيد بن عبد الملك ، وافضى الامر الى هشام ؛ أتاه الخبـر وهو في ضيعة له ومعه جماعة من اصحابه ؛ فيهم سعيد بن الوليد الكلبي ، فلما قرا الكتاب سجد ، وسجد من كان معه من أصحابه خلا سعيد ، فانـه لم يسجد ، فقا ل له هشام : يا سـعيد ، لم لم تسجد كما سجد اصحابك ؟ فقال : علام اسجد ؟ أعلى أن كنت معي فطرت ، فصرت في السماء ! قـال له : فان طبرناك معنا ؟ قال : الان طاب السجود .

وكان هشام يعتم ، فقام سعيد ليسوي عمامته ، فقال له هشام : مه ؛ فانا لا نتخذ الاخوان خولا .

ولما شخص عمر بن هبيرة الى هشام تكلم بكلام استحسنـه هشام ، ثم أقبل على سعيد فقال : ما مات من خلف مثل هذا ! قال : فقال له سعيد : ليس هناك يا امير المؤمنين ، أما تراه يرشح جبينه بضيق صدره ؟ فقال عمر بن هبيرة : ما لذلك رشحت يا سعيد ، ولكن لجلوسك ولست بأهل . وكان سعيد يحب أن يفسد حال عمر بن هبيرة عند هشام .

وكان ابن هبيرة يسير اذا ركب هشام بالبعد منه ، وكان هشام معجبا بالخيل ، فاتخذ سعيد عدة خيل جياد واضمـرها ، وأمر المجـرين لها ان يعارضوا هشاما اذا ركب ، فان سالهم قالوا : انها لابن هبيرة . فركـب هشام يوما ، فعورض بالخيل ، فنظر الى قطعة من خيل حسنة ، فقال : لمن هذه ؟ فقالوا : لابن هبيرة ، فاستشاط غضبا وقال : واعجباه ! اختان مـا اختان ، ثم قدم ! فوالله ما رضيت عنه بعد ، ثم هو يباريني في الخيل ! على بابن هبيرة . فدعي به من جانب الموكب ، فجاء مسرعا ، فقال : ما هـذه يا عمر ؟ ولمن هي ؟ وراى الغضب في وجهه ، فعلم أنه قد كيد ، فقال : خيل لك يا أمير المؤمنين ، علمت عجبك بها ، وأنا عالم بجيادها ، فاخترتها وطلبتها من مظانها ، فمر بقبضـها ، فأمر بقبضها ، وكان ذلك سبب اقباله عليه . ولم

يتهيأ لسعيد ان يتكلم ، وانما ظن أن هشاما يغضب ولا يسأل ، فتتم الحيلة على عمر ؛ فانعكست الحيلة عليه حيلة له .

وتقلد اسحاق بن قبيصة بن ذؤيب ديوان الصدقة لهشام ، وتقلد ايضا ضياعه بالاردن ، واسمه مكتوب بالفسيفساء ، على قصر من قصور الصباح بعكاء ، مما جرى على يدي اسحاق بن قبيصة .

وكان من كتابه تاذرى بن أسطين النصراني ؛ فقلده ديوان حمص .

وكان جنادة بن ابي خالد يكتب لهشام على الطرز ، واسمه موجود على الثياب الهاشمية .

وتقلد خالد بن عبد الله القسري العراق .

وحكي أن هشاما أقطع ، قبل ان تفضي اليه الخلافة ، أرضا يقال لها : دورين ، فارسل في قبضها ، فاذا هي خراب ، فقال لذويد ؛ كاتب كان بالشام : ويحك ! كيف الحيلة ؛ فقال : ما تجعل لي ؟ فقال : اربع مئة دينار ، فكتب : «دورين وقراها » ثم أمضاها في الدواوين ، فأخذ هشام شيئا كثيرا . فلما ولي هشام دخل عليه ذويد ، فقال له هشام : دورين وقراها ! والله لا تلي لي ولاية أبدا ! واخرجه الى الشام .

ولاية القسري على العراق واسلام حسان : وكان في ديوان العراق مع محمد بن المنتشر ، ابن اخي مسروق ابن الاجدع ، من كتابه ، رجل يقال له : حسان النبطي . فكتب هشام يامر أن لا يستعان بذمي ، فقيل لحسان في ذلك ؛ فأسلم على يدي محمد ابن المنتشر ، ثم كتب لسعيد بن عمرو الجرشي على خراسان ، ثم عاد الى العراق بعد صرف سعيد .

وكان قد تقبل ضياع هشام بنهر الرمان رجل يقال له : فروخ ، ويكنى : ابا المثنى ، فثقل على خالد امره ، فقال لحسان : أخرج الى أمير المؤمنين ، وزد على فروخ في الضياع الف الف درهم ، على أن تستوفي حدودها . فوجه هشام مع حسان رجلين من صلحاء اهل الشام ، حتى حاز الضياع واستوفى حدودها . فصار حسان اثقل على خالد من فروخ ، فجعل يؤذيه ويضر به ، فقال له : لا تفسدني ، فاني صنيعتك ، فأبى الا الاضرار به . فبثق حسان البثوق على الضياع ، وخرج الى هشام فقال : ان خالدا بثق البثوق على ضياعك ، فوجه هشام ناظرا اليها ، وأقام حسان ينتظر عودته ، فقال في بعض الايام لخادم من خدم هشام : هل لك من الفي دينار على ان تتكلم بكلمة حيث يسمعها أمير المؤمنين ؟ قال : عجل علي الالفين واقول ما شئت ، فعجلها له ، وقال له : بك صبيا من صبيانه ، فاذا بكى فقل له : اسكت ، فكأنك في صلفك وعزتك ابن خالد القسري لما بلغت غلته ثلاثة عشر الف درهم . ففعل الخادم ، وسمعها هشام فاضب عليها . فدخل

عليه حسان بعد ذلك ، فقال له : ادن مني ، فدنا منه ، فقال : كم غلة خالد ؟ فقال : ثلاثة عشر الف درهم ؟ فقال له : فكيف لم تخبرني بذلك ؟ فقال له : وهل سألتني ؟ فوقرت في نفس هشام حتى عزله .

عزل خالد وتولية يوسف بن عمر : ولما اراد هشام صرف خالد بن عبد الله ، وكان بحضرته رسول يوسف بن عمر ، قد ورد عليه من اليمن ، وهو يتقلدها له ، فدعا به وقال : ان صاحبك لمتمد طوره ، يسأل فوق قدره ؟ وامر بتخريق ثيابه وضربه اسواطا ، وقال له : الحق بصاحبك ، فعل الله به وفعل ! ودعا بسالم الكاتب على ديوان الرسائل ، فقال له : اكتب الى يوسف بن عمر ، بشيء امره به ، واعرض الكتاب علي . فمضى سالم ليكتب ما أمر به ، وخلا هشام ، فكتب كتابا لطيفا الى يوسف ، وفيه : سر الى العراق ، فقد وليتك ، وإياك أن يعلم بك احد ، واشفني من ابن النصرانية وعماله . وامسكه في يده ، وحضر سالم بالكتاب الذي كتبه ، فعرضه عليه ، واغتفله فجعل الكتاب الصغير في طيه وختمه ، ودفعه الى الربيع ،، وقال له : ادفعه الى رسول يوسف . فلما وصل الرسول الى يوسف ، قال : ما وراءك ؟ قال : الشر ، أمير المؤمنين ساخط عليك ، وقد امر بتخريق ثيابي وضربي ، ولم يكتب جواب كتابك ، وهذا كتاب صاحب الديوان . ففض الكتاب وقراه ، فلما انتهى الى آخره ، وقف على الكتاب الصغير بخط هشام ، فاستخلف ابنه الصلت بن يوسف ، وسار الى العراق .

وكان يخلف سالما الكاتب على ديوان الرسائل ، بشير بن أبي دلجة ، وكان فطنا ، فلما وقف على ما كان من هشام . قال : هذه حيلة ، قد ولى يوسف العراق ، فكتب الى عياض ، وكان وادا له : قد بعثوا اليك بالثوب اليماني ، فاذا اتاك فالبسه ، واحمد الله عليه ، واعلم طارقا بذلك . فعرف عياض طارقا — وهو ابن ابي زياد — ذلك ، وكان عامل خالد على الكوفة وما يليها . ثم ندم بشير على ما كتب به ، فكتب الى عياض : ان القوم قد بدا لهم في البعثة اليك بالثوب اليماني .فعرف أيضا عياض طارقا بذلك ، فقال طارق : الخبر في الكتاب الاول ، ولكن صاحبك ندم ، وخاف ان يظهر امره . وركب من ساعته الى خالد ، فخبره الخبر ، فقال له : فما ترى ؟ قال : أرى أن تركب من ساعتك الى امير المؤمنين ، فانه اذا رآك استحيا منك ، وزال شيء ، ان كان فيّ نفسه عليك ، فلم يقبل ذلك ، فقال له : افتأذن لي ان اصير الى حضرته ، واضمن له جميع مال هذه السنة ؟ قال : وما مبلغ ذلك ؟ قال : مئة الف الف درهم . واتيك بعهدك ، فقال له : ومن أين هذه ؟ والله ما املك عشرة آلاف درهم ، فقال له : أنا أتحمل وسعيد بن

راشد اربعين الف الف درهم ــ وكان سعيد ابن راشد يتقلد له الفسرات ــ ومن الزينبي وابان بن الوليد عشرين الف الف درهم ، وتفرق الباقي على باقي العمال ، فقال له : اني اذا للئيم ، ان اسوغ قوما شيئا ثم ارجع عليهم به ، فقال له : انما نقيك ونقي انفسنا ببعض اموالنا ، ونقي النعمة عليك وعلينا فيك، ونستأنف طلب الدنيا خير من ان نطالب بالاموال وقد حصلت عند تجار اهل الكوفة ، فيتقاعسون عناء ويتربصون بنا ، فنقتل وتذهب انفسنا ، وتجعل الاموال لهم ياكلونها . فابى ، فودعه وبكى ، وقال : هذا آخر العهد بك ! ووافاهم يوسف ، فمات طارق في العذاب ، ولقي خالد وجميع عماله كل شيء ، ومات منهم في العذاب بشر كثير ، وكان منهم داود بن عمرو بن سعيد ، على ديوان الرسائل . وكان مبلغ ما استخرجه منه ومنهم تسعين الف الف درهم .

وكان يكتب ليوسف بن عمر على الخراج قحذم بن ابي سليم بن ذكوان، مولى ابي بكرة ، ويكتب له على الرسائل رشدين مولاه ، وكان يكتب له ايضا زياد بن عبد الرحمن ، مولى ثقيف .

وكان هشام قد حظر على يوسف بن عمر تعذيب خالد او نيله في نفسه بمكروه ، فشق ذلك عليه ، فوجه بكاتبه قحذم بن ابي سليم الى هشام ، فقال له : احتل في اذنه في تعذيب خالد . فصار قحذم الى حضرة هشام ، وجد في اذنه في تعذيب خالد ، فلم يأذن له ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، ان خالدا يقول ما لا يتكلم به ، قال : وما هو ؟ لا يقال ، وخرج . فاتبعه خديجا خادمه ، فقال : ما الذي يقوله خالد ؟ قل : ما له عنده أسم الا الاحول ، فاخبره بذلك . فكتب الى يوسف بالبسط عليه ، فعذبه يوما واحدا ، ثم جاءه كتابه بتخلية سبيله ، فخلاه ، فخرج الى الشام .

سيرة يوسف : وذكر المدائني أن بعض كتاب يوسف بن عمر تأخر عن حضور ديوانه يوما ، فدعا به ، فسأله عن تأخره ، فعرفه ان ضرسه ضرب عليه ، فقلع له ضرسين .

وقال يوسف يوما لقحذم بن ابي سليم : من اين هذا النفط ؟ قال : اصلح الله الامير ! اما الاسود فانه يحمل من اذربيجان ، واما الابيض فانه يحمل من رامهر مز (١) ، فقال له : يا بن اللخناء ، من سألك عن الاسود ، والله لتوسعني صمتا ، او لاوسعنك جلدا !.

وكان قحذم يعيب صالح بن عبد الرحمن لتعظيمه ابنه ، واعتماده في الامور عليه ، فصنع قحذم بابنه عمر مثل ما عاب ، وكان يقول : ما اعلم

---

(١) رامهر مز : مدينة مشهورة بنواحي خوزستان .

احدا يضبط امر العراق بعدي الا ابنـــي عمر . فولى ابنه امره ؛ فصانـــع واصاب مالا وسلاحا ، فقال يوسف لتحذم يوما : يا تحذم ، اكفني ابنـــك ونحه عنك . فقال زياد بن عبد الرحمن ليوسف بن عمر : ان هشاما قـــد أعجب بتحذم ، ولست آمن ان يوليه العراق ، فوقرت في نفس يوســـف ، فكتب الى هشام يستأذنه في الوفادة ، فأذن له ، وأمره أن يولي الحكم بـــن أبي الصلت الحرب ، ويولي الخراج تحذما ، فقال له زياد بن عبد الرحمن : هذا ما اخبرتك به . فترك يوسف الوفادة ، وعزل تحذما ، وحبس ابنه عمر وعذبه ، وقال لتحذم : اخرج عني ، فقال له : خل ابنـــي ، علام تحبسه ! فقال : عليه مئة وخمسون الف درهم ، قال : فهي علي ، فأخرجه وابعـــث به الى عبد الصمد بن ابان بن النعمان بن بشير بواسط ، مع حرس من قبلك؛ فاذا حملت اليه هذا المال خلى سبيله ، ففعل . وقدم تحذم ورسل يوســـف على عبد الصمد ، فقال له عبد الصمـــد : جئني بكفلاء بالمال ، فجـــاءه ، فخلاه ، فانحدر الى البصرة . وجاء كتاب يوسف الى عبـــد الصمد : احبس تحذما ، وان كان قد مضى فاطلبه اشد الطلب . فاتصل ذلك بتحذم ، فهرب الى مكة ، فأقام بها ثلاث سنين . ومات هشام ، فكتب يوسف الى الوليد(١): ان تحذما بمكة ، وسأله الامر بطلبه وحمله اليه . فكتب الوليد الى يوسف بن محمد بن يوسف يأمره بطلبه وحمله الى يوسف بن عمر ، فطلبه يوسف بـــن محمد ، فلما صار في يده تلطف له ، وقال له : اترضى ، وانـــت خال امير المؤمنين ، بامرة الحجاز ويوسف ابن عمر على العراق ؟ فقال : قد وعدني امير المؤمنين أن يولينيها فرغبه فيها ، وحثه على طلبها ، فقال له : ايم الله ، لئن وليت لاولينك امري كله ، ومع هـــذا اني لا اوجهك الى يوســـف حتى اراجع امير المؤمنين فيك . فاقام قبله ، فراجع الوليد فيه ، فلم يعد الجواب حتى قتل الوليد .

اشرس بن عبد الله ونصر بن سيار

وقلد هشام اشرس بن عبد الله السلمـــي خراسان . وكان يكتـــب لاشرس رجل من اهل السواد ، يقال له : عميرة ، ويكنى : ابا أمية .

ولاية ابن سيار على خراسان وكاتبه : ولما مات اسد بن عبد الله ، اخو خالد بن عبد الله ، بخراسان ، وكـــان تولاها بعد اشرس ، اختـــار هشام نصر بن سيار بن أبي رافع ابن ربيعة الليثي لتقليده خراسان . فكتب عهدا ، وانفذه اليه . وكان اسد لما حضرت وفاته أستخلف جعفر بن حنظلة؛ فعرض جعفر على نصر بن سيار ان يوليه بخارى ، فشاور نصر بن سيـــار

(١) يريد الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهو الذي ولي الخلافة بعد هشام .

البختري بن مجاهد ، مولى بني شيبان في قبولها ، فاشار عليه الا يقبلها ، وقال له : شيخ مضر بخراسان ، وكأنك بعهدك قد حال على خراسان كلها . فلما ولي نصر بن سيار استكتب البختري بن مجاهد ، وكان وصول العهد الى نصر في رجب من سنة عشرين ومئة .

ولم يزل البختري على كتابة نصر الى ان هرب نصر من خراسان ، فوجه أبو مسلم بعمرو بن أعين ، حتى قبض على البختري بن مجاهد ، فحبسه ثم قتله .

وكان أكثر كتاب خراسان اذ ذاك مجوس ، وكانت الحسبانات بالفارسية ، فكتب يوسف بن عمر ، وكان يتقلد العراق في سنة أربع وعشرين ومئة ، الى نصر بن سيار كتابا انفذه مع رجل يعرف بسليمان الطيار ، يأمره الا يستعين بأحد من أهل الشرك في اعماله وكتابته .

وكان اول من نقل الكتابة من الفارسية الى العربية بخراسان اسحاق بن طليق الكاتب ، رجل من بني نهشل ، كان مع نصر بن سيار ، فخص به . وولد لاسحاق ابن فسماه نصرا ، وقال :

سميت نصرا بنصر ثم قلت له   اخدم سميك يا نصر بن سيار

ايام الوليد بن يزيد بن عبد الملك

وكان يكتب للوليد بكير بن الشماخ ، ويكتب له على ديوان الرسائل سالم مولى سعيد بن عبد الملك . ثم كتب له ابنه عبد الله ابن سالم . وكان من كتابه عبد الاعلى بن ابي عمرو .

وكان يكتب له على خاص أمره ويلزم حضرته عمرو بن عتبة ، فقال له يوما ، يا أمير المؤمنين ، انك تلطفني بالانس ، وانا اكفت (١) ذلك بالهيبة لك ، واراك تأمر بأشياء اخافها عليك ، افاسكت مطيعا ام اقول مشفقا ؟ فقال : كل مقبول منك ، ولله فينا علم ، ونحن صائرون اليه .

ونعود فنقول : فقتل الوليد بعد ايام يسيرة .

وكان يكتب له على ديوان الجند عبد الملك بن محمد بن الحجاج ابن يوسف ، وكان على الخاتم بيهس بن زميل ، وكان يكتب للوليد ابن يزيد قبل الخلافة عياض بن مسلم .

---

(١) اكفت : أخفي .

ايام يزيد بن الوليد الناقص

وكان يكتب ليزيد بن الوليد عبد الله بن نعيم .

وكان عمرو بن الحارث ، مولى بني جمح ، يتولى له ديـوان الخاتم ، فقال عمرو بن الحارث لبعض ولد عبد الملك : كنت متى شئت ان تجد من يعد وينجز وجدته ، فقد أعياني من يعد ولا ينجز . فلما مضت من هذا القول سنون ، قال عمرو : كنت متى شئت وجدت من يقول ولا يفعل ، فصرنا الى زمان من فيه لا يقول ولا يفعل .

وكان يتقلد له ديوان الرسائل ثابت بن سليمان بن سعد الخشني كاتب يزيد بن عبد الملك وكان يتقلد له الخراج والخاتم الصغير النضر بن عمرو ، من اهل اليمن وكان يتقلد الخاتم الكبير قطن ، مولاه .

وكان برد بن سنان اشـار على يزيد بن الوليد أن يعهد ، فقال: اني لا اعرف من يصلح ، فهل تعرف احدا ؟ فقال له : امير المؤمنين اعلم بأهل بيته ؟ فقال : اما ان أهل العراق يحبون هذا حبا شديدا ، لمكان ابيه — يعني عبد الله بن عمر بن عبد العزيز — وان أهل الشام ليذكرونه ويفضلونه قال برد : فقال لي : فادع دواة وقرطاسا ، فدعوت بهما ، فقال : أكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، واغمي عليه ، ودخل قطن مولاه ، وكان يتقلد مع ديوان الخاتم حجابته ، فسأل عن الـدواة والقرطاس ، فقلت : ان امير المؤمنين اراد أن يعهد . فولى ثم رجع ، وقد أفاق يزيد ، فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، أنا رسول من وراء هذا الباب ، يناشدونك الله في دمائهم ، ويسألونك بالله لما وليت أمرهم ابراهيم بن الوليـد . فقطب ثم نظر اليه وقال بيده على جبينه : أنا اولى امرهم ابراهيم ! قالها مرات ، ثم اغمي عليه . فخرج قطن فقعد في البيت الذي كان فيه ، فكتب كتابا على لسان يزيد بتولية ابراهيم ، ثم خرج بالكتاب ، وقرأه على الناس ، فبايع اهل الشام ابراهيم ، خلا أهل حمص ، فانهم كاتبوا مروان بن محمد ، وامتنعوا من بيعة ابراهيم ، ووقعت الفتنة .

وكان منصور بن جمهور على العراق ، ثم صرف بعبد الله بن عمر ابن عبد العزيز . وكان يكتب لعبد الله بن عمر المغيرة بن عطية .

أيام ابراهيم بن الوليد

وكان يكتب لابراهيم ابراهيم بن أبي جمعة ، ويتقلد له ديوان فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي .

أيام مروان بن محمد الجعدي

وكان يكتب لمروان عبد الحميد بن يحيى ، مولى العلاء بن وهب العامري ، من عامر بن لؤي .وكان من كتابه ايضا مصعب بن ربيع الخثعمي، وكان مروان أول من امر ان يحلى الجند .

وكان عبد الحميد بن يحيى قال لمروان ، حين راى علو امر بني العباس: أتتهمني يا أمير المؤمنين فيك ؟ قال : لا ، فقال له : ارأيت ابراهيم بن محمد ابن علي ، أليس ابن عمك ؟ قال : بلى ، قال : فاني ارى اموره تتبع عليك ، فأنكحه وانكح اليه ، فان ظهر ، كنت قد اعلقت بينك وبينه شيئا ، وان كفيته لم تشن بصهره ، فقال : ويحك ! والله لو علمته صاحب الامر لسبقت اليه ، ولكن ليس هو بصاحبه ، فقال له : وما يضرك من ذلك وهو من القوم الذين تعلم أن الامر منتقل اليهم لا محالة ، ومن الصواب ان تعلق بينك وبينهم شيئا ، فقال : والله اني لاعلم أن الراي فيما تقول ، ولكني أكره أن اطلب النصر بأحراج النساء .

وكتب عبد الحميد الى أهله واقاربه عند هزيمة مروان من فلسطين ، وهو آخر حرب ومرافقة كانت له ، وكانوا ينزلون بالقرب من الرقة ، بموضع يعرف بالحمراء ، يعزيهم عن نفسه :

اما بعد ، فان الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، وجعل فيها اقساما مختلفة بين اهلها ، فمن درت له بحلاوتها ، وساعده الحظ فيها ، سكن اليها ، ورضي بها ، وأقام عليها ، ومن قرصته بأظفارها ، وعضته بأنيابها ، وتوطأته بثقلها ، قلاها نافرا عنها ، وذمها ساخطا عليها ، وشكاها مستزيدا منها ، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها ، وأرضعتنا من درها أفاويق استحلبناها ، ثم شمست منا نافرة ، وأعرضت عنا متنكرة ، ورمحتنا مولية ، فملح عذبها ، وامر حلوها ، وخشن لينها ، فمرقتنا (١) عن

---

(١) مرقتنا : أي أخرجتنا .

الاوطان ، وقطعتنا عن الاخوان ، غدارنا نازحة ، وطيرنا بارحة ، قد اخذت كل ما اعطت ، وتباعدت مثل ما تقربت ، وأعقبت بالراحة نصبا ، وبالجذل هما ، وبالامن خوفا ، وبالعز ذلا ، وبالجدة حجة ، وبالسراء ضراء ، وبالحياة موتا ، لا ترحم من استرحمها ، سالكة بنا سبيل من لا اوبة له ، منفيين عن الاولياء ، مقطوعين عن الاحياء .

وقال في فصل آخر منه :

وكتبت اليكم والايام تزيدنا منكم بعدا ، واليكم صبابة ووجدا ، فان تنم البلية الى اقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وان يلحقنا ظفر جارح من اظفار من يليكم نرجع اليكم بذل الاسار والصغار ، والذل شر دار ، والأم جار ، يائسين من روح الطمع وفسحة الرجاء . نسأل الذي يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، أن يهب لنا ولكم الفة جامعه ، في دار آمنة ، تجمع سلامة الاديان والابدان ، فانه رب العالمين ، وارحم الراحمين .

ووجدت بخط ميمون بن هارون لعبد الحميد كتابا كتبه الى الكتاب ، أطال فيه الا انه اجاد ، فلم استجز اسقاط بعضه ، وكتبت جميعه على طوله ، لان الكاتب لا يستغني عن مثله ، وهو :

اما بعد ، حفظكم الله يا اهل هذه الصناعة ، وحاطكم ووفقكم وارشدكم فان الله جل وعز جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين . صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين ، سوقا ، وصرفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم ، فجعلكم معشر الكتاب في أشرفها صناعة ، اهل الادب والمروءة ، والحلم والروية ، وذوي الاخطار والهمم وسعة الذرع في الافضال والصلة ، بكم ينتظم الملك ، وتستقيم للملوك امورهم ، وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ويجتمع فيهم ، وتعمر بلادهم . يحتاج اليكم الملك في عظيم ملكه ، والوالي في القدر السني والدني من ولايته ، لايستغني عنكم منهم أحد ، ولا يوجد كاف الا منكم ، فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، والسنتهم التي بها ينطقون ، وايديهم التي بها يبطشون ، أنتم اذا آلت الامور الى موئلها ، وصارت الى محاصلها ، ثقاتهم دون أهليهم وأولادهم وقراباتهم ونصحائهم ، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم سربال النعمة عليكم . وليس احد من اهل الصناعات كلها احوج الى استخراج خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة ، منكم ايها الكتاب ، ان كنتم على ما سبق به الكتاب من صفتكم ، فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات اموره ، الى أن يكون حليما في موضع الحلم ، فقيها في موضع الحكم ، مقداما في موضع الاقدام ، ومحجما في موضع

الاحجام ، لينــا في موضع اللين ، شديدا في موضع الشدة ، مؤثرا للعفاف والعدل والانصاف ، كتوما للاسرار ، وفيا عند الشدائد ، عالما بما يأتي ويذر، ويضع الامور في مواضعها . قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فاحكمه ؛ فان لم يحكمه شدا منه شدوا يكتفي به ، يكاد يعرف بغريزة عقله ، وحسن ادبه ، وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل أمر عدته ، ويهيىء لكل أمر أهبته . فنافسوا ، معشر الكتاب ، في صنوف العلم والادب . وتفقهوا في الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية ، فانها ثقاف السنتكم ، واجيدوا الخط ، فانه حلية كتبكم ، وأرووا الاشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ،، وأحاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمون اليه بهممكم ، ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فانه قوام كتاب الخراج منكم ، وارغبوا بانفسم عن المطامع ، سنيها ودنيها ، ومساوي الامور ومحاقرها ، فانها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب . ونزهوا صناعتكم ، واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة ، وما فيه اهل الدناءة والجهالة ، واياكم والكبر والعظمة ، فانها عداوة مجتلبة بغير احنة . وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصلوا عليها ، فانها شيم اهل الفضل والنبل من سلفكم . وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه ، حتى ترجع اليه حاله ، وان اقعد الكبر أحدكم عن مكسبه ولقاء اخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته وقديم معرفته . وليكن الرجل منكم ، على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه ، أحدب واحوط منه على أخيه وولده ، فان عرضت في العمل محمدة فليصفها الى صاحبه ، وان عرضت مذمة فليحملها من دونه ، وليحذر السقطة والذلة والملال عند تغير الحال ، فان العيب اليكم ، معشر الكتاب ، أسرع منه الى المراة ، وهو لكم اشد منه لها ، فقد علمتم أن الرجل منكم قد يصف الرجل ، اذا صحبه في بدء أمره ، من وفائه وشكره ، واحتماله وصبره ، ونصيحته وكتمان سره ، وعفافه وتدبيره ، بما هو حري أن يحققه بفعاله ، في غير حين الحاجة الى ذلك منه ، فابذلوا ، وفقكم الله، ذلك من انفسكم في حال الرخاء والشدة ، والحرمان والمواساة ، والاحسان والاساءة ، والغضب والرضا ، والسراء والضراء . فنعمت السمة هذه لمن وسم بها من اهل هذه الصناعة الشريفة . فاذا ولي الرجل منكم ، وصير اليه من امور خلق الله وعباده أمر فليراقب الله تعالى ذكره ، وليؤثر طاعته فيه ، وليكن على الضعيف رفيقا ، وللمظلوم منصفا ، فان الخلق عباد الله ، واحبهم اليه ارفقهم بعباده ، ثم ليكن بالحق حاكما ، وللاشرا فمكرما ومداريا ، وللفيء

موفرا ، وللبلاد عامرا ، وللرعية متألفا ، وليكن في مجلسه متواضعا حليما لينا ، وفي استجلاب خراجه واستقصاء حقوقه رفيقا . واذا صحب أحدكم الرجل فليستشف خلائقه ، كما يستشف الثوب ، يشتريه لنفسه ، فاذا عرفها حسنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال لصرفه عما لا يوافقه من القبيح ، بالطف حيلة ، وأحسن مداراة ورفقة . فقد عرفتم أن سائس البهيمة ، اذا كان حاذقا بسياستها ، التمس معرفة أخلاقها ، فان كانت رموحا اتقاها من قبل رجلها ، وان كانت جموحا لم يهجها اذا ركبها ، واذا كانت شموسا توقاها من ناحية يدها ، وان خاف منها عضاضا توقاها من ناحية رأسها ، وان كانت حرونا لم يلاحها ، وتتبع هواها في طريقها ، وان استمرت عطفها ، فيسلس له قيادها . ومن هذا الوصف من سائس البهيمة ، ورفق سياسته دليل وادب لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وصحبهم .

والكاتب بفضل رأيه ، وشرف صناعته ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوره ويناظره ، ويفهم عنه ويخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه ، ومداراته وتقويم أوده ، من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا ، ولا تعرف خطأ ولا صوابا . الا بقدر ما يصيرها اليه سائسها أو صاحبها الراكب لها فادتوا — يرحمكم الله — النظر ، واعملوا فيه الروية والفكر ، تأمنوا ممن صحبتموه ، باذن الله ، النبوة والاستثقال والجفوة ، ويصيروا منكم الى الموافقة ، وتصيروا منهم الى المواساة والشفقة ، ان شاء الله .

ولا يجوزن الرجل منكم ، في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره ، قدر صناعته ، فانكم ، مع ما فضلكم الله به من شرف صناعتكم ، خدم ، لا تحتملون في خدمتكم على التقصير ، وخزان وحفظة ، لا يحتمل منكم التضييع والتبذير ، واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما عددت عليكم . فنعم العون عونكم على صيانة دينكم ، وحفظ أمانتكم ، وصلاح معاشكم . واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فانهما يعقبان الفقر ، ويذلان الرقاب ، ويفضحان أهلهما ، ولا سيما الكتاب ، والامور أشباه ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤتنف (١) أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير او ضحها محجة ، وارجحها حجة ، واحمدها عاقبة ، واعلموا ان للتدبير آفة وضدا ، وانهما لا يجتمعان في احد أبدا ، وهو الوصف الشاغل لصاحبه على انقاذ عمله ورويته ، فليقصد الرجل منكم في مجلس

---

(١) مؤتنف أعمالكم : ما ستستأنفون عمله وتبدأون .

تدبيره قصد الكافي في منطقه ، وليقصد في كلامه ، وليوجز في ابتدائه ، وليأخذ بمجامع حجته ، فان ذلك مصلحة لعقله ، ومجمة لذهنه ، ومدفعة للتشاغل عن اختاره ، وان لم يكن الاكثار عادة ، ثم وضع موضعه في ابتداء كتاب او جواب عند الحاجة فلا بأس ، ولا يدعون الرجل منكم صنع الله ، تعالى ذكره له في أمره ، وتأييده اياه بتوفيقه ، الى العجب المضر بدينه ، وعقله وأدبه ، فانه ان ظن منكم ظان ، او قال قائل : ان ذلك الصنع لفضل حيلته ، وأصالة رايه ، وحسن تدبيره ، كان متعرضا لان يكله الله الى نفسه ، فيصير منها الى غير كاف ولا يقل احد منكم انه آدب وأعقل واحمل لعبء التدبير والعمل من أخيه في صناعته ، فان أعقل الرجلين ، عند ذوي الالباب ، القائل : ان صاحبه اعقل منه ، وأحمقهما الذي يرى انه اعقل من صاحبه ، لعجب هذا بنفسه ، ونبذ ذاك العجب وراء ظهره ، اذ كان الآفة العظمى من آفـات عقله ، ولكن قد يلزم الرجل أن يعرف فضل نعمة الله عليه من غير عجب برايه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا تكابر على اخيه وكفئه ، ويشكر الله ويحمده بالتواضع لعظمته . وانا اقول في آخر كتابي هذا ما سبق به المثل : من يلزم النصيحة يلزمه العمل ، وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه . بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل ، فلذلك جعلته آخره ، وختمته به .

تولانا الله واياكم معشر الكتاب بما يتولى به من سبق علمه في سعادته وارشاده ، فان ذلك اليه وبيده ، والسلام عليكم ورحمة الله .

ولما قوي أمر بني العباس وظهر ، قال مروان لعبد الحميد : أنا نجد في الكتب أن هذا الامر زائل عنا لا محالة ، وسيضطر اليك هؤلاء القـوم ، يعني ولد العباس ، فصر اليهم ، فأني ارجو ان تتمكن منهم فتنفعني في مخلفي، وفي كثير من اسبابي ، فقال له : وكيف لي بأن يعلم الناس جميعا أن هذا عن رايك ، وكلهم يقول : اني غدرت وصرت الى عدوك ، وانشد :

أسر وفاء ثم أظهر غـدرة ... فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره!

وأنشد ايضا :

فذنبي ظاهر لا عيب فيه ... للائمة وعـذري بالمغيب

فلما سمع ذلك مروان علم أنه لا يفعل ، ثم قال له عبد الحميد ، الذي أمرتني به أنفع الامرين لك ، واقبحهما بي ، ولك علي الصبر معك الى ان يفتح الله عليك ، أو اقتل معك .

مقتل عبد الحميد وسيرته : ولما قتل عامر بن اسماعيل المسلمي مروان ظفر بعبد الحميد كاتبه ، فعرض عليه رءوس القتلى ، لانه قتل في ستة أو سبعة من خواصه ، وكانوا معه ، فعرفه رأسه ، وحمل عبد الحميد الى ابي العباس فسلمه الى عبد الجبار بن عبد الرحمن فكان يحمي طستا

ويضعه على رأسه ، فلم يزل يفعل به ذلك حتى قتله .

ووجدت بخط ابي علي احمد بن اسماعيل : حدثني العباس بن جعفر الاصبهاني ، قال :

طلب عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وكان صديقا لابن المقفع ، ففاجاهما الطلب وهما في بيت ، فقال الذين دخلوا عليهما : ايكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا ، خوفا من أن ينال صاحبه بمكروه ، وخاف عبد الحميد ان يسرعوا الى ابن المقفع ، فقال : ترفقوا فان فيّ علامات ، ووكلوا بنا بعضكم ، ويمضي بعض يذكر تلك العلامات لمن وجه بكم ففعل ذلك ، واخذ عبد الحميد .

وكان يكتب لعامر بن اسماعيل الحسين بن محمد القاسم النخعي .

وكان عبد الحميد يقول :

أكرموا الكتاب ، فان الله عز وجل اجرى ارزاق العباد على أيديهم .

وكان يكتب لمروان على النفقات زياد بن ابي الورد الاشجعي ، واسمه مكتوب على ميناء صور وميناء عكا ، ما امر باصلاحه أمير المؤمنين مروان وجرى على يد زياد بن أبي الورد .

وذكر علي بن سراج المحدث :

أنه راى على بيت مال بأذربيجان : مما امر به عبد الله المنصور ، أمير المؤمنين ، وجرى على يد زياد بن ابي الورد ، لانه تقلد أيضا للمنصور .

وذكر مخلد بن محمد بن الحارث ، وكان من كتاب مروان الى أن قتل مروان ، ثم اتصل بعبد الله بن علي :

انه حضر مجلس عبد الله يوما ، فسأله عن مروان وقال له : حدثني عنه ، فقال له : انه قال لي يوم الوقعة : أحزر لي القوم ، فقلت : اني صاحب قلم ولست بصاحب حرب ، فأخذ يمنة ويسرة ونظر ، ثم قال لي : هم اثنا عشر الفا ، فجلس عبد الله وكان متكئا ، ثم قال : لله دره ، ما احصى الديوان يومئذ فضلا عن اثني عشر الفا .

واهدى عامل لمروان غلاما اسود ، فقال لعبد الحميد : اكتب اليه فاذمم فعله . فكتب اليه عبد الحميد : لو وجدت لونا شرا من السواد ، وعددا أقل من الواحد ، لاهديته .

وهذا مأخوذ من قول اعرابي ، قيل له : مالك من الولد ؟ فقال : قليل خبيث ، فقيل له : ما معناك في هذا ؟ فقال : لا اقل من واحد ، ولا أخبث من بنت .

وانشد لعبد الحميد :

ترحل ما ليس بالقافل	وأعقب ما ليس بالزائل
فويلي من الخلف النازل !	ولهفي على السلف الراحل !
أبكي على ذا وأبكي لذا	بكاء المولهة الثاكل
تبكي من ابن لها قاطع	وتبكي على ابن لها واصل
فليست تقتر من عبرة	لها في الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبى	ورد التقى عن الباطل

وكان أبو جعفر المنصور كثيرا ما يقول بعد افضاء الامر الى بني العباس : غلبنا بنو مروان بثلاثة أشياء : بالحجاج ، وبعبد الحميد ابن يحيى الكاتب ، والمؤذن البعلبكي .

وساير عبد الحميد يوما مروان على دابة قد طالت مدتها في ملكه ، فقال له مروان ، قد طالت صحبة هذه الدابة لك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ان من بركة الدابة طول صحبتها ؛ وقلة علفها ، فقال له ، فكيف سيرها ؟ فقال همها أمامها ؛ وسوطها عنانها ، وما ضربت قط الا ظلما .

وقيل لعبد الحميد بن يحيى : ما الذي مكنك من البلاغة ، وخرجك فيها ؟ فقال : حفظ كلام الاصلع ، يعني أمير المؤمنين عليا .

وحكي ان عبد الحميد مر بابراهيم بن جبلة ، وهو يكتب خطا رديا ؛ فقال له : اتحب ان يجود خطك ؟ قال : نعم ، فقال : أطل جلفة قلمك واسمنها وحرّف قطتك وايمنها . قال ابراهيم : ففعلت ذلك فجاد خطي .

وقال عبد الحميد :

العلم شجرة ثمرتها الالفاظ ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة .

وكان لعبد الحميد عقب يسكنون مصر ؛ ولم يكن في أوائلهم من له نباهة ، فلما صار احمد بن طولون الى نواحي مصر ، اتصل به اربعة نفر من ولده ، ويعرفون ببني المهاجر ، وكانوا يكتبون قبله للجسين الخادم ، المعروف بعرق الموت . واستكتب أحمد بن طولون منهم الحسن بن محمد بن ابي المهاجر — وكان علي بن محمد أخوه أسن منه — واستعان احمد بن طولون ايضا بأخويهما ، وكانا يكنيان بأبي القاسم ، وأبي عيسى ، وخصوا جميعا بأحمد بن طولون ، وغلبوا عليه ، واستحكمت ثقته بهم . وكانوا من أنصب الناس ، واشدهم انحرافا عن بني هاشم .

قال يوسف بن ابراهيم صاحب ابراهيم بن المهدي :

سمعت ابراهيم بن المهدي يقول لعلي بن محمد بن ابي المهاجر ، وقد فخر بذكر جده ، وذكر تقدمه في صناعته وفضله وادبه وبلاغته :

ان عبد الحميد كان من أشأم كاتب على وجه الارض ، لانه لما تقلد وزارة مروان لم يقتصر شؤمه على اتلافه فقط ، حتى ازال دولة بني مروان

جملة . ولم يكتف في مروان الا بالقتل .

قال احمد بن محمد . المكنى بابن نصر ، المعروف بابن الاعجمي :

ان الحسن بن محمد لم يزل على كتابة احمد بن طولون الى ان مات ، وان خمارويه نكبه بعد أبيه وحبسه .

فحدثتني جارية كانت للحسن بن محمد ، يقال لها نبات :

أن خمارويه أمر باحضارها واحضار جميع جواري الحسن ، وكانت فيهن جارية له ، تدعى : بدعة ، وكان يتحظاها ، وانه طالبها بأن تغنيه فامتنعت ، فدعا بخادم يقال له : سوار ، فأسر اليه شيئا ، وغاب غيبة ، وعاد ومعه راس الحسن بن محمد ، فوضعه في حجرها ، فلم ارأته صرخت، وصرخنا جميعا ، فأمر باخراجنا من حضرته .

وكان يكتب لابراهيم الامام ، على الدعاء ، بكر بن ماهان ، ويكنى أبا هاشم . وكان زوج ابنته من ابي مسلمة حفص بن سليمان ، مولى بني الحارث بن كعب . ويعرف بابي سلمة الخلال .

وقيل في نسبته : انه نسب انى الخل . وقال ثعلب عن ابن الاعرابي : انه نسب الى خلل السيوف ، وهي الجفون وذكر ان المر يتسمي من يعملها . الخلال : واستشهد بقول الشاعر :

اخلق الدهر بجو طللا   مثل ما اخلق سيف خللا

ولما حضرت أبا هاشم الوفاة كتب الى ابراهيم الامام يخبره :

انه كتب في اول يوم من أيام الاخرة ، وآخر يوم من أيام الدنيا ، وانه قد استخلف حفص بن سليمان .

فكتب ابراهيم الى ابي سلمة يأمره بالقيام بامر اصحابه ، وكتب الى أهل خراسان : انه قد اسند امرهم اليه . ومضى ابو سلمة الى خراسان ، فقبلوا امره ، ودفعوا اليه خمس اموالهم ، ونفقات الشيعة .

وكان المتولي لمكاتبة الامام عن الدعاة ، والقيم بقراءة كتبه اليهم بمحضر جماعتهم ، طلحة بن زريق ، أخو مصعب بن زريق ، جد طاهر ابن الحسين ، ويكنى طلحة : ابا منصور .

وقائع واحداث : وكان مهلهل بن صفوان مولى امراة كانت لعلي بن عبد الله ابن العباس ، تخدم ابراهيم الامام في الحبس ، وتكتب له كتبه ، فلم تزل معه الى أن قتل مروان ابراهيم .

ولما هزم ابن هبيرة وقصد واسط ، ودخل حميد والحسن ابنا قحطبة الى الكوفة ، لاحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومئة ، اظهروا ابا سلمة ، وسلموا اليه الرياسة ، وسموه وزير آل محمد ، ودبر الامور ، وأظهر الامامة الهاشمية ، ولم يسم الخليفة .

وكان أبو مسلم يكاتبه : « للامير حفص بن سليمان ، وزير آل محمد ، من عبد الرحمن بن مسلم ، أمير آل محمد » . وكان ابو مسلم لما اظهر الدعوة بخراسان وغلب على ما غلب عليه من البلاد ، قلد كتابة الدواوين بحضرته وبيت المال ابا صالح كامل بن مظفر ، وقلد كتابة الرسائل أسلم ابن صبيح .

وكان ابراهيم عند حبس مروان اياه خاف على اهل بيته ، فولى ابا العباس عهده ، وعقد الخلافة له من بعده ، وأمره بالمسير الى الكوفة الى أبي سلمة ، وامر أهل بيته أن يسيروا معه ، ويسمعوا له ويطيعوا ، ونعى اليهم نفسه . فسار ابو العباس عبد الله بن محمد ، ومعه أبو جعفر أخوه ، وداود وعبد الله ، عماه ، وعيسى بن موسى بن محمد بن علي ، وموسى بن داود بن علي ، ويحيى بن جعفر بن تمام بن العباس ، ومعهم جماعة من مواليهم ، فلما شارفوا الكوفة وجه أبو العباس بابراهيم بن سلمة الى أبي سلمة يخبره ، فانكر ابو سلمة مقدمهم وقال : خاطروا بانفسهم وعجلوا ، فليقيموا بقصر مقاتل — وهو على مرحلتين من الكوفة — حتى ننظر في امرنا . فرجع اليهم ابراهيم بذلك ، فكتبوا اليه : انا في برية ولا نأمن قصد جيوش الشام ايانا ، لانهم بهيت ، على ثلاث مراحل منا ، وسألوه الاذن لهم في الدخول الى الكوفة ، ليتحرزوا بها . فأذن لهم على كره ، وانزلهم في بني اود ، في دار الوليد بن سعد الجمال ، مولى بني هاشم ، وكتم أمرهم نحوا من شهرين ، من جميع القواد والشيعة . وعسكر أبي سلمة بحمام اعين ، فأقام بها ، وفرق عماله على السهل والجبل ، وصارت الدواوين بحضرته ، والكتب تنفذ منه ، وترد عليه .

وكان أبو سلمة يطعم أصحابه غداء وعشاء . وكان يتأنق في السلاح والدواب ، ولا يتأنق في ثوبه ، وكان فصيح اللسان ، عالما بالاخبار والاشعار والجدل وتفسير القرآن ، حاضر الحجة كثير الجد .

وكان لما صح عنده موت ابراهيم الامام لقي رجالا من شيعة علي ، رضوان الله عليه ، فناظرهم على نقل الامر الى ولد علي ، وكتب الى ثلاثة نفر ليعقد الامر لاحدهم ، وهم : جعفر بن محمد ، وعبد الله ابن حسن ، وعمر بن علي بن الحسن ، ودفع الكتب الى رجل ، وأمره أن يلقي جعفرا بديا ، فان قبل ما كتب به مزق الكتابين ، وان لم يقبل لقي عبد الله بن حسن ، فان قبل مزق الكتاب الثالث ، وان لم يقبل لقي عمر بن علي .

فقدم الرسول المدينة ، فاوصل كتاب جعفر بن محمد اليه ، فأحرقه في السراج ولم يقراه ، وقال : الجواب ما رايت .

فلقي عبد الله بن الحسن ، فقبل الكتاب ، فحذره جعفر بن محمد ، فلم يحذر ، واشار عليه ان لا يفعل ، واعلمه أن اهل خراسان ليسوا بشيعة ،

وأن أبا سلمة مخدوع مقتول .

وارتاب أهل خراسان بأبي سلمة وتكلموا ، وقالوا : يا أبا سلمة ، ما لك خرجنا من ثغر خراسان ، ولا اليك دعونا ، وما أنت لنا بامام ! فهم في ذلك معه ، اذ خرج محمد بن ابراهيم الحميري — ويكنى : أبا حميد السمرقندي — يريد الكناسة ، فلقي سابقا الخوارزمي ، وهو غلام كانوا أهدوه لابراهيم الامام ، فسأله أبو حميد عن الخبر ، فأخبره ، وصار الى أبي العباس وأهل بيته ، فلما دخل ابو حميد عليهم ، سأل عن ابراهيم الامام ، فخبر بوفاته ، فعزاهم عنه ، وسألهم عن ابن الحارثية ، فأشاروا الى ابي العباس ، فسلم عليه بالخلافة ، وقبل يده ورجله وبايعه . وسألهم عن سبب مقامهم هناك ، فاعلموه أن أبا سلمة أنزلهم تلك الدار نحوا من شهرين ، وأعلم أبا الجهم ، وموسى بن كعب ، ومحمد بن صول ، وسلم ابن محمد ، ونهار بن حصن ، وصاروا جميعا الى أبي العباس ، ومعهم اصحابهم في السلاح ، فبايعوه . وامر أبو الجهم ابا حميد ان يحجب الناس ، وبلغ الخبر أبا سلمة ، فركب في أصحابه ، فأغلق الباب دونه ، فاستفتح اصحاب أبي سلمة الباب ، وقالوا : وزير آل محمد ، فأسمعوه بعض ما يكره ، فقال أبو حميد : افتحوا له حتى يريه الله ما يرغم أنفه ، فدخل فاستقبل القبلة ، فسجد ثم سلم ، وقبل يد أبي العباس وقدميه ، وبدأ في الاعتذار . فقال له أبو العباس : عذرناك يا أباسلمة ، غير مفند ، وحقك لدينا معظم ، وسابقتك في دولتنا مشكورة ، وزلتك مغفورة ، انصرف الى معسكرك لا يدخله خلل . فانصرف الى معسكره بحمام اعين .

وكانت مدة تقليد ابي سلمة الامور منفردا بها ، الى ان ظهر أمر الشيعة ، شهرين ونصفا .

وكان خالد بن برمك في عسكر قحطبة يتقلد خراج كل ما افتتحه قحطبة من الكور ، وتقلد الغنائم وقسمها بين الجند . فكان يقال : انه ما أحد من اهل خراسان الا ولخالد عليه يد ومنة ، لانه قسط الخراج ، فأحسن فيه الى اهله . وكان مع قحطبة حيث قتل ابن ضبارة ، فغلط براسه ، فوجه قحطبة الى أبي مسلم بغير رأس ابن ضبارة ، ثم عرف راسه بنقش خاتمه ، فأراد قحطبة أن يوجه به ، فمنعه خالد بن برمك بصحة رايه ، وقال : ان فعلت ذلك أبطلت الاول والثاني .

وكان لخالد ، فيما ذكر عبد الملك بن صالح ، وحكاه ايضا صالح ، صاحب المصلى في يوم ابن ضبارة ، راي وفطنة استحسنا ، وهو أن خالد ابن برمك كان على سطح من سطوح قرية ، قد نزلوها مع قحطبة بن شبيب ، وهم يتغدون ، حتى أقبلت اقاطيع الوحش من الظباء والبقر ، فخالطت

العسكر ، فقال خالد لقحطبة : يأيها الامير ، قد أتينا ، فمر من ينـــادي بالسلاح ، فعجب قحطبة منه ، فقال : لا تتشاغل بكلامي وأمر بالنداء ، فنادى بالسلاح ، واظلهم ابن ضبارة في عسكره ؛ وكان من أمرهم ما كان . فلمـــا انقضت الحرب سئل عن السبب فيما قاله ، فقال : رأيت الوحـــوش قد خالطت العسكر ؛ ومن حكمها ان تنفر عنه ، فعلمت : أنها لم تخـــالطه الا لشيء وراءها أعظم مما دخلت فيه .

ايام ابي العبـــاس السفاح

ولما عقدت البيعة لابي العباس ، وحضر خالد بن برمك لمبايعته ، فرأى فصاحته ؛ توهمه من العرب ، فقال له : ممن الرجل ؟ فقال له : مولاك خالد بن برمك ، وقص عليه قصته ، وقال : أنا كما قال الكميت ابن زيد :

فمالي الا آل أحمـــد شيعـــة   ومالي الا مشعب الحق مشعب

فأعجب به أبو العباس ، واقره على ما كان يتقلد من الغنائم ، وجعل اليه بعد ذلك ديوان الخراج ، وديوان الجند ، وكثر فيه حامده ، وحســـن اثـــره .

وكان سبيل ما يثبت في الدواوين أن يثبـــت في صحف ، فكان خالـــد أول من جعله في دفاتر ؛ فخص بابي العباس ، وحل محل الوزير . ودفـــع أبو العباس ابنته زيطة الى خالد بن برمك ، حتى أرضعتها زوجته أم خالد بنت يزيد ، بلبان بنت لخالد ؛ تدعى أم يحيى ؛ وأرضعت أم سلمة زوجة أبي العباس أم يحيى ، بنت خالد ، بلبان ابنتها ريطة ، فقال أبو العباس يومـــا لخالد بن برمك لم ترض يابن برمك حتى استعبدتني ! فوجم من ذلك ، وقال : انا عبد امير المؤمنين ، فقال له : كانت ريطة وأم يحيى في فـــراش واحد ، فتكشفتا ؛ فرددت عليهما اللحاف ، فقبل يده ، وشكر له ، ولم يزل علـــى منزلته عنده الى أن توفي أبو العباس .

وورد على أبي العباس ابو جعفر منصرفا من خراسان في جمادي الاولى سنة أثنتين وثلاثين ومئة ، وكان وجهه لاخذ البيعة على ابي مسلم وأصحابه ، فأخذها ورجع .

قتل ابي العباس لابي سلمة : وكان أبو العباس هم بابي سلمة ، فقال له داود بن علي : لا آمن عليك ابا مسلم ان فعلت أن يستـــوحش ، ولكن اكتب اليه ، فعرفه ما كان من ابي سلمة ،فكتب أبو العباس الى أبي مسلـــم يعلمه ما كان من أمر أبي سلمة في الكتاب الى من كتب اليه من ولد علي ، وما كان أجمعه من صرف الدعوة اليهم . فوجه أبو مسلم بالمرار بن أنس الضبي

لقتل ابي سلمة ، فلما واباه أمر أبو العباس ، قبل قتله بثلاثة ايام ، مناديا ينادي بالكوفة : ان أمير المؤمنين قد رضـــي عن أبي سلمة . ثم دعاه قبـــل مقتله بيوم ، فخلع عليه ، وكان يسمر عنده ، فخرج ليلته تلك يريد الانصراف الى منزله ، وقد كمن له المرار بن أنس ، واسيـــد بن عبد الله ، فقتـــلاه ، واغلقت أبواب المدينة ، فقيل لابي العباس : ان ابا سلمة قتله الخوارج ، فقال : لليدين وللفم . وقتل في رجب سنة اثنتين وثلاثين ومئة .

وقائع وأحداث : وقلد ابو العباس عمارة بن حمزة بن ميمون ، من ولد أبي لبابة ، مولى عبد الله بن العباس ، ضياع مروان وآل مروان . وكـــان عمارة سخيا سريا ، جليل القدر ، رفيع النفس ، كثير المحاسن ، وكان ابو العباس يعرف عمارة بن حمزة بالكبر ، وعلو القدر ، وشدة التنزه ، فجرى بين أبي العباس وبين أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة المخزوميـــة زوجته ، يوما كلام فاخرته نيه بأهلها ، فقال لها أبو العباس : انا احضـرك الســـاعة على غير اهبة مولى من موالي ليس في اهلك مثله ، ثم امر باحضار عمـــارة ابن حمزة على الحال التي يكون عليها ، فأتاه الرسول في الحضور . فاجتهد في تغيير زيه ، فلم يدعه ، فجاء به الى أبي العباس وأم سلمة خلف الستر ، واذا عمارة في ثياب ممسكه قد لط لحيته بالغالية حتى قامت ، واستتر شعره ، فقال : يا امير المؤمنين ، ما كنت احب أن تراني على مثل هذه الحال ، فرمى اليه بمدهن كان بين يديه ، فيه غالية ، فقال ، يا أمير المؤمنين : أترى لهـــا من لحيتي موضعا ! واخرجت اليه ام سلمة عقدا كان لها ، قيمتـــه جليلة ، وقالت للخادم : تعلمه اني أهديته اليه . فأخذه عمارة بيده ، وشكر أبـــا العباس ، ووضعه بين يديه ونهض ، فقالت أم سلمة لابي العباس : انمـــا أنسيه ، فقال أبو العباس للخادم : الحقه به ، وقل له : هـــذا لك ، فلم خلفته ؟ فأتبعه الخادم ، فلما أدى اليه الرســـالة قال له : ان كنت صادقـــا فهو لك ، وانصرف الخادم بالعقد ، وعرف ابا العباس بما جرى ، وامتنـــع من رده على ام سلمة ، وقال لها : قد وهبه لي ، فلم تـــزل الى ان اشترته منه بعشرة الاف دينار .

وكان عمارة بن حمزة يقول : يخبز في داري كل يوم الفا رغيف ، يؤكل منها الف وتسع مئة وتسعون رغيفا حلالا ، وآكل رغيفـــا واحدا حراما ، واستغفر الله .

وكان يقول : ما اعجب قول الناس : فلان رب الدار ! انما هو كلـــب الـــدار .

وكان الماء زاد في أيام الرشيد ، وكان الرشيد غائبا في بعض متصيداته ، ويحيى بن خالد مقيم ببغداد ، فركـــب يحيى ومعه القـــواد ، ليفرقهم على

المواضع المخوفة من الماء يحفظونها ، فنرق القواد ، وأمر باحكام المسنيات ؛ وصار الى الدور ، فوقف الى قوة الماء وكثرته ، فقال قوم : ما راينا مثل هذا المد ! فقال يحيى بن خالد : قد رايت مثله في سنة من السنين ، كان ابو العباس خالد وجهني فيها الى عمارة بن حمزة ، في أمر رجل كان يعنى به من اهل خراسان ؛ وكانت له ضياع بالري ، فورد عليه كتابه يعلمه أن ضياعه تحيفت (١) فخربت ، وأن نعمته قد نقصت ، وأن حاله قد تغيرت ، وان صلاح أمره في تأخيره بخراجه لسنة ، وكان مبلغه مئتي الف درهم ، ليتقوى به على عمارة ضيعته ، ويؤديه في السنة المستقبلة . فلما قرأ كتابه غمه وبلغ منه ؛ وكان بعقب ما الزمه ابو جعفر من المال الذي خرج عليه ؛ فخرج به عن كل ما يملكه ، واستعان بجميع اخوانه فيه ، فقال لي: يا بني ، من ها هنا يفزع اليه في امر هذا الرجل ؟ فقلت : لا ادري ، فقال : بلى ؛ عمارة بن حمزة ؛ فصر اليه ؛ وعرفه حال الرجل ، فصرت اليه وقد مدت دجلة ؛ وكان ينزل الجانب الغربي ، فدخلت عليه وهو مضطجع على فراشه ، فأعلمته ذلك ، فقال : قف لي غدا بباب الجسر ، ولم يزد على ذلك . فنهضت ثقيل الرجلين ، وعدت الى أبي العباس بالخبر ، فقال : يا بني : تلك سجيته ، فاذا اصبحت فاغد لموعده ، فغدوت فوقفت بباب الجسر ، وقد جاءت دجلة في تلك الليلة بمد عجيب قطع الجسور ، وانتظم الناس من الجانبين جميعا ينظرون الى زيادة الماء . فبينا أنا واقف ، أقبل زورق والموج يخفيه مرة ويظهره اخرى ، والناس يقولون : غرق غرق ! نجا نجا ! حتى دنا من الشط ، فاذا عمارة بن حمزة وملاح معه فيالزورق ، وقد خلف دوابه وغلمانه في الموضع الذي ركب منه ؛ فلما رأيته نبل في عيني ، وملأ صدري ، فنزلت ؛ فعدوت اليه ، وقلت . جعلت فداك ! أفي مثل هذا اليوم ! واخذت بيده . فقال : اكنت اعدك واخلف ؛ يابن اخي ، اطلب لي برذونا اتكاراه ، فقلت له : فاركب برذوني ، قال : فاي شيء تركب ؟ قلت : برذون الغلام . فقال : هات ، فقدمت اليه برذوني فركبه ، وركبت برذون غلامي ، وتوجه يريد أبا عبيد الله ، وهو اذ ذاك على الخراج ، والمهدي ببغداد خليفة للمنصور ، والمنصور في بعض أسفاره ، قال : فلما طلع على حاجب أبي عبيد الله ، دخل بين يديه الى نصف الدار ، ودخلت معه ، فلما رآه ابو عبيد الله قام من مجلسه ، واجلسه فيه ، وجلس بين يديه ، فاعلمه عمارة حال الرجل ، وساله اسقاط خراجه ، وهو مئتا الف درهم ، واسلافه من بيت المال مئتي الف درهم ، يردها في العام المقبل . فقال له أبو عبيد الله :

---

(١) تحيفت : تنقصت .

هذا لايمكنني ، ولكني اوخره بخراجه الى العام المقبل ، فقال : لست اقبل غير ما سألت ، فقال ابو عبيد الله : فاقنع بدون هذا ؛ لتوجد لي السبيل الى قضاء الحاجة ، فأبى عمارة ، وتلوم ابو عبيد الله قليلا ، فنهض عمارة ، فأخذ ابو عبيد الله بكمه وقال : فاني اتحمل ذلك من مالي ، فعاد لمجلسه ؛ وكتب ابو عبيد الله الى عامل الخراج باسقاط خراج الرجل لسنته ؛ والاحتساب به على ابي عبيد الله ؛ واسلافه مئتي الف درهم ، ترجع منه في العام المقبل . فأخذت الكتاب وخرجنا ، فقلت : لو اقمت عند اخيك ولم نعبر في هذا المد ؟ فقال : لست اجد بدا من العبور ؛ فصرت معه الى الموضع ، ووقفت حتى عبر .

حيلة ابي العباس ضد ابي مسلم : وكان ابو الجهم بن عطية ينوب عن ابي مسلم بحضرة ابي العباس ويخلفه ، فثقلت وطأة ابي مسلم على ابي العباس ، وكثر خلافه اياه ، ورده لامره ، فقال ابو العباس لابي الجهم : اكتب اليه ، واشر عليه بالاستئذان في القدوم علينا ، لتجديد العهد بنا . فكتب اليه ابو الجهم بذلك ، فقبل رأيه ، وكتب مستأذنا ، فمنعه ابو العباس ، وقال له : خراسان لا تحتمل مفارقتك لها ، وخروجك عنها ، وتركه شهرا . ثم قال لابي الجهم اعد الكتاب بمثل ذلك ، فأعاده ، فكتب ابو مسلم مستأذنا ، فمنعه واجابه ؛ ان خروج امير المؤمنين اليك اسهل من الاذن لك ؛ واخلائك ما قد اصلحه الله بك ، ثم تركه شهرا . وقال لابي الجهم : اعد الكتاب ، واشر عليه بأن يذكر شدة شوقه ، ومحبته لمشاهدة نعمة الله عندنا ، وعنده فينا ، ففعل ، وكتب ابو مسلم بنحو ما كتب به ابو الجهم اليه ، فأجابه ابو العباس بالاذن . واستخلف أبا صالح كامل بن مظفر على الخراج والدواوين ، وفرق أعمال الحرب على جماعة ، وقدم على ابي العباس فلقيه ، ثم استأذن في الحج ، فأذن له .

وكان أبو العباس شكا الى خالد ، وهو يتقلد دواوينه ، اهتمامه بهيبة الجند أبا مسلم ، فأشار عليه ان يأمره بعرضهم ، واسقاط من لم يكن من أهل خراسان منهم ، ففعل ذلك . فجلس أبو مسلم للعرض ، فأسقط في أول يوم بشرا كثيرا ، ثم جلس في اليوم الثاني ، فأسقط أيضا بشرا كثيرا ، ثم جلس في اليوم الثالث ، فدعا بالناس فلم يقم أحد ، فدعا ثانية فلم يقم أحد ، ودعا ثالثة فلم يقم احد ، فقام اليه رجل فقال : علام تسقط الناس ايها الرجل منذ ثلاث ؟ فقال : اسقط من لم يكن من اهل خراسان ؟ قال : فابدأ بنفسك ، فانك من أهل اصبهان ، وقد دخلت في اهل خراسان . فوثب ابو مسلم عن مجلسه ، وقال : هذا أمر أحكم بليل ، وحسبك من شر سماعه، وفطن لما اريد به ، وبلغ الخبر أبا العباس ، فسره .

طريح بن اسماعيل : وكان داود بن علي يتقلد الكوفة واعمالها ، فدفع طريح بن اسماعيل الى كاتبه رقعة الى داود في حاجة له اليه ، متقاضيا لها ، فقال له : هذه حاجتك مع حاجة فلان من الاشراف ، فقال :

تخل بحاجتي واشــدد قواها ... فقد امسـت بمنزلة الضيــاع
اذا راضعتها بلبــان اخــرى ... أضر بها مشــاركة الرضـــاع
ودونك فاغتنم شكري وشعري ... وايــاكم مكاشفـة القنـــاع

فأفرد رقعته ، وقضى حاجته .

أيــام المنصـــور

وكان يكتب لابي جعفر المنصـــور عبد الملك بن حميد . مولى حاتـم ابن النعمان الباطلي ، من اهل حران ، وكان كاتبا متقدما ، فجلس في يــوم من ايام عطلته بحران ، ويحيى بن نزملة الصفري ، وعبيد الله بن النعمان ، مولى ثقيف ، ورجلان آخران تحت شجرة تين ، وذلك بعد انقضـاء أمر بني امية ، ومصير الامر الى بني العباس ، فقالوا : لو اصبنا رجلا له سلطـان انقطعنا اليه ، وكنا في خدمته ، يرزقنـــا رزقا نعود به على عيالنا ، فقــال بعضـهم : عسى الله عز وجل أن يسبب ذلك لنا أو لبعضنا فيفضل علينا . فتواقفوا بينهم الا يصيب رجل منهم سلطانا الا آســى أصحابه . وطلب المنصور كاتبا ، فوصف له عبد الملك بن حميد . فأمر باحضاره ، فأحضر ، فقلده كتابته ودواوينه ، وتذكر عبد الملــك أصحابه فأحضرهم ، وقلدهـــم الاعمال فاثروا ، وحسنت احوالهم ، وكانوا آذ ذاك يعرفون بأصحاب التينة .

وهو الذي أمره أبو جعفر ، وقد انشد ابو دلامة ابياته التي يقول فيها :

هبت تعاتبني من بعد رقدتهـــا ... ام الدلامـــة لما هاجها الجـــزع
قالت تبغ لنا نخـــلا ومزدرعـــا ... كما لجيراننـــا نخل ومـــزدرع
خادع خليفتنـــا عنها بمســـألة ... ان الخليفة للســـؤال ينخـــدع

أن يقطعه خمس مئة جريب (1) عامرة ، وخمس مئة جريب غامرة ، فقال : أبو دلامة : أما العامر فقد عرفته ، فما الغامر ؟ فقال : الذي لا يدركه الماء ولا يسقى الا بالمؤونة والكلفة ، فقال أبو دلامة : فاشهد يا أمير المؤمنين ومن حضر ، اني قد اقطعت عبد الملك بن حميد بادية بني اسد كلها . فضحك المنصور ، وقال : اجعلهـــا يا عبد الملك عامرة كلها ، فقال ابو دلامة لابـــي جعفر : اتاذن لي في تقبيل يدك ، فلم يفعل ومنعه ، فقال : ما منعني شيئا

---

(1) الجريب من الارض : مقدار معين ، يرجع انه يساوي الفين وأربعمائة بمتر مربع .

هو أقل على عيالي ضررا من هذا .

وكانت لعبد الملك بن حميد منزلة من أبي جعفر خاصية عنده ، وكان عبد الملك ربما تثاقل عنه وتعلل عليه ، فاستثقل المنصور ذلك منه مع استصلاحه له ، وسكونه اليه ، وأمره باتخاذ من ينوب عنه اذا غاب عن حضرته ، فاتخذ أبا أيوب المورياني ، وهو فتى حدث ، من قرية من قرى الاهواز ، يقال لها : الموريان ، واسمه سليمان بن مخلد ، ويكنى مخلد : أبا سليمان ، وكان ظريفا خفيفا على القلب ، متأتيا لما يريده منه ابو جعفر ، وقد كان اخذ من كل شيء طرفا ، وكان يقول : ليس من شيء الا وقد نظرت فيه الا الفقه ، فلم أنظر فيه قط ، وقد نظرت في الكيمياء والطب والنجوم والحساب والسحر ، وكانت له بأبي جعفر حرمة رعاها له . فخف على قلبه . واعتل عبد الملك من نقرس كان به فلزم منزله ، فلم يزل أمر ابي ايوب يعلو ، ومحله من راي ابي جعفر يزيد حتى قلده وزارته ، وفوض اليه امره كله : وكان له أخ يقال له : خالد ، وابنا اخ يقال لهما : مخلد ومسعود ، وكانا ظريفين جميلين ، فنالا من الدنيا ونعيمها حظا جسيما . وقلد المنصور أبا أيوب الدواوين مع الوزارة ، وغلب عليه غلبة شديدة ، وصرف اهله جميعا في الاعمال ، حتى قالت العامة : انه قد سحر أبا جعفر ، واتخذ دهنا يمسحه على وجهه اذا اراد الدخول عليه ، وضربت المثل بدهن ابي ايوب .

وبلغ من خصيصاء ابي أيوب بأبي جعفر ان ام سليمان الطلحية اتخذت لابي جعفر مجلسا في الصيف ، وجعلت فيه الرياحين والثلج وسائر الطيب . فلما صار اليها اعجب ببرده وحسنه ، ثم قال لها : ما أنتفع بما انا فيه ! قالت : ولم يا امير المؤمنين ؟ قال : انه ليس معي ابو أيوب فيحدثني ويؤنسني قالت : يا أمير المؤمنين ، انما هيأته لسرورك فتبعث اليه ، فبعث اليه فحضر ، فقال له : يا أبا أيوب ، كما رايت طيب هذا الموضوع ولذته ، لم أنتفع به حتى تكون معي فيه ، فدعا له واقام معه .

والذي كان بين ابي ايوب وبين ابي جعفر حتى رعاه له ، ولما استخلفه عبد الملك بن حميد غلب عليه ، انه لما غلب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، في أيام مروان ، على أصبهان ، وبعض فارس وبعض الاهواز ، وفد اليه الهاشميون اجمعون من بني علي ، رضوان الله عليه ، ومن بني العباس وغيرهما ، فاستعان بهم في أعماله ، وقلد أبا جعفر المنصور كورية ايذج (١) . فأخذ ابو جعفر المال وحمله بسفاتج على يدي عبد الرحمن ابن عمر الى البصرة ، ولم يحمل الى ابن معاوية شيئا ، ثم

---

(١) أيذج : بين خوزستان وأصبهان .

صار أبو جعفر الى الاهواز قاصدا البصرة ، وكان سليمان بن حبيب بن المهلب عليها من قبل مروان ، قد وضع الارصاد على كل من يمر من عمال ابن معاوية ، فمر برصده أبو جعفر ، فأخذ وأتى به سليمان بن حبيب ، وكان أبو ايوب المورياني يكتب له ، فقال لما دخل عليه : هات المال الذي اختنته ، فقال : لا مال عندي ، فدعا له بالسياط ، فقال أبو أيوب : ايها الامير ، توقف عن ضربه ، فان الخلافة ان بقيت في بني امية فلن يسوغ لك ضرب رجل من بني عبد مناف ، وان صار الملك الى بني هاشم لم تكن لك بلاد الاسلام بلادا، فلم يقبل منه ، وضرب ابا جعفر اثنين وأربعين سوطا . فلما اتصل ضربه اياه قام اليه ابو ايوب ، فألقى نفسه عليه ، ولم يزل يسأله حتى امسك عن ضربه ، وامر بحبسه . فتحركت المضرية لضرب أبي جعفر وحبسه ، وتجمعوا وصاروا الى الحبس فكسروه ، واطلقوا ابا جعفر . وخرج ابو جعفر حتى قدم البصرة ، ورعى لابي أيوب ما كان منه ، وكان يتذكره ويشكره ، ولم يزل ابو ايوب بالاهواز الى ان ظهر امر بني العباس .

وكان يكتب لسليمان بن حبيب في أيام مروان على الخراج ماجسبس ابن بهرام بن مردانشاه بن زاذان فروخ الاعور ، كاتب عبد الله بن زياد وكان زاذان فروخ من أحفظ رجل ، وكان غالبا على عبد الله بن زياد . وذكر آل زياد أن الحريق وقع في الديوان بالبصرة فاحترق بأسره ، وبالبصرة يومئذ من المقاتلة والذرية ثمانون الفا ، فكتبهم زاذان فروخ عن ظهر قلب جميعا ، لم يغلط ، بأحد الا بامراة من بني سليم ، انسي اسمها .

وكان أبو جعفر لما صرف خالد بن برمك عن الديوان ، وقلده ابا ايوب تلد خالد فارس ، فأقام بها خالد سنين ، وابو أيوب يسعى عليه ، ويحض ابا جعفر على مكروهه ، ويسعى به ليسقطه من عينه ، لانه كان يعرف ما فيه من الفضل ويتخوفه على محله ، وأن يرده أبو جعفر الى الديوان الذي كان يتقلده . فلما كثر ذلك على أبي جعفر ، صرف خالدا عن فارس ونكبه، والزمه ثلاثة آلاف الف درهم ، ولم يكن عنده الا سبع مئة الف درهم ، فصدقه عن ذلك ، فلم يصدقه وأمر بمطالبته بالمال ، فأسعفه صالح صاحب المصلى بخمسين الف دينار ، واسعفه مبارك التركي بألف الف درهم ، ووجهت الخيزران بجوهر قيمته الف الف درهم ومئتا الف درهم ، رعاية للرضاع بين الفضل ابنه وبين هارون ابنها . واتصل ذلك بأبي جعفر فتحقق عنده قوله انه لا يملك الا ما حكى ، فصفح له عن المال ، فشق ذلك على أبي ايوب ، واحضر بعض الجهابذة ودفع اليه مالا ، وأمره ان يعترف انه لخالد ، ودس الى ابي جعفر من سعى بالمال ، فأحضر الجهبذ ، فسأل عن المال فاعترف به ، فأحضر خالدا فسأله عن ذلك ، فحلف بالله انه لم يجمع مالا

فعل ، ولا ذخره ولا يعرف هذا الجهبذ ، ودعا الى كشف الحال ، فتركه أبو جعفر بحضرته ، واحضر النصراني ، فقال له : اتعرف خالدا ان رايته ؟ قال : نعم يا امير المؤمنين ، اعرفه ان رايته ، فالتفت الى خالد وقال : قد اظهر الله براءتك . وهذا مال اصبناه بسببك ، ثم قال للنصراني : هذا الجالس خالد ، فكيف لم تعرفه ؟ قال : الامان يا أمير المؤمنين ، واخبره الخبر ، فكان لا يقبل من ابي ايوب بعد ذلك شيئا في خالد .

ولما بنى بعد ذلك ابو جعفر مدينة السلام قسمها أرباعا ، فجعل الربع الاول منها الى ابي أيوب وزيره ، والربع الثاني الى عبد الملك ابن حميد كاتبه ، ولعبد الملك تطيعة وربض يعرف بعبد الملك بن حميد في الجانب الغربي ، والربعين الاخرين الى الربيع ، والى سليمان بن مجالد ، ونقل اليها الخزائن والدواوين وبيوت الاموال في سنة ست واربعين ومئة .

مقتل محمد بن الوليد : وكان لابي أيوب كاتب يقال له محمد بن الوليد ، مولى لهشام بن عبد الملك ، أو لمروان بن محمد ، وكان خاصا به غالبا عليه ، وكان أبو جعفر ولى طريفا مولاه ، بريد مصر والشام والجزيرة ، وكان محمد بن الوليد شرها حريصا على أخذ الرشى ، فكتب الى طريف على لسان أبي ايوب بحمل مئة ألف دينار اليه ، فحملها ولم يعلم أبو ايوب بها ، وكان لابي جعفر مولى يقال له مطر ، كان أبو ايوب ابتاعه من حميد الصيرفي، واهداه اليه ، فاعتقه ابو جعفر ، فكان ابو ايوب يعتني به ، فأشار على ابي جعفر بصرف طريف وتقليد مطر ، ففعل ذلك ، وامره بمحاسبة طريف ، فحاسبه وضيق عليه . فاحفظه ذلك على ابي أيوب من جهة ما قد كان حمله ، وعنده انه قد وصل الى ابي ايوب ، ومن عنايته بمطر ، فلما صار الى ابي جعفر أخرج الكتاب الذي كان كتبه اليه محمد بن الوليد عن أبي ايوب ، فدفعه اليه ، فلما وقف عليه دفعه الى ابي ايوب ، فقال له : هذا خط كاتبي وخاتمي ، ولا علم لي بشيء من امره ، فقال له ابو جعفر : هذا اشد الامرين، أن تكون مئة الف دينار تؤخذ ولا يعلم علمها ، ثم خرج من حضرته ، ودعا محمد بن الوليد فسأله ، فقال : نعم ، هذا كتابي ، وأنت أمرتني به ، وكابره وبهته ، وكره ابو ايوب مراجعته لئلا يسعى به ، فوكل به وحبسه ، وحظر عليه ان يصل اليه احد ينقل عنه او ينقل اليه شيئا ، لئلا يسعى به . وكان ابو جعفر خارجا الى قرميسين ، فلما خرج عن الكوفة ونزل حمام عمر ، قال له أبو أيوب : ان كاتبي هذا قد جنى هذه الجناية ، وهو مولى لبني امية، ولست أثق به ، وقد أقدم على ما اقدم عليه ، فقال له : اقتل ابن الخبيثة ،

فدعا له أبو أيوب بالمسور البربري ؛ فقال له : انطلق فاقتل محمد بن الوليد. فلما قدم المسور ودعا بمحمد ، قال : يا مسور ، خذ هذا القرطاس فاعطه أمير المؤمنين ، فانه ان وقف عليه تلدك مكان ابي ايوب ، فقال له : يابن الخبيثة ، أتأمرني ان ارفع على أبي ايوب ! فاخذ القرطاس منه ، وضرب عنقه ، وصار بالقرطاس الى ابي أيوب ؛ فوجد فيه كل عظيمة من أمره ، فتتبع اموال محمد بن الوليد ، حتى أدى منها الى ابي جعفر مئة الالف الدينار، ووقر ذلك عليه في نفس أبي جعفر .

حبيب بن رغبان وأبو أيوب وعبد الله بن علي : وكان حبيب بن عبدالله بن رغبان مولى حبيب بن سلمة الفهري ؛ يتقلد الاعطاء لابي جعفر ، واليه ينسب مسجد ابن رغبان بمدينة السلام . ومن ولده الشاعر المعروف بديك الجن ، وله اشعار مختارة ، ومن جيدها قصيدته في ابراهيم بن مدبر الكاتب ، وهي التي يقول فيها :

ما المطايا الا المنايا وما فرق شيء تفريقها الاحبابا

ودخل على أبي جعفر حبيب بن عبد الله بن رغبان الكاتب يوما في شهر رمضان ؛ فقال له : أتعطش يابن رغبان ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : ما سحورك ؟ قال : فرخ ، او دجاجة ، او لحم بارد من طبيخ أو او شواء ، قال : هذا الذي يعطشك ، تسحر بما يتسحر به أمير المؤمنين ، انظر الى كمكات من هذا الكعك الشامي ، فاجعله في قدح ، واغمره بالماء من اول الليل ، فاذا كان في السحر تجده قد مات ، فاشربه ، فانه طعام يعصم ، وشراب يروي .

قال أبو العباس ثعلب حدثني محمد بن سلام الجمجي قال حدثنا خلاد بن يزيد قال :

كنا يوما جلوسا عند ابي أيوب في مجلسه ؛ فأتاه رسول ابي جعفر . فامتقع لونه وتغير ، ومضى اليه ثم رجع ؛ فقال له بعض أصحابه في ذلك ، فقال : سأضرب لكم مثلا تقوله العامة ، وهو ان البازي قال للديك ، ما شيء اقل وفاء منك ، لان اهلك أخذوك في بيضة فحضنوك ، وخرجت على أيديهم ، فأطعموك في اكفهم ، ونشأت بينهم ، حتى اذا كبرت جعلت لا يدنو واحد منهم منك الا طرت يمنة ويسرة ، وصحت وصوت ، وانا أخذت من الجبال كبيرا ، فعلموني ، ثم يخلون عني ، فآخذ صيدي وأجيء الى صاحبي ، فقال له الديك : لو رايت في سفافيدهم من البزاة مثل الذي رايت فيها من الديكة كنت شرا مني ! ولكنكم لو كنتم تعلمون ما اعلمه لم تتعجبوا من خوفي مع ما ترون من تمكني .

ولما خالف عبد الله بن علي على أبي جعفر ، وادعى الخلافة لنفسه، انفذ

أبو جعفر أبا مسلم لقتاله ، فتلقاه عبد الصمد بن علي بالموصل ، فكان أول قتيل قتل بينهما أبو غالب ، كاتب عبد الله بن علي ، فاستدل بذلك من جهة الفال على انحلال أمره .

فلما هرب عبدالله منهزما من ابي مسلم ، وقصد اخويه سليمان وعيسى وهما بالبصرة ، دخلها مستترا . وكاتب سليمان وعيسى أبا جعفر في ان يؤمنه ، فانفذ سليمان كاتبه عمر بن أبي حليمة في ذلك ، واستقر الامر على اعطائه الامان . فأنفذ أبو جعفر سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، وامره بضغطهم والتضييق عليهم ، حتى يشخصوا بعبد الله بن علي الى حضرته .

ابن المقفع في عهد المنصور : وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن علي ، فأمره عيسى بعمل نسخة للامان لعبد الله ، فعملها ووكدها أوثقها واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيها ، وترددت بين أبي جعفر وبينهم في النسخة كتب الى أن استقرت على ما ارادوا من الاحتياط ، ولم يتهيأ لابي جعفر ايقاع حيلة فيها لفرط احتياط ابن المقفع . وكان الذي شق على ابي جعفر أن قال في النسخة : يوقع بخطه في أسفل الامان : « وان أنا نلت عبد الله بن علي ، أو احدا ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو اوصلت الى احد منهم ضررا سرا او علانية ، على الوجوه والاسباب كلها ، تصريحا او كناية أو بحيلة من الحيل ، فانا نفي من محمد بن علي بن عبد الله ومولود لغير رشدة ، وقد حل لجميع امة محمد خلعي وحربي والبراءة مني ، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ، ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي ، واعانة من ناواني من جميع الخلق ، ولا موالاة بيني وبين احد من المسلمين ، وهو متبرىء من الحول والقوة ، ومدع ، ان كان ، انه كافر بجميع الاديان ، ولقى ربه على غير دين ولا شريعة ، محرم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرق والملك والملبس على الوجوه والاسباب كلها ، وكتبت بخطي ، ولا نية لي سواه ، ولا يقبل الله مني الا اياه ، والوفاء به » . فقال أبو جعفر : اذا وقعت عيني عليه ، فهذا الامان له صحيح : لاني لا آمن ان اعطيه اياه قبل رؤيتي له ، فيسير في البلاد ، ويسعى علي بالفساد ، وتهيأت له الحيلة عليه من هذه الجهة ، فقال : من يكتب له هذا الامان ؟ فقيل : ابن المقفع ، كاتب عيسى بن علي ، فقال أبو جعفر : فما احد يكفينيه ؟

وكان سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب يضطغن على ابن المقفع اشياء كثيرة ، منها : انه كان يهزأ به ، ويسأله عن الشيء بعد الشيء ، فاذا اجاب قال له : اخطات ، ويضحك . فلما كثر ذلك على سفيان غضب فافترى عليه ، فقال له ابن المقفع : يا بن المغتلمة : والله ما اكتفت امك برجال اهل العراق حتى تعدتهم الى أهل الشام . وكانت ام سفيان ابن معاوية

ميسون بنت المغيرة بن المهلب ، وكان تزوجها القاسم من عبد الرحمن بن عضاه الاشعري .

ومنها : أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز كان استعمل سفيان ابن معاوية على نيسابور ، وكان عليها قبله المسيح بن الحواري ، وكان ابن المقفع يكتب للمسيح ، ولما قرب سفيان من المسيح ارسل اليه المسيح : ان شئت أعطيتك خمس مئة الف درهم ، وتنصرف عني ، وان شئت أعطني خمس مئة الف أخليك والعمل ، فقال سفيان : لا اعطيك شيئا ، ولا أقبل منك شيئا ، فسفر بينهما ابن المقفع ، واحتال على سفيان ، ودافعه وعلله حتى استعد المسيح ، وكاتب الاكراد وجميع أطرافه ، وقوي أمره ، فلما استظهر امتنع على سفيان ، وقال له : انصرف فليس لك عندي شيء . فأبى سفيان أن ينصرف واقتتلا ، فضرب سفيان المسيح ، فأطار عمامته ، ولم يصل السيف اليه ، وضرب المسيح سفيان فكسر ترقوته ، وانهزم الى دورق ، فحقد ذلك أيضا على ابن المقفع :

فلما قا ل أبو جعفر ما قال ، كتب به أبو الخصيب الى سفيان ، فعمل على قتله اذا أمكنه ذلك .

فقال عيسى بن علي يوما لابن المقفع : صر الى سفيان فقل له كذا وكذا ، فقال له : وجه معي ابراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي ، فاني لا آمن سفيان ، فقال : كلا ، انطلق اليه ولا تخف ، فانه لم يكن ليعرض لك وهو يعلم مكانك مني . فقال ابن المقفع لابراهيم ابن جبلة : انطلق بنا الى سفيان نبلغه رسالة الامير ، ونسلم عليه ، فاني لم آته منذ قدمنا ، واخاف ان يظن بي موجدة وعداوة . فمضيا ، فجلسا على باب الديوان ، وجاء عمر بن جميل فجلس اليهما ، فخرج غلام لسفيان ، فنظر اليهم ، ثم رجع ثم عاد ، فسار عمر بن جميل ، وقال له : يقول لك الامير : ادخل الديوان فاجلس فيه ، فاذا انتصف النهار فمر بي ، فقام فدخل الديوان ، وجاء الآذن فأذن لابراهيم بن جبلة فدخل ، ثم خرج فأذن لابن المقفع ، فلما دخل عدل به الى مقصورة اخرى فيها شيرورية الملاديسي ، وعتاب المحمدي ، فأخذاه فشداه كتافا ، فقال ابراهيم لسفيان : ايذن لابن المقفع ، فقال للآذن : ايذن له . فخرج الآذن ثم رجع فقال : قد انصرف ، فقال سفيان لابراهيم ، هو أعظم كبرا من أن يقيم وقد أذنت لك قبله ، ما اشك في انه قد غضب ، ثم قام سفيان وقال لابراهيم : لا تبرح ، ودخل المقصورة التي فيها ابن المقفع ، فقال له لما رآه ابن المقفع : وقعت والله ! فقال : انشدك الله ، فقال : امي مغتلمة كما ذكرت ، ان لم اقتلك قتلة لم يقتل بها احد قط ، وأمر بتنور فسجر ، ثم أمرهما فقطعا منه عضوا ، ثم ألقاه في التنور وهو يراه ، فلم يزل يقطعه عضوا

فعضوا ويلقيه في التنور وهو يراه ، الى ان قطعه اعضاء ، ثم أحرقه وهو يقول: والله يابن الزنديقة لأحرقنك بنار الدنيا قبلنار الآخرة، فلما فرغمنهرجع الى ابراهيم ، فحدثه ساعة ، ثم خرج ابراهيم ، فقال له غلام ابن المقفع : ما فعل مولاي ؟ قال ما رايته : قال : بلى قد دخل بعدك ، فقال : ما رايته ، ورام الرجوع الى سفيان فحجب ، وانصرف وانصرف معه غلام ابن المقفع ، وهو يصيح ويبكي ويقول : قتل سفيان مولاي !.

فدخل ابراهيم على عيسى بن علي ، ومعه غلام ابن المقفع يبكي ، فقال عيسى لابراهيم : ما هذا ؟ فخبره الخبر على جهته ؟ فقال له عيسى : ارجع فقل له : خل عن ابن المقفع ان لم تكن قتلته ، وان كنت قتلته فوالله لاطلبنك بدمه ، ولا أدع جهدا . فصار الى سفيان ، وابلغه ما قال عيسى ، فقال : ما رايته ، ودعا بعمر بن جميل من الديوان ، فقال عمر : فدخلت عليه وهو متغير على خلاف ما كنت أعرف من انبساطه ، فقال لي : الا تعجب من ابن عمك ، يأتيني برسالة عيسى بكذا وكذا : فقلت : لا ذنب له فيما قال ، انما أرسل برسالة فأداها ، فقال لي : صدقت ، فما الرأي عندك ؟ قال : فقلت : ليس لمكذوب راي . ولا ادري ما اشير به عليك ، الا أن تصدقني ، ان كنت تقدر على ابن المقفع فلي راي ، وان كنت لا تقدر عليه فلي راي آخر ، فقال : فانه لا يرى ابدا ، فقلت في نفسي : احمق بك ! لم تستطع أن تغيب علي ، فتقول : اشر علي بالامرين جميعا ، ان قدر عليه ، وان لم يقدر عليه ! ثم قلت له : ان عيسى لا يقدر لك على مضرة ها هنا ، لانك الوالي ، ولكنه سيكلم أمير المؤمنين بالكوفة ، وليس احد أخوف عليك من أبي ايوب سليمان بن ابي سليمان الكاتب ، فانه ان عاونه ضرك ، وان كف عنك رجوت أن لا ينال عيسى منك ما يريد ، فاكتب الى أبي موسى بن أبي الزرقاء تعلمه ان عيسى ابن علي اتهمك من امر ابن المقفع بما لا علم لك به ، وتسأله ان يدفع عند امير المؤمنين ، واكتب أنا ايضا اليه ، فقال : نعم ما رايت ، وامر قوما فنادوا في الطرق : ان سفيان بن معاوية قتل ابن المقفع . ووجه بنو علي الى المنجاب بن ابي عيينة ليرتهنوه بابن المقفع ، فمنعه سفيان من اتيانهم ، فصاروا الى المنصور ، فكلمه عيسى في ابن المقفع ، وقال : قتله سفيان بن معاوية . فانفذ المنصور أبا الخصيب ، وقال له : ائتني بسفيان أو بابن المقفع ، وكتب اليه : يابن أبي سفيان ، قد وجهت اليك بأبي الخصيب بن روقاء ، فان كان ابن المقفع حيا فادفعه اليه ، وانت على عملك، وان لم تدفعه اليه فقد أمرته بعزلك وبحملك ، فقال سفيان : ما اقدر عليه . فقيده ابو الخصيب وحمله . وخرج مع سفيان رجال من اهل بيته ، فأشار عليهم رجل أن يلقوا أبا ايوب ، فيكلموه كلاما خشنا ، يرهب معه منهم ،

ويتخوف ناحيتهم ، وان لا يسرفوا عليه فيحفظوه ، ولا يضعفوا في مخاطبته فيطمعوه ، ففعلوا ذلك ، وقال له سفيان : أنا أعلم اني ان سلمت فيك أسلم، وان عطبت فوالله اني واهل بيتي نعلم اني بك عطبت ، وبرأيك اقتل ، فارتاع ابو ايوب وقال : انا ! قال : نعم ، لانك تقدر على أن تدفع عني ، فقال : لست ادع القيام بأمرك ، وقد ألقى الي موسى بن ابي الزرقاء طرفا من عذرك ، وكسر ذلك ابا أيوب عن نصرة عيسى ، وعيث من أمر سفيان ، ودفع عنه ، وامسك عيسى عن الكلام في أمر ابن المقفع ، وأطلق ابو جعفر سفيان ، وعاد رأيه له .

وكان حماد عجرد مولى لبني أسد بن عامر ، وكان نبيلا شاعرا من كتاب الرسائل ، وقد كتب ليحيى بن محمد بن صول بالموصل ، ثم لعقبة ابن سلم بالبحرين ، وكان صديقا لابن المقفع ، فذكر حماد ان الذي قتل ابن المقفع : أن ابا جعفر قال يوما لابي ايوب ، وقد انكر عليه شيئا : كأنك تحسب أني لا اعرف موضع اكتب الخلق ، وهو ابن المقفع مولاي . فلم يزل ابو ايوب خائفا له ، يسعى ويدب في أمره حتى قتله .

وكان ابن المقفع من أهل جور ، من فارس ، وكان سريا سخيا ، يطعم الطعام ، ويتسع على كل من احتاج اليه . وكان يكتب لدواوين عمر ابن هبيرة على كرمان ، فأفاد معه مالا ، وكان يجري على جماعة من وجوه اهل البصرة والكوفة ما بين الخمس مئة الى الالفين في كل شهر .

وكانت بين ابن المقفع وبين عمارة بن حمزة مودة ، فأنكر ابو جعفر على عمارة في وقت من الاوقات شيئا ، ونقله الى الكوفة ، وكان ابن المقفع اذ ذاك بها ، فكان يأتيه فيزوره ، فبينا هو ذات يوم عنده ، ورد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة ، يعلمه أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع ، وأن ضيعته لا تصلح ان ملكها غيره ، وأن أهلها قد بذلوا له ثلاثين الف درهم ، وانه ان لم يبتعها فالوجه ان يبيع ضيعته ، فقرأ عمارة الكتاب وقال ما أعجب هذا ! وكيلنا يشير علينا بالابتياع ، مع الاضافة والاملاق ، ونحن الى البيع أحوج ! وكتب الى وكيله ببيع ضيعته والانصراف اليه ، وسمع ابن المقفع الكلام ، وانصرف الى منزله ، وأخذ سفتجة الى الوكيل بثلاثين الف درهم ، وكتب اليه على لسان عمارة : اني قد كنت كتبت اليك ببيع ضيعتي ، ثم حضرني مال ، وقد أنفذت اليك سفتجة ، فابتع الضيعة المجاورة ، ولا تبع ضيعتي ، واقم بمكانك ، وانفذ الكتاب بالابتياع الي ، ووجه الكتاب اليه مع رسول قاصد ، فورد على الوكيل وقد باع الضيعة ، ففسخ البيع ، وابتاع الضيعة المجاورة ، وكتب الى عمارة يذكر الامر ، وانه قد صارت لك ضيعة نفيسة . فلما قرأ عمارة الكتاب اكثر التعجب ، ولم يعرف السبب ، وسأل عمن حضر

عند ورود كتاب الوكيل ، فقيل له : ابن المقفع ، فعلم انه من فعله ، فلمـا صار اليه بعد ايام وتحدثنا ، قال عمارة : بعثت بتلك الثلاثين ألف درهم الى الوكيل ، وكنا اليها ها هنا احوج ، قال : فان عندنا فضلا ، وبعث اليـه بثلاثين الفا اخرى .

وحكي أن سفيان لما امر بتقطيع أبن المقفع وطرحه في التنور ، قـال له : والله انك لتقتلني ، فتقتل بقتلي ألف نفس ، ولو قتل مئة مثلك ما وفوا بواحد ، ثم قال :

اذا ما مات مثلـي مات شخص　　　يمـوت بموتـه خلـق كثـير
وأنت تموت وحدك ليس يدري　　　بموتك لا الصغير ولا الكبيـر

وكان غسان بن عبد الحميد ، كاتب سليمان بن علي ، يقول لخادمه : اذا قلت لك خوض لنا سويقا فخثره ، فان الرجل لا يستحيي أن يزداد مـاء يرقته به ، ويستحيي ان يزداد سويقا يخثره به .

أبو مسلم والمنصور : ولما اقبل أبو مسلم من الدسكرة يريد المدائن ، وعمل ابو جعفر على قتله ، دعا أبا أيوب بالمورياني ، فقال له : يا سليمان ، شاور سلم بن قتيبة في امره ، فشاوره ، فقال سلم : ارى ان يتجـاوز له ويصفح عن ذنبه . فأخبر ابو ايوب ابا جعفر بذلك ، فقال له أبو جعفـر : عاوده واعلمه اني امرتك ان تشاوره ، فعاوده فأعلمه ذلك ، فقال له سلم : قل له : لا يصلح سيفان في غمد ، ثم تلا : « لو كـان فيهما الهـة الا الله لفسدتا » .

وكان فيما خاطب به أبو مسلم أبا جعفر في كتاب كتبه اليه قبل أن يجمع الرجوع : انا كنا نروي عن ملوك آل ساسان : ان اخوف ما يكون الوزراء ما سكنت الدهماء ، فأنا نافر من قربك ، حريص على الوفاء بعهدك ، حري بالسمع والطاعة لك ، غير انها من بعيد ، حيث تقارنها السلامة . في كـلام طـويل .

قال ابو ايوب :

ولما قرب أبو مسلم من المدائن ، دخلت على ابي جعفر بين العصـر والمغرب ، وهو في خباء شعر ، على مصلى ، وبين يديه كتاب من أبي مسلم ، فلما رآني رمى بالكتاب الي ، فقال لي : اقراه يا سليمان ، فقراته ، ثم قال لي : والله لئن ملأت عيني منه لاقتلنه ، فقلت في نفسي : انا لله وانا اليـه راجعون ، طلبت الكتابة ، حتى اذا بلغت غايتها ، وصرت كاتبا للخليفة ، وقع بين الناس هذا التخليط ، والله ما ارانا نسلم ، وما احسب اصحـاب أبي مسلم يرضون أن قتل ان يدعوا هذا على الارض ، ولا احدا من اسبابه، ثم انصرفت متفكرا ، وامتنع علي النوم ليلتي تلك ، ثم خطر ببالي ان الرجل

ان تدم آمنا كان أسهل لما يراد منه أن قدم نافرا مستوحشا ، فأحضرت سلمة بن سعيد بن جابر ، ووعدته أن اوليه كسكر ، واطمعته في احسان كثير ، وامرته ان يأتي ابا مسلم ، ويعرفه ان أمير المؤمنين قد عزم على أن يوليه ما وراء بابه ، ويريح نفسه ويتودع ، وقلت له : تسأله أن يجعل امرك مما يسأل فيه اذا لقيه. فصار سلمة الى أبي مسلم فعرفه ذلك ، فظنه حقا وتمر في التحرر والتأهب ، واسترسل ، وورد فارا ، فكان من أمره ما كان.

ولما قتل المنصور ابا مسلم دخل عليه ابو الجهم بن عطية ، فلما راه مقتولا قال : انا لله وانا اليه راجعون لا فقال ابو أيوب : فخفت المنصور عليه ، فقلت له : مالك يا أبا الجهم ! أشرت بقتله حين خالف ، حتى اذا قتل قلت هذه المقالة ! قال : فنبهت رجلا عاقلا ، فتكلم بكلام أصلح ما جاء منه .

وكان يتقلد لابي جعفر بيت المال الفرج بن فضالة التنوخي ، وقد كان عمل لعبد الملك ، فسمعه رشيد الخادم يخطىء ابا جعفر في قتل ابي مسلم ، ومعاجلته اياه ، فنقل كلامه اليه ، فتغيظ عليه ودعا به ، فسأله عن ذلك ، فأقر به ؟ فقال له : كيف لم تخطىء صاحبك في قتله عمرو ابن سعيد معاجلا له ، فقال : لانه قتل عمرا في قصره بعد ن أحاطت به جدرانه ، واغلقت دونه ابوابه ، وحوله اثنا عشر الفا من عبيده ومواليه ، وقتلت انت أبا مسلم وانت في خرق من الارض ، وكل من حولك له ، ومنه ، واليه .

عبد الله بن مروان : وطلب ابو جعفر الربيع يوما فلم يجده ، فلما دخل عليه سأله عن خبره ، فقال : كنت عند سليمان الكاتب ، يعني ابا ايوب ، فقال : ومن رأيت عنده ؟ قال : عبد الله بن مروان بن محمد ، وقد طلب منه حاجة فقضاها ، وقام عبد الله فقبل راس سليمان وكان أبو جعفر متكئا ، فاستوى جالسا ، وقال : يا ربيع ، قبل عبد الله راس سليمان ؟ فقال : نعم، فقال : الحمد لله ! وخر ساجدا ، فأطال ، ثم قال لي : يا ربيع ، أتدري أي نعمة جدد الله عند امير المؤمنين في هذا الوقت ؟ قال : لا أعلم ، أسأل الله ن يجدد عنده النعم ، ويواليها ، ويزيد فيها ، وكشف عن ساقه ، فاذا فيها اثر بين ،ثم قال لي : اني بدمشق في أيام مروان اذ رأيت للناس حركة ، فقلت : ما هذا ؟ فقيل لي : عبد الله ابن أمير المؤمنين يركب ، وما ركب قبل ذلك ، وقد أمر الجند بالزينة ، وانجفل الناس للنظر ، فخرجت فيمن خرج ، فازدحم الناس على بعض الطرق زحمة شديدة ، وكانت دابتي صعبة ، فسقطت عنها ، وانكسرت ساقي ، وغشيني الناس ، فمكثت دهرا عليلا ، وها هو اليوم يقبل راس كاتبي ، فالحمد لله على نعمه ، وحسن ادالته !

سوار القاضي : وكان لسوار ، القاضي بالبصرة من قبل ابي جعفر ، كاتبان ، رزق أحدهما أربعون درهما ، ورزق الآخر عشرون درهما . فكتب

اليه سوار يسأله التسوية بينهما ؛ فنقص صاحب الاربعين عشرة دراهم ؛ وزادها صاحب العشرين ، وانما اراد سوار أن يلحق صاحب المشرين بصاحب الاربعين .

قصة للمنصور مع رجل ابتاع سمكة : وقعد المنصور يوما في الخضراء فبينا هو مشرف على الصراة نظر الى صياد قد القى شبكته ، فأخرج سمكة عظيمة ، فقال المنصور لبعض مواليه : اخرج الى المسيب ، فأمره ان يوكل بالصياد من يدور معه ، فاذا باع السمكة قبض على مشتريها ؛ وصار به الينا ، ففعل المسيب ذلك . فلقي الصياد رجل نصراني ؛ فابتاعها منه بثلاثين درهما ، فلما دفع اليه الثمن واخذ السمكة منه ، قبض عليه العون ؛ فأتى به المسيب ، فأدخله الى أبي جعفر ؛ فقال له : من أنت ؟ قال : رجل من اهل الذمة ؟ قال : بكم ابتعت هذه السمكة ؟ فقال : بثلاثين درهما ، قال : وكم عيالك ؟ قال : ليس لي عيال ، فقال : فانت باذنك تشتري مثل هذه السمكة بثلاثين درهما ! كم عندك من المال ؟ قال ما عندي شيء ، قال : يا مسيب ، خذه اليك ؛ فان اقر بجميع ما عنده ، والا فمثل به ، فأقر بعشرة آلاف درهم : فقال : كلا ، انها أكثر ، فأقر بثلاثين ألف درهم ؛ واحل دمه أن وقف على اكثر منها ، وقال له : من أين جمعت هذا المال ، فقال : وانا آمن يا امير المؤمنين ؟ فقال : انت آمن على نفسك ان صدقت ؛ قال : كنت جارا لابي ايوب سليمان بن أبي سليمان كاتبك ، فولاني جهبذة بعض نواحي الاهواز ، فأصبت هذا المال فقال المنصور : الله أكبر ! هذا مالنا أختنته وأمر المسيب بجمع المال الى بيت المال ، وأطلق الرجل .

ابو دلامة والمنصور : وكان ابو دلامة تأخر عن حضور باب ابي جعفر اياما ، ثم حضر ، فامر بالزامه القصر ، والا يبرح منه ، ويصلي فيه الاولى والعصر معه في مسجده ، ووكل به لذلك ، فمر به أبو ايوب المورياني ؛ وهو اذ ذاك وزير لابي جعفر ، فقام اليه أبو دلامة ، ودفع اليه رقعة مختومة ؛ وقال : هذه ظلامة الى أمير المؤمنين ، فتوصلها ، أعزك الله ، بخاتمها ؛ فأخذها ابو ايوب، فلما وصل الى أبي جعفر أوصلها اليه، فقراها ، فاذا فيها:

الم تريا هذا الامام الذي انا	بمسجده والقصر ، مالي وللقصر !
اصلي به الاولى مع العصر صاغرا	فويلي من الاولى وويلي من العصر
ويحبسني عن مجلس استلذه	اعلل فيه بالسماع وبالخمر
ووالله مالي نية في صلاتكم	ولا البر والاحسان والخير من امري
وما ضره ــ والله يصلح حاله ــ	لو أن خطايا العالمين على ظهري

فضحك المنصور ، وأمر باحضاره ، فلما حضر قال : هذه قصتك ؟ فقال قد رفعت الى أبي أيوب رقعة مختومة أشكر فيها أمير المؤمنين ، اذ اعانني

على لزوم المسجد الذي أمر الله بلزومه ؛ والذي كتبها ابني دلامة ، فقال أبو جعفر ؛ فاقراها ؛ قال ما احسن أن اقرا — وعلم انه انما اراد أن يقر بكتابه لها ، فيضر به الحد على ذكره شرب الخمر — فلما رآه يحيد ، قال له: يا خبيث ، اما لو اقررت لضربتك الحد ، وقد اعفيتك من لزوم المسجد ، فقال ابو دلامة : أوكنت ضاربي يا أمير المؤمنين لو اقررت ؟ قال : نعم ، فقال : مع قول الله عز وجل : « وانهم يقولون ما لا يفعلون » ، فضحك منه ، واعجبه انتزاعه ، ووصله .

ابو أيوب والمنصور : وورد على ابي جعفر من محمد بن عبد الله بن حسن كتاب غلظ له فيه ، فقال له ابو أيوب : دعني اجيبه عنه ، فقال له : يا سليمان ، ليس ذلك اليك ، اذا نحن تقارعنا عن الاحساب فدعني واياها .

وكان ابان بن صدقة يكتب لابي أيوب ، فسعى به الى ابي جعفر ، وكان السبب في ذلك انه كان على امر ابي ايوب كله ، فحسده مخلد ، ابن اخي ابي ايوب ، فرفع عليه سعاية الى ابي جعفر بمئة الف دينار ، فأمر المنصور بأخذه بها . فأدخل ابان بن صدقة بيتا ، وطين عليه بابه ، ثم ندم مخلد على ما فعله ، لامه عمه أبو أيوب لما وقف على ما كان منه ، فقال مخلد : انا أؤدي عنه عشرة آلاف دينار، وقال ابو ايوب : وانا أؤدي عنه كذا ، وقال مسعد : وانا أؤدي عنه كذا . فتوزعها المورياتيون بينهم ، واخرجوا ابانا من الحبس ، فخرج في نفسه ما فيها . فكان يأتي أبا ايوب فيقيم عنده نهاره كله ، فاذا كان الليل انصرف ومعه غلمان ابي أيوب ، فاذا انصرفوا وعلم أنهم قد وصلوا الى منازلهم ، خرج حتى يأتي الربيع ، فيسعى بأبي أيوب ، ويكتب له اخباره وامواله ، فيوصل الربيع ذلك الى المنصور ، فيقول المنصور : من أين هذا ؟ فيقول : من ابان بن صدقة . وبلغ أبا ايوب ، فقال لابان في ذلك ، فقال : كذبوك ، فقال له : قد جاءني اليقين انك تأتي الربيع كل ليلة ، فان كان مخلد رفع عليك ، فقد تخلصتك ، فلماذا تريد قتلي ؟ فقال : ان مخلدا اراد قتلي ، قال له ابو ايوب : فعلتها ، اخرج فلا تقربني ، فقال : أي والله ثم لا اعود اليك . وخرج حتى اتى الربيع ، وكشف أبا أيوب .

عمرو بن عبيد والمنصور : كان عمرو بن عبيد دخل على المنصور ، فوعظه موعظة طويلة مشهورة ، فبكى المنصور وتوجع واستغفر ربه ، وعرض على عمرو معونته ، فأبى وخرج من حضرته ، فلقيه ابو ايوب ، فقال له : يا ابا عثمان ، ظنك قد ردعت هذا الرجل ؟ فقال : نعم ، وقد حضضته على أهل الكوفة واهل البصرة ، فان استطعت أن تعين بخير فافعل ، وكفى بامة شرا ان تكون انت المدبر لامرها .

وقائع وأحداث : ولما ورد على أبي جعفر خبر خلع أهل افريقية ، اعتزم

على الشخوص الى قنسرين ليقيم فيها ، ويوجه الامداد منها ، فكتم تدبيره ، وأظهر انه يسافر الى ناحية لم يذكرها ، ولم يبينها ، وأمر أصحابه بالاستعداد ، ولم يعرفهم القصد ، فاجتمع ابو ايوب وعبد الملك والربيع . فتذاكروا ذلك ، ورجموا الظنون ، فلم يصيبوا شيئا ، ولم يقدموا على مسئلته ، فقال عبد الملك : فانا اعلم لكم ذلك ، فاذا أذن فتأخروا عني ساعة حتى أكلمه ، فلما اذن دخل عبد الملك ، فلما استقر به المجلس قال : يا امير المؤمنين ، قد تهيأنا للمسير ، وفرغنا من كل ما نحتاج اليه ، وبقي علينا ما نستأجر من الظهر ، وما ندري كيف نتكاراه ؟ ولا علام نواقف المؤاجرين لنا فيه ؟ فقال له أبو جعفر : يابن الخبيثة ، جلست الساعة وفلان وفلان ، فقلتم كذا ، وجرى بينكم كذا ، فقلت لهم كذا ، حتى رد عليه خبر المجلس ، حدسا منه وفطنة ، اخرج يابن الخبيثة ، فاكثر مياومة ، كل يوم بالف ، فأما ان اعلمك فلا ، ولا كرامة .

ورخصت الاسعار في أيام أبي جعفر ، فسولت لابي أيوب نفسه أن يشتري طعام سواد الكوفة وسواد البصرة ، وطمع في الربح . ففعل ذلك فكتب المنصور عليه كتابا بذلك ، وخلده الدواوين ، وكان يطالبه بالمال وقتا بعد وقت ، فتحمل منه الشيء بعد الشيء ، وتتابع الرخص عليه ، وارهقه المنصور بالمطالبة بالمال ، وكان المنصور يحب ابنا له ، يقال له : صالح ، ويرق عليه ، وكان أقطع أولاده جميعا قطائع خلاه ، وكان يقول : ابني هذا المسكين لا شيء له ! فلقب بصالح المسكين ، فقال له ابو ايوب : يا امير المؤمنين ، قد أصبت ضيعة تقرب من الاهواز ، وتشرب من دجلة ، وتغيض فيها ، وهي بلد واسع ، وقد دثرت رسومها ، وانطمست أنهارها ، فان أقطعته اياها ، واطلقت له ثلاث مئة الف درهم نستخرجها له ، فلا تلبث الا يسيرا حتى تغل جملة وافرة . فأقطع المنصور صالحا تلك الضيعة ، وأمر له بالمال ، فاخذه أبو أيوب ، فأدى صدرا من خسارته في الطعام ، وجاءت السنة ، فحمل أبو ايوب عشرين الف درهم الى ابي جعفر ، وقال : هذه غلة الضيعة ، فسر المنصور بذلك ، وامر ان يتخذ لصالح بيت مال .

حدثني عبد الواحد بن محمد قال حدثني أبو العيناء ، قال :

جاء رجل من أهل الاهواز الى ابي أيوب ، وهو وزير ، فقال له : ان ضيعتي بالاهواز قد حمل علي فيها العمال ، فان رأى الوزير ان يعيرني اسمه اجعله عليها ، واحمل اليه في كل سنة مئة الف درهم ؟ فقال : قد وهبت لك اسمي ، فافعل ما بدا لك ، وخرج الرجل . وحال الحول ، فاحضر الرجل المال ، ودخل على أبي أيوب وهو لا يعرفه ، فجلس الى ان خف الناس ، ثم دنا منه وقص عليه قصته ، وأعلمه انه قد انتفع باسمه ، وانه قد حمل المال ،

فأمر باحضاره ، فأدخل ، ووضع بين يديه ، ونهض الرجل شاكرا داعيا .
واندفع ابو ايوب يبكي ، فقال له أهله ومن حضر : ما رأينا موضع سرور وفرح عقب ببكاء وحزن غير هذا ! فقال لهم : ويحكم ! ان شيئا بلغ هذا من اقباله ، كيف يكون أدباره ؟ قال : فما بعد بين الوقت وبين نكبته .

ثم سعي الى ابي جعفر بالضيعة التي اتخذها لصالح ، وعرف أن ابا أيوب اخذ المال لنفسه ، وغره من هذه الناحية . فعزم أبو جعفر على الخروج بنفسه الى الناحية ليعاينها ، فلما تجهز للشخوص ، كتب ابو ايوب الى وكلائه ان يبنوا على دجلة في طريق الضيعة ، على طريق أبي جعفر ، قرى من اللبن والقصب ، وان يغرسوا نخلا وسدرا وكل ما تهيأ أن يحسن به ، ويرى ظاهره ، ليراها أبو جعفر عامرة الظاهر . فلما فعلوا ذلك وشخص ابو جعفر ، فرأى الموضع ، وقد كان أبو ايوب عند قربه منها ارسل من سكر دجيل الاهواز والمسرقان حتى فاضا على الضيعة فغرقاها ، ثم غاض الى دجلة ، فأرسل ابو جعفر من سكر الماء ، واعاده الى جهته ، واقام اربعين يوما ينتظر جفاف الارض ، ثم ركب حتى وقف على الضيعة ، وتبين كذب أبي ايوب ، وانصرف ولم يقل شيئا ، الى أن عاد الى بغداد ، فأوقع به .

وكان ابو جعفر مدة مقامه بالاهواز منتظرا لجفاف ارض الضيعة ، اشتهى سمكا طريا ، فقال له ابو ايوب : يا امير المؤمنين ، انت تعلم انى اهوازي سمكي ، ولنا عجائز يحسن صنعة السمك ، فان رأيت أن تأذن لي فأهيئه لك ، فأظهر أبو جعفر التقبل لذلك من قوله ، واذن له في اتخاذه ، فمضى لذلك . قال الربيع : فنهض أبو جعفر عن مجلسه ، ودعاني ، فقال لي : يا ربيع ، اصبب علي الماء حتى اغسل وجهي ، فبينا أنا اصب عليه ، اذا رسل أبي ايوب قد دخلوا عليه بشيء كثير من السلال ، فيها ضروب من خبز الماء والرقاق وخبز الارز ، وصنوف السمك ، قد اتخذ ضروبا من الصنعة الحارة والباردة ، فقلت له : انت يا امير المؤمنين تعلم اني غير مستبطيء لسليمان ، وانه مني لعلى صداقة ومودة ، ولكن امير المؤمنين آثر عندي من نفسي ، وقد علم سليمان ما يريده أمير المؤمنين به ، فهل يأمن امير المؤمنين أن يكون قد دس له في هذا الطعام شيئا ! فقال لي : بارك الله عليك يا ربيع ، واحسن جزاءك ، انه ما دخل راسي ما يأتي من عند سليمان من الالطاف شيء منذ كذا وكذا من الدهر ، فلا يسمعن منك هذا بعد ، ودعا بغير ذلك الطعام ، فأكل منه ، وانصرف الى بغداد ، واظهر السخط على أبي ايوب في سنة ثلاث وخمسين ومئة .

نكبة ابي ايوب : فحكى انه قال له : يا خوزي ، اكنت آمنا من ان يطلع أمير المؤمنين على خيانتك فيكون جزاؤك في العاجل اراقة دمك ،

واستباحة نعمتك ، وفي الآجل حلول دار الفاسقين ، ومأوى الظالمين الناكثين؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، ان فلتهم فلتات ترجع بالندم ، ولك من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل السياسة ، وشرف القرابة ، فاقلني ، قال : لا يسعني مع عظيم جرمك ، وجليل ذنبك ، اقالتك ، ولا العفو عنك ، لانك اقترفت الموبق ، وما لا يسع معه عفو ، وحبسه وحبس أخاه خالدا وبني أخيه ، وهم : مسعود وسعيد ومخلد ومحمد ، ولم يكن لمحمد حظ من أمرهم . فقال خالد لبنيه أما أنتم فقد أخذتم بحظ من الدنيا ، وهذا البائس لا ذنب له ، ولم يكن له حظ ، فقال له مخلد — وكان ينظر في النجوم — : لا بد ان نقتل كلنا ، فان كان محمد ابنك ، فلا تأمن من قتله ، وان لم يكن ابنك فليس عليه بأس ، ثم طولبوا بالاموال ، وعذبوا وضيق عليهم ، فطلب كل من كان لهم عنده شيء ، فأخذ ، وضغط أبو أيوب بالمطالبة بالمال ، فمات هو وأخوه في اول سنة اربع وخمسين ومئة ، وامر المنصور بقتل بني اخيه ، فقتلوا . فقال بعض الشعراء أبياتا ، منها :

فاتق الله وارض بالقصد حظا   وتباعد عن موبقات الذنوب
قد رايت الذي اذالت ونالت   وقعة الدهر من ابى ايوب

ومما يحكى ايضا انه عاد بالضرر على أبي أيوب ، ما ذكر ابو العيناء قال :

الناس يكثرون في سبب قتل ابي ايوب ، والذي عندنا أن المنصور لما كان مستترا بالاهواز نزل على بعض الدهاقين ، فاستتر عنده ، فأكرمه الدهقان بجميع ما يقدر عليه ، حتى أخدمه ابنته ، وكانت في غاية الجمال ، فقال له أبو جعفر : لست استحل استخدامها والخلوة بها وهي جارية حرة ، فزوجنيها ، فزوجه اياها ، فعلقت منه . واراد ابو جعفر الخروج الى البصرة فودعهم ، ودفع الى الجارية قميصه وخاتمه ، وقال : ان ولدت فاحتفظي بولدك ، فمتى سمعت انه قد قام في الناس رجل يقال له : عبد الله بن محمد ويكنى أبا جعفر ، فصيري اليه بولدك ، وبهذا القميص والخاتم ، فانه يعرف حقك ، ويحسن الصنع اليك ، وفارقهم . فولدت ابنا ، ونشأ الغلام وترعرع فكان يلعب مع اترابه وملك أبو جعفر ، فعير الغلام اترابه بأنه لا يعرف له أب ، فدخل الى امه حزينا كئيبا ، فسألته عن حاله ، فذكر لها ما قال اترابه ، فقالت : بلى ، والله ان لك أبا فوق الناس ! قال لها : ومن هو ؟ قالت : القائم بالملك ، قال : فهذا ابي وانا على هذه الحال ! هل من شيء يعرفني به ؟ فأخرجت القميص والخاتم . وشخص الفتى ، فصار الى الربيع ، فقال له : نصيحة ، قال : هاتها ، قال : لا اقولها الا لأمير المؤمنين ، فاعلم المنصور الخبر ، فأدخله اليه ، فقال : هات نصيحتك ؟ فقال : اخلني ، فنحي من

عنده ، وبقي الربيع ، فقال : هات ، قال لا ، الا ان يتنحى ، فنحاه ، وقال : هات ، قال : انا ابنك ، قال : ما علامة ذلك ؟ فأخرج القميص والخاتم فعرفهما المنصور ، وقال له : ما منعك ان تقول هذا ظاهرا ، قال : خفت ان تجحد ، فتكون سبة آخر الدهر . فضمه اليه وقبله ، وقال : انت الان ابني حقا ، ودعا المورياني ، فقال : يكون هذا عندك ، وما كنت تفعله بولدي لو كان لي عندك فافعله به . وتقدم الى الربيع في ان يسقط الاذن عنه ، وامره بالبكور اليه في كل يوم والرواح ، الى ان يظهر أمره ، فان له فيه تدبيرا . فضمه المورياني اليه ، واخلى له منزلا ، واوسع له من كل شيء ، فكان يغدو ويروح الى المنصور ، وخص به جدا . وكان الفتى في غاية من العقل والكمال ، وكان المنصور يخلو معه ، فيسأله المورياني عما يجري بينهما ، فلا يخبره ، فيقول له : ان امير المؤمنين لا يكتمني شيئا ، فيقول له : فما حاجتك الى ما عندي اذن فحسده المورياني ، واستوحش منه ، وثقل عليه مكانه ، فأطعمه سما فمات وصار الى المنصور ، فأعلمه انه مات فجاة ، ثم ولى ، فقال المنصور : قتلته ! قتلني الله ان لم اقتلك به ! فلم يلبث بعده ان فعل به ما فعل .

ولما غضب أبو جعفر على ابي ايوب وحبسه ، ذكر صالح ابن سليمان انه سيقتله وجميع أسبابه ، لانه سمعه يتحدث ان ملكا من الملوك كان يساير وزيرا ، فضربت دابة الوزير رجل الملك ، فغضب ، وأمر بقطع رجل الوزير ، فقطعت ، ثم ندم ، فأمر بمعالجته حتى برأ ، ثم قال الملك في نفسه : هذا لا يحبني أبدا ، وقد قطعت رجله ، فقتله ، ثم قال : واهل هذا الوزير لا يحبونني ابدا ، وقد قتلته ، فقتلهم جميعا . فعلمت انه سيفعل ذلك في المورياني ، ففعله ، وما عدا ظني .

وقائع ورجال : والضيعة التي أشار بها المورياني على أبي جعفر لصالح هي المعروفة بالسبيطية من أعمال البصرة ، وكان ابو جعفر تقدم الى بعض المهندسين بتصويرها له ، فصورها ، وعرض الصورة عليه ، فاستحسنها ، فقال له : سل حاجتك ، فقال : اني اجد في فمي علة ، وقد أضرت بأسناني ، وحاجتي ان يأذن أمير المؤمنين في تقبيل يده ، فلعل الله ان يهب لي العافية ، فقال له أبو جعفر : على أن ذاك ، ان اذنت لك ، فيه عوض من الجائزة ، فاما ان أجمعهما لك فلا ، فقال له : والله لو لم يبق في فمي حاكة وعلمت ان تقبيل يدك يرد جميعها ما آثرته على الجائزة ، فضحك منه ووصله .

وكان زياد بن عبيد الله الحارثي يتقلد لابي جعفر الحرمين ، ثم صرفه بمحمد بن خالد بن عبد الله القسري ، ثم صرف محمد بن خالد برياح بن

عثمان في سنة أربع وأربعين ومئة ، وكان رزام ، ويكنى أبا بشير ، مولى خالد بن عبد الله ، يكتب لمحمد بن خالد ، فحبس رياح محمد ابـن خالد ، وحبس رزاما كاتبه ، فكان يضرب رزاما في كل يوم خمسة عشر سوطا ، ويطالبه أن يسعى بصاحبه ، حتى صار جسمه كالقرحة ، فأحضره يومـا ليضربه ، فلم يجد فيه موضعا للضرب ، فضربه على كفه ، فلما بلغ به ما بلغ ، أحضر رزام كتابا يوهمه ان فيه رفائع على محمد بن خالد ، فجمـع رياح الناس ، فلما اجتمعوا قال لهم : أيها الناس ، ان الامير امرني ان أرفع علي محمد بن خالد ، وقد أحضرت كتابا كل ما فيه باطل ، وقد صدقت عما عندي ، فأمر بضربه مئة سوط وحبس . فلم يزل محبوسا حتى غلب على المدينة محمد بن عبد الله بن حسن ، فقتل رياح بن عثمان ، واطلق محمد ابن خالد ورزاما كاتبه .

ولما نكب ابو جعفر ابا ايوب في سنة ثلاث وخمسين ومئة ، قلد الخاتم الفضل بن سليمان الطوسي ، وقلد كتابة الرسائل والسر أبان ابن صدقة ، وقلد ضياعه صاعدا مولاه .

وفي صاعد ومطر موليي أبي جعفر يقول ابو الاسد الاعرابي :

وسائل عن حماري كيف حالهما ... سلني فعندي حقيقة الخبـر
لا خيـر في صاعـد فتطلبـه ... والخير يأتيـك من يدي مطـر
وأي خـير يأتيـك من رجـل ... ليس لانثـى يدعى ولا ذكـر
ليس له غـير نفسـه نسـب ... كأنـه آدم ابـو البشـر

وقلد ديوان خراج البصرة ونواحيها عمارة بن حمزة ، وقلد ديـوان خراج الكوفة وارضها عمرو بن كيلغ ، في سنة خمس وخمسين ومئة ، ثـم صرفه عنه وقلده ثابت بن موسى ، وحبس عمرو بن كيلغ . واستخلف ثابت محمد بن جميل ، لمصاهرة كانت بينه وبينه ، وأمره بالعرض على المنصور اذا لم يحضر ، فخف على قلب المنصور ، فأقامه معه مقام ثابت . وكان ثابـت يقول ، اذا مر به محمد بن جميل : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عـدوا وحزنا » . وكان محمد بن جميل في غاية الخرق والخفة .

وقلد الربيع مولاه نفقاته والعرض عليه ، وهو الربيع بن يونس ابـن محمد بن أبي فروة ، واسم أبي فروة كيسان ، مولى الحارث الحفار ، مولى عثمان بن عفان . وكان يونس بن محمد شاريا شاطرا بالمدينة ، فعلق امة لقوم بالمدينة ، فوقع عليها ، فجاءت بالربيع واستعبد ، ولم يكن ليـونس خال فيبتاعه ، فابتاعه زياد بن عبد الله الحارثي ، خال أبي العبـاس ، واهداه اليه ، فخدمه وخف على قلبه ، ثم خدم أبا جعفر بعده ، فخص به ، ولما عزم المنصور على تقليد الربيع العرض عليه قال : اجلس في بيتك حتى

يأتيك رسولي . فاغتنم ذلك ، فصار اليه الرسول بدراعة وطيلسان وشاشية فقال له : البس هذا واركب بهذا الزي ، فركب ، فأمر الفراش أن يطرح له مرفقه تحت البساط ، تقصيرا به عن منزلة المهدي وعيسى ابن علي ، لانه كان يطرح لهما مرفقتين ظاهرتين . فلما وصل اليه قال له : قد وليتك الوزارة والعرض ، ووليت ابنك الفضل الحجابة . فدخل عليه الربيع يوما والفضل يمشي خلفه ، فاخذ الربيع بيده وقال ، ان الحاجب لا يمشي خلف انسان ، فقال له المنصور ، بلى يا ربيع ، هذا معك انت وحدك .

وكانت ارزاق الكتاب والعمال في زمان أبي جعفر ، للرؤساء ثلاث مئة درهم للرجل ، ونحو ذلك ، وكذلك كانت في ايام بني امية ، وعلى ذلك جرت الى أيام المأمون ، فان الفضل بن سهل وسع الجاري .

ولما انفذ المنصور المهدي الى الري ضم اليه أبا عبيد الله معاوية ابن عبيد الله بن يسار ، مولى عبد الله بن عضاه الاشعري ، من أهل فلسطين . وكان عبيد الله بن يسار أبوه يكتب لصاحب المعونة بالاردن أيام بني امية ، فروى الزبير عن مبارك الطبري قال : سمعت المنصور يقول للمهدي حين أنفذه الى الري . يا أبا عبد الله ، لا تبرم أمرا حتى تفكر ، فان فكرة العاقل مرآة تريه حسنه وسيئه .

قـــــال :

وسمعته يقول له : يا أبا عبد الله ، ان الخليفة لا يصلحه الا التقوى ، والسلطان لا يصلحه الا العدل ، واولى الناس بالعفو اقدرهم على العقوبة ، وانقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه .

وقـــــال :

سمعته يقول : يا أبا عبد الله ، استدم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والطاعة بالتألف ، والنصر بالتواضع ، ولا تنس مع نصيبك من الدنيا نصيبك من رحمة الله .

وروى ان عيسى بن موسى لما اجاب المنصور الى ان يخلع نفسه من التقدم في ولاية العهد ، وأن يقدم المهدي على نفسه ، أمره أبو جعفر أن يخرج الى الناس ، فيخاطبهم بذلك . فخرج ومعه أبو عبيد الله كاتب المهدي ، فدخلا المقصورة في المسجد الجامع ، فقال عيسى : اني قد سلمت ولاية العهد للمهدي محمد بن امير المؤمنين ، وقدمته على نفسي ، فقال أبو عبيد الله : ليس هكذا أيها الامير ، ولكن قل لحقه وصدقه ، واخبر بما رغبت فيه واعطيت ، فقال : نعم ، قد بعت نصيبي من تقدمي في ولاية العهد من عبد الله امير المؤمنين ، لابنه محمد المهدي امير المؤمنين بعده بعشرة آلاف ألف درهم ، وألف ألف درهم لابني فلان وأبني فلان وأبني فلان

وفلانة ــ امرأة سماها من نسائه ــ بطيب نفس مني ، ورغبت في تصييرها اليه . لانه اولى بالتقدم فيها ، وأحق واقوم عليها ، واقوى على القيام بهـــا مني . وكان ذلك في سنة ست وأربعين ومئة .

قال : فكان بعض المجان من أهل الكوفة اذا مر بهم عيسى بن موسى قالوا : هذا الذي كان غداً فصار بعد غد .

وكان ابو جعفر لما شخص المهدي الى الري اذن لابي عبيد الله كاتبه في الانفاق والتصرف في بيت المال ، فاقام بالري مع المهدي مدة طويلة ، وانفق اموالا عظيمة . فلما انصرف المهدي الى الحضره ، طالب المنصور ابا عبيد الله برفع الحساب بما جرى على يده ، فقامت قيامته ، واشتد همه ، فلقيه خالد بن برمك ، وكان صحيح العقل ، سديد الـــراي ، فقال : أنت ترشح نفسك لتدبير الخلافة وقد حيرك هذا الامـــر الصغير ! فقال : فما الـــراي عندك ؟ قال : يصير المهدي الى ابيه وعليه سيفه وسواده ، فاذا مثل بين يديه نزع سيفه ، فرمى به ، وقال له : يا اميـــر المؤمنين ، انت ترشحنـــي لهذا الامر ، وتروي اني المهدي الذي بعدك في الناس ، ثم تكشف كاتبي عما اجريته على يده ، ونفذه بامري وبتوقيعاتي ! فلعلك تنكر شيئا ، فيقـــول الناس : انه كشف عن خيانة . فصار أبو عبيد الله الى المهدي ، فطالبـــه بذلك ، ففعل ، فامسك ابو جعفر عنه .

حديث تولية المنصور الامر للمهدي : وقال ابو جعفر للمهدي يوما : قد عزمت على ان أوليك الامر ، وأرده اليك ، فقد كبرت وعجزت عن مباشرة الاعمال والنظر فيها ، وأحببت الراحة والدعة ، فخرج المهدي الى أبي عبيد الله مستبشرا بذلك ، وعرفه ما عرضه عليه أبو جعفر ، فقال له أبو عبيد الله اتق الله ولا تظهر لامير المؤمنين قبولا لما ذاكرك به ، واذا عاودك فقل له : لا والله لا أتعرض لهذا الامر ما أبقى الله أمير المؤمنين ، ولا أنهض لـــه ولا اغره من نفسي ! فانه انما سبرك بما عرض عليك . فلما دخل المهدي على ابي جعفر قال له : يا ابا عبد الله ، هل فكرت فيما قلته لك ، أو شـــاورت احدا فيه ؟ فقال : ما بي قوة على ذلك ، ويبقي الله أمير المؤمنين ، ويمتعنا بحياته ، وما أحب أن اغر من نفسي ! فقال له : سبحان الله ! من صـــدك عنه ؟ ومن ناظرت فيه ؟ وكرر عليه القول ، واعاد المهدي عليه جوابا واحدا، فقال له : فمن شاورت في هذا الامر ؟ فقال له : شاورت معاوية ، قال : فأي شيء قال لك ؟ قال : فعرفه ما قال له ، فاطرق هنيهة ثم قال : علي بمعاوية . فلما دخل عليه وقال له : ما هذا الذي ناظرك فيه أبو عبد الله ، وكيف رايت أن لا يقبل ؟ قال : اصدقك وأنا آمن ؟ فقال له : هات ، ولم لا تصدقنـــي ؟ فقال له : انه والله ما عرضت عليه ما عرضته وانت تريد أن توليه ، وانمـــا

أردت أن تختبر عقله ، وما كنت لتطيب نفسا بترك ما أنت فيه ، فقال له : وكيف توهمت ذلك ؟ قال لاني سمعتك تقول : اني أستيقظ بالليل فادعو بالكتب ، فأضعها بين يدي ، وادعو بالجارية ، فأمرها ان تمرخ ظهري بالدهن ، فتفعل ذلك ، وانا مقبل على كتبي وتدبيري ، والنظر في اموري ، فعلمت أنك لا تدع شيئا يكون موقعه منك هذا الموقع ، وتؤثر به غيرك ، فقال : ما كنت ارى ان احدا يتفقد ما تفقدته ، وقد اصبت الرأي واحسنت ، بارك الله عليك .

مقتل فضيل ابن عمران : وكان المنصور ضم رجلا يقال له : فضيل بن عمران ، من اهل الكوفة ، الى جعفر ابنه يكتب له ، ويقوم بأمره ، بمنزلة أبي عبيد الله مع المهدي ، وكانت لجعفر حاضنة تعرف بأم عبيدة ، فثقل عليها مكان فضيل ، فسعت به الى ابي جعفر ، وادعت عنده انه يلعب بجعفر . فبعث المنصور بالريان مولاه ، وهارون بن غزوان ، مولى عثمان بن نهيك ، الى فضيل ، وأمرهما بقتله ، وكتب لهما منشورا بذلك ، فصارا اليه فقتلاه . وكان الفضيل دينا عفيفا ، فقيل للمنصور في ذلك ، وانه ابرا الناس مما قرف به ، وابعدهم منه ، فوجه رسولا ، وجعل له عشرة آلاف درهم ان أدركه قبل أن يقتل ، فصار اليه ، فوجده قد قتل ولم يجف دمه . واتصل خبر قتله بجعفر بن ابي جعفر ، فطلب الريان ، فلما جيء به اليه ، قال له : ويلك ! ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل عفيف مسلم ، بغير جرم ولا خيانة ! فقال الريان : هو امير المؤمنين يفعل ما يشاء ، هو أعلم بما صنع . فقال له : يا ماص بظر امه ! اكلمك بكلام الخاصة ، وتكلمني بكلام العامة ! خذوا برجله ، فألقوه في دجلة . قال : فأخذوا والله برجلي ، فقلت: اكلمك ، فقال : دعوه ، فقلت : ابوك انما يسأل عن فضيل بن عمران وحده ! ومتى يسأل عنه وقد قتل عمه عبد الله بن علي ، وقتل عبد الله بن حسن ، وقتل غيره من أولاد رسول الله ظلما ، وقتل أهل الدنيا ممن لا يحصى ولا يعد ! وهو ، قبل ان يسأل عن فضيل ، جوذابة تحت خصى فرعون ! فضحك وقال : دعوه الى لعنة الله ! فأفلت منه .

مكيدة ومشورة ووقائع مثيرة : ولما حج المنصور بعد تقليده المهدي العهد ، وتقديمه اياه على عيسى ابن موسى ، دفع عبد الله عمه الى عيسى وأمره سرا بقتله ،، وكان يونس ابن ابي فروة يكتب لعيسى بن موسى ، فدعا عيسى بيونس ، وقد كان عزم على قتل عبد الله بن علي ، فخبره الخبر ، فقال : نشدتك الله أن تفعل ، فانه يريد أن يقتلك ويقتله ، لانه امرك بقتله سرا ، ويجحدك اياه في العلانية ، ولكن استره حيث لا يطلع عليه احد ، فان طلبه منك علانية دفعته اليه ، واياك أن ترده سرا ابدا ،

بعد ان يظهر حصوله في يدك . قال : ففعل عيسى ذلك ، وانصرف ابو جعفر من حجه . وعنده ان عيسى قد انفذ امره في عبد الله ، فدس على عمومته من يشير عليهم بمسألته في عبد الله ، ففعلوا ذلك ، فدعا بعيسى بن موسى. فسأله عن عبد الله بن علي ، فقال له ، فيما بينه وبينه ، الم تأمرني بقتله ؟ فقال : معاذ الله ! ما امرتك بقتله ، انما امرتك أن يكون في منزلك ! قال : قد أمرتني بقتله ، قال : كذبت ! ثم اقبل على عمومته ، فقال : قد أقر بقتله . وقد كذب علي ، وادعى اني أمرته ، فشأنكم به ، فوثبوا عليه . فلما رأى صورة أمره ، صدق ابا جعفر عن الحال ، واحضره اياه . فكان عيسى يشكر ليونس بن أبي فروة ذلك مدة عمره .

وكان لعيسى بن موسى ابن يقال له العباس ، من أكابر ولده ، وقد تقلد الكوفة من قبل عيسى ، وكان يكتب له رجل يقال له معاوية . فذكر علان الوراق السعوي : أن رجلا من بني اسد اختدع معاوية ، رغبة في جاهه وميراثه ، حتى انتمى الى بني اسد ، فتوفي الاسدي الذي غره ، فخاف معاوية أن يموت هو ، فيرثه قوم كانوا نفوه ، وانكروا عليه دعوته فيهم . وكانت لمعاوية جارية صقلية جاءت بابن من غلام له ، كان يقال له منارة ، فادعى حينئذ معاوية منارة انه منه ، ونسبه الى نفسه فيما بعد ، وسماه محمدا ، ثم مات معاوية وانتمى محمد اليه ، واكتنى بأبي عبد الله ، ونظر في النسب ، وكان ينبز بالابنة ، ويتهم بالزندقة ، وقد هجاه قوم من اهل الكوفة هجاء كثيرا ، فمن ذلك ان بني اسد يعرفون بالكوفة بالتطفيل ، فهجوه بأنه يتظاهر بالتطفيل ليصح نسبه ، فقال بعض الغنويين :

والله لو طفلت يا بن استها سبعين عاما لم تكن من اسد
فارحل الى الجبة من مصرنا واطلب ابا في غير هذا البلد

يعني بالجبة ، الحجة والبداة ، طسوجين من سواد الكوفة .

وكان يكتب لعبد الله بن علي يوسف بن صبيح ، مولى بني عجل ، من ساكني سواد الكوفة . فذكر القاسم بن يوسف بن صبيح ان اباه حدثه :

أن عبد الله بن علي لما استتر عند اخيه سليمان بالبصرة ، وعلم انه لا وزر له من أبي جعفر ، قال : فلم استتر ، وقصدت أصحابنا الكتاب ، فصرت في ديوان أبي جعفر ، واجرى لي في كل شهر عشرة دراهم ، فبكرت يوما الى الديوان قبل فتح بابه ، ولم يحضر احد من الكتاب ، فاني لجالس عليه ، اذا انا بخادم لابي جعفر يتلمح الباب ، فلم ير غيري ، فقال لي : اجب أمير المؤمنين ، فأسقط في يدي ، وخشيت الموت ، فقلت : ان أمير المؤمنين لم يردني ، قال : وكيف ؟ فقلت : لاني لست ممن يكتب بين يديه . فهم بالانصراف عني ، ثم بدا له ، فأخذني وادخلني ، حتى اذا صرت دون

الستر . وكّل بي ودخل . فلم يلبث أن خرج ، فقال لي : ادخل ، فدخلت .
فلما صرت الى باب الايوان ، قال لي الربيع : سلم على امير المؤمنين ،
فشممت رائحة الحياة . فسلمت ، فادناني وامرني بالجلوس . ثم رمى الي
بربع قرطاس ، وقال لي : اكتب وقارب بين الحروف ، وفرج بين السطور ،
واجمع خطك . ولا تسرف في القرطاس ، وكانت معي دواة شامية ، فتوقفت
عن اخراجها . فقال لي : كأني بك يا يوسف ، وانت تقول في نفسك : انا
بالامس في ديوان الكوفه اكتب لبني أمية ، ثم مع عبد الله بن علي ، واخرج
الساعة دواة شامية : إنك انما كنت في ديوان الكوفة تحت يد غيري ، وكنت
مع عبد الله بن علي ، لي ومعي ، والدوى الشامية أدب جميل ، ومن
ادوات الكتاب ، ونحن أحق بها ، قال : فأخرجتها ، فكتبت وهو يملي علي ،
فلما فرغت من الكتاب ، امر به فاترب . وأصلح ، وقال : دعه ، وكل العنوان
الي . ثم قال لي : كم رزقك يا يوسف في ديواننا ؟ فقلت : عشرة دراهم ،
فقال لي : قد زادك امير المؤمنين عشرة دراهم ، رعاية لحرمتك بعبد الله
بن علي . ومثوبة على طاعتك ، ونقاء ساحتك ، واشهد أنك لو استخفيت
لاخرجتك ولو من جحرة النمل ، ثم زايلت بين أعضائك ، قال : فدعوت له ،
ثم خرجت مسرورا بالسلامة .

وتوفي عبد الملك بن حميد ، كاتب أبي جعفر في آخر سنة اربع وخمسين
ومئة .

وكان ملك الروم أنفذ الى ابي جعفر رسولا . فورد عليه عند فراغه
من الجانبين من مدينة السلام ، وامر أبو جعفر عمارة بن حمزة أن يركب
معه الى المهدي ، وهو نازل بالرصافة ، فلما صار الى الجسر راى الرسول
من عليه من الزمنى والسؤال ، فقال لترجمانه : قل لهذا ، يعني عمارة بن
حمزة : اني أرى عندكم قوما يسألون ، وقد كان يجب على صاحبك أن يرحم
هؤلاء ، ويكفيهم مؤنهم وعيالاتهم ، فقال له عمارة : ان الاموال لا تسعهم ،
ومضى الى المهدي ، وعاد الى ابي جعفر ، فخبره عمارة بذلك ، فقال له
ابو جعفر : كذبت ! ليس الامر على ما ذكرت ، والاموال واسعة ، ولكن
العذر ما أنا ذاكره له ، فأحضرنيه ، فأحضره ، فقال له : قد بلغني ما قلته
لصاحبنا ، وما قاله لك ، وكذب ، لان الاموال واسعة ، ولكن أمير المؤمنين
يكره أن يستأثر على أحد من رعيته ، وأهل سلطانه بشيء من حظ ، أو
فضل في دنيا او آخرة ، واحب امير المؤمنين أن يشركوه في ثواب السؤال
والزمنى ، وأن يسألوهم من ذوات أيديهم ، ومما أعطاهم الله عز وجل من
الرزق ، ليكون ذلك نجاة لهم في آخرتهم ، وتمحيصا لذنوبهم ، فقال الرومي:
الحق ما قاله أمير المؤمنين .

وكانت تخود عمارة وتتيه بمواصفان ويستسرفان . فاراد ابو جعفر ان يعبث به . فخرج يوما من عنده . فامر بعض الخدم ان يقطع حمائل سيفه . لينظر أياخذه ام يتركه ؟ ففعل ذلك . فسقط السيف . فمضى عمارة لوجهه، ولم يلتفت اليه وكان المثل يضرب بتيهه . فيقال : اتيه من عمارة .

وكان عمارة اذا اخطأ يمضي على خطئه تكبرا عن الرجـوع ويقول : نقض وابرام في ساعة واحدة ! الخطـأ اهون علي من هذا . وله شعـر صالح . فمن ذلك :

لا تشكون دهـرا صححت به	ان الغنـى في صحة الجسـم
هبك الامـام اكنـت منتفعـا	بغضارة الدنيـا مع السقـم ؟

قال محمد بن يزداد :

تقلد المنصور عمارة بن حمزة الخراج بكور دجلة والاهواز . وكـور فارس . وتوفي المنصور سنه ثمان وخمسين ومئة وعمارة يتقلد ذلك .

وقلد المنصور حمادا التركي تعديل السواد . وامره ان ينزل الانبـار ولا يدع احدا من أهل الذمة يكتب لاحد من العمال على المسلمين الا قطـع يده . فاخذ حماد ما هويه الواسطي . جد سليمان بن وهب . فقطع يده .

وانكر أبو جعفر على محمد بن جميل شيئا . فأمر ببطحه ، فقام بحجته، وازال ما أدعى عليه ، فامر باقامته . ثم لحظ سراويله ، فـاذا هو كتان . فانكر ذلك انكارا شديدا ، وامر به فبطح ، وضربه خمس عشرة درة ، وقال : هذا جزاؤك على سوء اختيارك في لبس مثل هذا السراويل ، فلا تعاوده .

وكان محمد بن جميل يتقلد ديوان الخراج ، ولما قلد ابو جعفر الربيـع العرض عليه ، حسن مذهبه . وآثر الخيرية ، حتى عرف بذلك .

وكان أبو جعفر اذا أراد بانسان خيرا ، أمر بتسليمه الـى الربيع . واذا أراد بانسان شرا أمر بتسليمه الى المسيب . فكتب العامل بفلسطين يذكر أن بعض أهلها وثب عليه ، واستغوى جماعة منهم ، فعاث في العمل . فكتب اليه المنصور : دمك مرتهن ان لم توجه به . فصمد له العامل ، واخذه ووجه به . فلما مثل بين يده . قال : أنت المتوثب على عامل امير المؤمنين ؟ لانثرن من لحمك أكثر مما يبقى على عظمك ! فقال : وكان شيخـا كبيرا ، بصوت ضئيل :

اتروض عرسك بعدما هرمـت	ومن العناء رياضـة الهـرم ؟

فقال : يا ربيع ، ما يقول ؟ قال : يقول :

العبـد عبدكـم والمال مالكـم	فهل عذابك عني اليوم مصروف

فقال المنصور : يا ربيع ، قد عفوت عنه ، فخل سبيله ، واحتفظ به ، وأحسن اليه .

وهذا الشعر لعبد بني الحسحاس ، وكان مولاه اتهمه بابنته ، فعزم على قتله ، فقال هذا الشعر ، واوله :

أمن سمية دمع العين مذروف   لو ان ذا منك قبل اليوم معروف
كأنها حين تبكي ما تكلمني   ظبي بعسفان ساجي الطرف مطروف
لا تبك عينك ان الدهر ذو غير   فيه تفرق ذي الف ومألوف
العبد عبدكم والمال مالكم   فهل عذابك عني اليوم مصروف

ولما استوزر المنصور الربيع ترك ان يسأله حاجة تخفيفا ، فقال له المنصور يوما : قد انقبضت عن مسألتي حوائجك ، حتى أوحشتني ، فقال : ما تركت ذاك : اني وجدت لها موضعا غير أمير المؤمنين ؛ ولكني ملت الى التخفيف ، قال : فاعرض علي ما تحب من حوائجك ، قال : حاجتي يا أمير المؤمنين أن تحب الفضل ابني ، قال : ويحك ! ان المحبة لا تقع ابتداء ، وانما تقع بأسباب ، فقال : قد اوجدك الله السبيل اليها ، قال : وما ذاك ؟ قال : تنعم عليه ، فاذا أنعمت عليه أحبك ، فاذا أحبك أحببته ، قال : فقد والله حببته الي قبل أن يقع من هذا شيء ، ولكن كيف اخترت له المحبة من بين سائر الاشياء ؟ قال : لانك اذا أحببته كبر عندك صغير احسانه ، وصغر عندك كبير اساءته ، وكانت حاجاته عندك مقضية وذنوبه عندك مغفورة .

وكان أبو جعفر قلد خالد بن برمك الري وطبرستان ودنباوند ، فاقام بها سبع سنين ، وكان مقام خالد بطبرستان ، وخلف ابنه يحيى بالري ؛ فلما وجه أبو جعفر المهدي الى الري خدمه يحيى ، وخف على قلبه ؛ وولدت الخيزران هارون بن المهدي في سنة تسع وأربعين ومئة ، وكان الفضل ابن يحيى بن خالد قد ولد قبل ذلك بسنة ، فأرضعت الخيزران الفضل ، وارضعت زبيدة بنت منير ، ام الفضل ، هارون : فتأكدت حرمة يحيى ، واتصل سببه .

وذكر الحارث بن أبي اسامة في كتابه المعروف بكتاب الخلفاء في أخبار المنصور :

ان الخبر اتصل به ان احداثا من الكتاب يزورون في ديوان داره ، فأمر باحضارهم ، وتقدم بتأديبهم ، فقال واحد منهم ، وهو يضرب :

اطال الله عمرك في صلاح   وعز يا امير المؤمنينا
بعفوك استجير ، فان تجرني   فانك عصمة للعالمينا
ونحن الكاتبون وقد اسأنا   فهبنا للكرام الكاتبينا

فأمر بتخليتهم ، ووصل الفتى واحسن اليه .

وكان أبو جعفر يتعتب على أبي الجهم بن عطية ، وزير ابي العباس ؛ فلما استخلف أبو جعفر ، دخل أبو الجهم يوما ، فطاوله حتى عطش ، ثم دعا

له بسويق من سويق الموز . وقد كان سمه . فشربه ، فلما وصل الى جوفه دخل جوفه وأحس بالموت ، فوثب مسرعا ، فقال له المنصور : الى أين يا أبا الجهم ؟ قال : الى حيث بعثتني . فلما وصل الى منزله مات .

وكان المنصور قلد عبد الوهاب بن ابراهيم فلسطين ، فعسف اهلها ، وكان ابراهيم بن أبي عبلة ، كاتب هشام ، مقيما بها ، فاستحضره المنصور ، فلما وصل اليه قال له : ابن أبي عبلة ؟ ما وراءك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، قد قرأت عهود الخلفاء الذين من ولد عبد الملك اليك ، فما سمعت عهداً قط اجمع من عهد قرأه علينا عبد الوهاب منك ، ثم عمد الى جميع ما امرته بـه فاجتنبه ، وما نهيته من شيء فارتكبه .

وكان ابن مجير من أهل فلسطين قد حضر مع ابن عبلة ، ووصل الى المنصور . فقال : ما وراءك يا بن مجير ؟ فأخرج له طائرا من كمه ، قد نتفه حتى لم تبق عليه ريشة واحدة ، فقال له : فارقت البلد ، يا أمير المؤمنين ، وقد نتفه ابن اخيك ، حتى تركه كما تركت هذا الطائر ، فأظهر انكارا شديدا وعـزله .

وكان يتقلد للمنصور قضاء المدينة محمد بن عمران الطلحي ، ويكتب له نمير الشيباني المديني ، فلما قدم المنصور حاجا استعدى عليه الجمالون فدعا محمد بن عمران بنمير كاتبه ، وقال : اكتب الى المنصور في الحضـور معهم أو انصافهم ، فكتب ثم ختم الكتاب ، وقال له : والله لا مضى به غيرك فمضى به ، ودفعه الى الربيع ، واعتذر اليه ، فقال له : لا عليك ، ودخـل بالكتاب ثم خرج ، فقال للناس : أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ، ويقـول لكم : قد دعيت الى مجلس الحكم ، فلا أعلمن أحدا يقـوم اذا خرجت ولا يكلمني . ثم خرج المنصور ، والمسيب بين يديه ، والربيع ونمير كاتب محمد بن عمران خلفه ، وهو في مئزر ورداء ، فلم يقم له أحد ، فبدأ بالقبر ، فسلم عليه ، ثم قال للربيع : اني أخشى ان رآني ابن عمران أن يدخل قلبه هيبة ، فيتحول عن مجلسه ، وبالله لئن فعل ، لا ولي لي ولاية ابدا . ثم صار الى محمد بن عمران ، فلما رآه ابن عمران ، وكان متكئا ، اطلـق رداءه على عاتقه ، ثم احتبى ودعا بالخصوم ، ثم دعا بالجمالين ، ثم دعا بأمير المؤمنين فادعى القوم ، وساء له ، فقضى عليه لهم ، وأمره بانصافهم ، وانصرف أبو جعفر . فأمر الربيع باحضار محمد بن عمران ، فلما دخل عليه قال : جـزاك الله عن دينك وعن بيتك وعن حسبك وعن خليفتك احسن الجزاء ! وامر له بعشرة آلاف دينار .

ووقف ابو جعفر على كثرة القراطيس في خزائنه ، فدعا بصـالح ، صاحب المصلى ، فقال له : اني أمـرت باخراج حاصل القراطيس فـي

خزائننا . فوجدته شيئا كثيرا جدا ، فتول بيعه ، وان لم تعط بكل طومار الا دانقا (١) . فان تحصيل ثمنه أصلح منه . قال صالح : وكان الطومار في ذلك الوقت بدرهم ، فانصرفت من حضرته على هذا ، فلما كان في الغد دعاني فدخلت عليه ، فقال لي : فكرت في كتبنا ، وأنها قد جرت في القراطيس ، وليس يؤمن حادث بمصر ، فتنقطع القراطيس عنا بسببه ، فنحتاج الى ان نكتب فيما لم نعوده عمالنا ، فدع القراطيس استظهارا على حالها .

ولهذه العلة كانت الفرس تكتب في الجلود والرق ، وتقول : لا نكتب في شيء ليس في بلادنا .

حرص المنصور : قال جعفر بن احمد النهرواني الكاتب : حدثني محمد بن الفضل الكاتب قال : حدثني كاتب كان للمنصور يتقلد النفقات في أيامه ، ذهب علي اسمه ، قال :

وقف المنصور يوما من الايام نهارا على سرب في داره ، فيه قنديل معلق ، وكان الموضع بين المضيء والمظلم ، فكان تعليق القنديل انما يقع استظهارا ، فأمر ، بأن يطفا ، وقال : لا يعاود هذا المصباح الى هذا الموضع الا في وقت الحاجة من الليل ، أو من آخر النهار . قال : فلما رأيت ذلك من تفقده قلت في نفسي : اذا كان يتفقد هذا المقدار التافه ، فهو لغيره أشد تفقدا ، فنظرت الى فضول موائده ، فبعتها ، فاجتمع لي من ذلك مال شهر ، جملة وافرة صالحة ، ونظرت في أشياء غير ذلك ، ففعلت فيها مثل هذا الفعل ، فلما كان من رأس الشهر عرضت عليه ما وفرته ، فسألني عن سببه ؟ فقلت : ان امنتني شرحت لك الخبر ، فآمنني ، فصدقته عن الصورة فقال : ما الذي كنتم تصنعونه بما يفضل من هذه الموائد في كل يوم ؟ فقلت : كان يأكله خدمك وغلمانك وحشمك ، وما فضل بعد ذلك عنهم تصدق به على الفقراء والمساكين ، فقال : هذا لم يكن يضيع منه شيء ، فأجر الامر على ما كان جاريا عليه فيه ، وليس سبيل القنديل سبيل ذلك في ذلك الموضع لان ذلك الموضع الذي كان فيه كان مضيئا بالنهار ، وكان الزيت يذهب ضياعا ، ولا وجه للتضييع في شيء وان قلّ .

وحكي انه ثقل على كتاب المنصور تفقده الاعمال ، ومراعاته لها ، فقالوا لمتطببه : لو زينت له شرب النبيذ حتى يتشاغل عنا ، لاعظمت المنة عندنا ، فوعدهم بذلك ، ولم يزل يقول له في الوقت بعد الوقت ، لو سخنت يا أمير المؤمنين معدتك لأصلحت جسمك ، ونفذ طعامك . فيقول : بماذا فيقول : بشراب العسل . فلما الح عليه بذلك استدعى شيئا منه ، فشربه

---

(١) الدانق : سدس الدرهم .

في اليوم الاول . فاستطابه . فعادله في اليوم الثاني ، وازداد منه . فخدره . ثم عاوده في اليوم الثالث . فابطا عن صلاة الظهر والعصر والعشاء . فلما كان من غد دعا بما عنده من الشراب فهراقه . ثم قال : ما ينبغي لمثلي ان يشرب شيئا يشغله .

● ——— ●

أيـــام المهـــدي

ولما تقلد المهدي الخلافة قلد ابا عبيد الله وزارته ودواوينه في سنـــة تسع وخمسين ومئة . وكان من كتاب أبي عبيد الله بن عمران مولى مذحج ، ويزيد الاحول أبو أحمد بن ابي خالد ، ومحمد بن سعيد بن عقبة ، قلـــده الخراج بمصر ، وغيرهم .

قال ابو الحسن المدائني :

وفد عبيد الله بن الحسن الهاشمي على المهدي معزيا عن المنصور ، ومهنئا بالخلافة ، فتكلم بكلام كان قد اعده ، أعجب الناس به واستحسنوه ، فبلغه ذلك ، فقال لشبيب بن شيبة : اني والله ما التفت الى هؤلاء . ولكن سل ابا عبيد الله عما تكلمت به ، فسأله شبيب ، فقال له : ما احسن ما تكلم ! ولكنه لم يتعد بكلامه أن اخذ مواعظ الحسن ، ورسائل غيلان ، فلقح بينهما كلاما . فأخبر شبيب عبيد الله بذلك ، فقال : لله ابـــوه ! فوالله ما اخطأ حرفا ، ولا تجاوزت ما قال .

قال ابن ابي سعيد الوراق حدثني محمد بن اسماعيل الجعفري عن ابيه :

أن زفر بن عاصم عند تقلده المدينة اوفد الى المهدي عبد الله بن مصعب الزبيري ، وابراهيم بن سعد الزهري ، وسعيد بن سلم المجاشعي ، فلما وصلوا الى بابه قصدوا ابا عبيد الله وزيره ، متوسلين به في ايصالهم ، وذكر امورهم للمهدي ، فتجهمهم وأبى عليهم ، واغلظ القول لهم ، وجبههم بالرد ، وقال لهم : ما لكم عندنا شيء ، فقال له عبد الله بن مصعب ، وكان أحدث القوم سنا : واذا والله نكون كما قال خفاف بن ندبة السلمي :

اذا تلعات بطن الحشرج أمست   جديبات المســـــارح والمــراح

تهادى الريح اذ خرهن(١) شهبا ... ونودى في المجالس بانقداح
وجدت لجارنا كرما وكنا ... سوى ظن اللئيم بمستراح
اذا ما أجدبوا حمدوا وابدت ... لنا الضراء عن ادم صحاح

فاتصل خبرهم بالمهدي . فانكر على أبي عبيد الله . ودعاهم فوصلهم . واحسن اليهم في حوائجهم .

وكان ابو عبيد الله يقول : اني لاشكر حسن اللحظة ، ولين اللفظة .

وذكر أن رجلا اعتذر الى أبي عبيد الله فاطال ، فقال له : ما رأيت عذرا هو اشبه باستئناف ذنب من هذا .

وكان أبو عبيد الله يقول : اليأس حر . والرجاء عبد .

رفع العذاب عن أهل الخراج : وكان أهل الخراج يعذبون بصنوف من العذاب . من السباع والزنابير والسنانير ، وكان محمد بن مسلم خاصا بالمهدي . فلما تقلد الخلافة ، ووجد أهل الخراج يعذبون . شاور محمد بن مسلم فيهم . فقال له محمد : يا أمير المؤمنين ، هذا موقف له ما بعده ، وهم غرماء المسلمين ، فالواجب أن يطالبوا مطالبة الغرماء . فتقدم الى أبي عبيد الله بالكتاب الى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج .

ابو عبيد الله وخالد بن برمك وغيره : وفسد ما بين ابي عبيد الله وبين خالد بن برمك ، بعد شدة التصافي ، فاتصل بخالد أن أبا عبيد الله يقول : انه يتخوفه على سر كان أسره اليه . فركب خالد : حتى أتى بـاب أبي عبيد الله ، فلما رآه غلمانه أعظموا ذلك ، وتبادروا بين يديه ، وخرج اليه ابو عبيد الله وهو متعجب ، فقال له خالد : بلغني عنك كذا وكذا ، وما اتخذت مودتك عدة لعداوتك ، وعلي وعلي ، وحلف ايمانا مغلظة ان لو قطعت اربا اربا ما ذكرت ذلك تعريضا ولا تصريحا ، وعلي وعلي ان اطلعت من امرك على شيء من هذه الحال ، فأبقيت عليك ، فلا تظنن بي ضرعا اليك ، ولا رغبة فيما لديك ، وانصرف . فدعا بيحيى ابنه ، فقال له : امض الى ابي عبيد الله فقل له : كل امرأة لي طالق ، وكل مملوك لي حر ، وكل ملك لي صدقة ، ان دخلت لك منزلا ، ولا كلمتك أبدا ! فدفعه يحيى عن ذلك ، فلم يندفع . فصار يحيى الى ابي عبيد الله ، فأدى اليه الرسالة ، فشق ذلك عليه ، وقال له ، فالقني أنت في حاجاته وحاجاتك ، فكان يحيى يلقاه ، فيكرمه ويقضي حوائجه .

فقال يوما لخالد : ما حداك يا سيدي ، ما حداك على ما كان منك

---

(١) الاذخر : نوع من الحشيش .

في امر أبي عبيد الله ؟ فقال : يا بني ، هذا رجل مكين من صاحبه . وقد وقع في نفسه علينا شيء ، ولم آمن أن يرقى اليه شيء عنا لا أصل له ، فيقبله ويصدقه ، فأردت أن اظهر ما بيننا وبينه ، فان ادعى علينا شيئا حمله على ما عرفه بيننا .

وركب أبو عبيد الله يوما فوقف له الناس ، وكان فيمن وقف يحيى ابن خالد ، في جماعة منهم مالك بن الهيثم ، ومعاذ بن مسلم ، فلما طلـــع أبو عبيد الله رموا بأنفسهم عن دوابهم ، ووقف يحيى على ظهر دابته ، فلما رآه أبو عبيد الله أعرض عنه ، واقبل بطرفه على عرف دابته ، ولم يلتفت الى يحيى . قال : فلما رأيت ذلك حركت اليه حتى لحقته ، فقلت : يا أبا عبيد الله أبقاك الله ! قد علمت انك أنكرت ما كان مني ، وقلما أعطى أحد نفسه هذه الذلة . فوجد عنده بعد ذلك خير .

ووقائع اخرى : وتحدث شريك القاضـــي عند أبي عبيد الله يومـــا بحديث في تحليل النبيذ ، فقال عافية القاضي ، وكان حاضرا : ما سمعنا بهذا الحديث ، فقال شريك : وما يضر عالما أن جهل جاهل .

وذكر أبو سهل الرازي القاضي عن منصور بن أبي مزاحـــم . قال :

كنت عند أبي عبيد الله ، وحسن بن حسن عنده ، وشريك حاضر . فقال ابو عبيد الله لشريك : حدثنا في النبيذ ، فحدثه بحديث همام عن عمر ابن الخطاب فيه ، فقال حسن : ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، ان هـــذا الا اختلاق ! فقال شريك : أجل ، شغلك عنه جلوسك على الطنافس ، في صدور المجالس ، وعرفناه بسمينا فيه . فاستزاده أبو عبيد الله ، فقال : لا اعرض الحديث للكذب .

وذكر عبد الاعلى بن عبد الله بن محمد بن صفوان الجمحي :

انه حمل دينا في عسكر المهدي ، قال : فركب المهدي يوما بين أبـــي عبيد الله وعمر بن بزيع ، وأنا وراءه في موكبه على برذون قطوف ، فقـــال المهدي : ما انسب بيت قالته العرب ؟ فقال ابو عبيد الله : قـــول امرىء القيس :

وما ذرفت عينـــاك الا لتضربي بسهميك في اعشار قلب مقتل

فقال المهدي : هذا اعرابي قح ، فقال عمر بن بزيع : قول كثير :

اريد لأنســـى ذكرها ، فكـــأنما تمثـــل لي ليلى بكـــل سبيـــل

فقال المهدي : ما هذا بشيء ، وماله أن ينسى ذكرها حتى تمثل له ! فقلت له : حاجتك عندي يا أمير المؤمنين ، فقال : الحقني ، فقلت : لالحاق بي مع دابتي ، فقال : احملوه على دابة ، فقلت : هذا أول الفتح ، وحملت عليها ، فلحقته ، فقال : ما عندك ؟ فقلت : قول الاحوص :

اذا قلت اني مشتـــف بلقـــائها فحم التلاقى بيننا زادني سقما
فقال : احسنت والله ، اقضوا دينه .
وكان في صحابة المهدي رجل يعرف بالثقفي البصري ؛ وكان ابـــو عبيد الله له مستثقلا ، وكان محبا لان يضع منه . فتكلم الثقفي يوما فلحن ، فقال له أبو عبيد الله : اتجالس امير المؤمنين بالملحون من الكلام ؟ اما كـــان يجب عليك أن تقوّم من لسانك ! فقال له الثقفي : انما يحتاج الى استعمال الاعراب في جميع الكلام ، يا ابا عبيد الله ، المعلمون ، لينفقوا عند من التمسهم لتمنيم ولده ، يعرض بأبي عبيد الله ، لانه كان معلما في أول امره . فضحـــك المهدي حتى غطى وجهه .
ولما حال الحلول على المهدي في الخلافة ، تقدم الى ابـــي عبيد الله بمناظرة عيسى بن موسى ؛ على ان يخلع نفسه من ولاية العهد ، فناظره وقال له : ان المنصور قدم المهدي عليك وعوضك ، فان اخرجت نفسك من هذا الامر عوضك المهدي ما هو أنفع لك ، وابقى عليك ، وان ابيت استحل منك المحظور ، بمعصيتك وخلافك أمره ، وقد لزمتك طاعته ، ووجب عليك القبول منه . فسارع الى الاجابة الى خلع نفسه ، فعوض عشـــرة الاف الف درهم ، وكتب ابو عبيد الله عن المهدي بذلك ، وبتقليد الهادي موسى العهد الى الآفاق ، فقال بعض الشعراء :
كره المـــوت أبو موسى وقـــد كان في الموت نجـــاة وكـــرم
خلـــع الملك واضحى لابســـا ثوب لوم لا تـــرى منه القـــدم
ولما حج المهدي بعد عقد البيعة لموسى خلفه ببغداد خليفة له ، وضم يزيد بن منصور خال المهدي مدبرا لامره ، وقلد كتابته ووزارته ابان بن صدقة وذلك في سنة ستين ومئة ، وقلد عمر بن بزيع دواوين الازمـــة ، في سنة اثنتين وستين ومئة . وقد قيل ان المهدي أول من أحدثها .
قال عبد الله بن الربيع : سمعت مجاهدا الشاعر يقول :
عمر بن بزيع وعمارة بن حمزة : خرج المهدي متنزها ومعه عمر بـــن بزيع ، فانقطعا عن المعسكر في طلب الصيد ، فأصاب المهدي جوع ، فقـــال لعمر بن بزيع : ويحك ! هل من شيء ؟ قال : ما من شيء ، قال : فاني أرى كوخا ، وأظنها مبقلة ، فقصدا قصده ، فاذا نبطي في كـــوخ ، واذا مبقلة ، فسلما عليه ، فرد السلام ، فقال : هل عندك شيء ناكل ؟ قال : عنـــدي ربيثاء وخبز شعير . فقال له المهدي : ان كان عندك زيت فقـــد كمل قال : نعم ؛ قال : وكراث ؟ قال : نعم ، وعندي تمر ، وعدا نحو المبقلة ، فجاء ببقل وكراث وبصل ، فأكلا اكلا كثيرا وشبعا ، فقال المهدي لعمر بن بزيع : قل في هذا شعرا ، وكان يعرفُ بقرض الشعر ، فقال :

ان من يطعم الربيثاء بالزيت وخبز الشعير والكراث
لحقيق بصفعـة أو بثنتين لسـوء الصنيع أو بثـلاث
فقال المهدي : بئس ما قلت لا ليس هكذا ، ولكن :
لحقيق ببدرة أو بثنتيـن لحسن الصنيـع أو بثلاث
ولحق بهما العسكر والخزائن ، فأمر للنبطي بثلاث بدر .

وحكي عن عمارة بن حمزة انه دخل يوما على المهدي فأعظمه ، فلما قام قال له رجال من اهل المدينة ، من القرشيين : يا امير المؤمنين ، من هذا الذي اعظمته هذا الاعظام كله ؟ فقال : عمارة بن حمزة ، مولاي ، فسمع عمارة كلامه ، فرجع اليه ، فقال : يا امير المؤمنين ، جعلتني كبعض خبازيك وفراشيك ، أفلا قلت : عمارة بن حمزة بن ميمون ، مولى عبد الله ابن عباس ليعرف الناس مكاني !

وبلغ موسى بن المهدي حال بنت لعمارة جميلة ، فراسلها ، فقالت لابيها ذلك ، فقال : ابعثي اليه في المصير اليك ، واعلميه أنك تقدرين على ايصاله اليك في موضع يخفي اثره ، فأرسلت اليه بذلك ، وحمل موسى على المصير نفسه ، فادخلته حجرة ، قد فرشت وأعدت له ، فلما صار اليها ، دخل اليها عمارة ، فقال : السلام عليك ايها الامير ، ماذا تصنع ها هنا ؟ اتخذناك ولي عهد فينا ، أو فحلا في نسائنا ! ثم امر به فبطح في موضعه ، فضربه عشرين درة خفيفة ، وردوه الى منزله . فحقد الهادي عليه ذلك ، فلما ولي الخلافة ، دس اليه رجلا يدعى عليه انه غصبه الضيعة المعروفة بالبيضاء بالكوفة ، وكانت قيمتها الف الف درهم . فبينا الهادي ، ذات يوم قد جلس للمظالم وعمارة بحضرته ، وثب الرجل ، فتظلم منه . فقال الهادي لعمارة : ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟ فقال : ان كانت الضيعة لي ، فهي له ، وان كانت له فهي له ، ووثب فانصرف عن المجلس .

سبب عزل ابي موسى الاشعري : وهذا شيء يشبه حكاية عن غيلان بن خرشة الضبى ، احد اصحاب ابي موسى الاشعري ، وكان غيلان أسكن رجلا دارا له بالبصرة ، ثم اراد اخراجه عنها ، فنازعه الساكن ، وكانت لغيلان منزلة من ابي موسى ، فانه يوما لجالس الى جانبه ، اذ دخل الساكن، فقال : أصلح الله الامير ، ان غيلان أسكنني دارا ، وهو يريد اخراجي منها ، ومن قصتي وقصته كيت وكيت . فاقبل ابو موسى على غيلان ، فقال : أبينك وبينه منازعة ؟ فقال : نعم ، هذا رجل اسكنته ، ثم ذهب يقص قصته ، فقال له ابو موسى : رويدك ، انتقل فاجلس مع خصمك . فقال له غيلان : ما هو الا هذا ؟ فقال ابو موسى : ما هو هذا ! فقال : فاشهد ان الدار له . واحفظه ذلك على ابي موسى ، فشخص حتى قدم المدينة على عثمان ، فدخل عليه

في يوم اجتمعت فيه بنو أمية على مأدبة لهم ، وعليه عمامته وثياب سفره ، فلما رآه قال له : من انت ؟ قال رجل شطير الدار ، بعيد النسب ، ثم حسر عمامته عن وجهه ، وقال : انا غيلان بن خرشة ، أيا معشر بني أمية ، اما فيكم صغير تستنشئونه ؟ اما فيكم فقير تنعشونه ، أما فيكم ضعيف تجبرونه؟ الى كم ، يأكل البصرة هذا الاشعري ! فوقرت في قلوب القوم ، وكانت سبب عزل عثمان ابا موسى ، فعزله وولى ابن عامر ، وهو عبد الله بن عامر بن كرز بن حبيب بن ربيعة بن عبد شمس ، في سنة تسع وعشرين ، وهو ابن خمس وعشرين سنة .

وقائع واحداث : وقلد المهدي عمارة بن حمزة الخراج بالبصرة ، فكتب اليه يسأله أن يضم الاحداث الى الخراج ،ففعل ذلك ، وقلده الاحداث مضافة الى الخراج ، وكان عمارة اعور دميما ، وكرهه أهل البصرة ، لتيهه وكبره ، فرفعوا الى المهدي عليه انه اختان مالا كثيرا ، فسأله المهدي عن ذلك ، فقال : والله يامير المؤمنين ، ان لو كانت هذه الاموال التي يذكرونها في جانب بيتي ، ما نظرت اليها ، فقال : اشهد انك لصادق ، ولم يراجعه فيها .

ودخل على المهدي صالح بن عبد الجليل ، وكان ناسكا مفوها ، فوعظه وابكاه طويلا ، وذكر سيرة العمرين ، فأجابه المهدي بفساد الزمان ، وتغير اهله ، وما حدث لهم من العادات ، وذكر له جماعة من اصحابه ، وما لهم من الاحوال والنعمة ، وذكر فيهم عمارة بن حمزة ، فقال : وقد بلغني ان له الف دواج بوبر ، سوى ما لاوبر فيه ، وسوى غيرها من الاصناف .

وحكي ان المهدي قال لعمارة بن حمزة : ابغني نديما ظريفا ، فسمى له والبة بن الحباب ، وكان شاعرا اديبا ماجنا ، ويكنى والبة ابا اسامة ، فدعا به المهدي ، فأنشده يوما :

قولا لعمرو لا تكن ناسيا ... وسقني الخمرة من كاسيا
واردد على الهيثم مثل الذي ... هجت به ويحك وسواسيا
وقل لساقينا على خلوة ... ادن كذا راسك من راسيا
ونم على صدرك لي ساعة ... اني امروء انكسح جلاسيا

البيعة لهارون : واغزى المهدي ابنه هارون الصائفة . في سنة ثلاث وستين ومئة ، وأنفذ معه خالد بن برمك ، وقلد كتابته ونفقاته وتدبير أمر عسكره يحيى ابن خالد ، ففتح عليهم ، وحسن اثر يحيى فيما قام به ، وأحمد فعله ، وتدبيره أياه . ثم أمر المهدي أبا عبيد الله بأخذ البيعة بالعهد لهارون بعد موسى ، واستحلاف الناس عليها ، فحضر دار العامة ابو عبيد الله ومعه أبو العباس الطوسي ، صاحب الحرس ، حتى أخذ البيعة على الناس ،

وهم مسارعون اليها ، ومتباشرون بها ، وكتب الى جميع الآفاق بذلك ، وعرض الكتب على المهدي ، وعرفه الخبر ، فشكر الله ، وسربه ، وقلد المهدي هارون المغرب كله ، من الانبار الى افريقية ، وأمر كاتبه خالدا بتولي ذلك كله وتدبيره ، فقام به . وكان يكتب ليحيى بن خالد اسماعيل بن صبيح.
وكان خالد بن برمك سخيا جليلا ، سريا نبيلا ، كثير الاحسان .
قال الجاحظ : وحدثني ثمامة قال :
خالد بن برمك والمهدي : كان اصحابنا يقولون ، لم يكن يرى لجليس خالد دار الا وخالد بناها له، ولا ضيعة الا وخالد ابتاعهاله ، ولا ولد الا وخالد ابتاع أمه ان كانت امة ، أو ادى مهرها ان كانت حرة ، ولا دابة الا وخالد حمله عليها ، اما من نتاجه ، أو من غير نتاجه .
وكان خالد اول من سمى المستميحين ، ومن يقصد العمال لطلب البر الزوار ، وكانوا يسمون قبل ذلك السؤال ، فقال خالد : انا استقبح لهم هذا الاسم وفيهم الاحرار والاشراف . وفي ذلك يقول بعض زواره :

حذا خالد في جوده حذو برمك ... فجود له مستطرف واثيل
وكان بنو الاعدام يدعون قبله ... باسم على الاعدام فيه دليل
يسمون بالسؤال في كل موطن ... وان كان فيهم تافه وجليل
فسماهم الزوار سترا عليهم ... فأستاره في المجتدين سدول

واحب المهدي يوما ان يسمع خبر يوم ابن ضبارة ، صاحب مروان ، وهزيمته ، فقيل له : أعلم الناس بذلك خالد بن برمك ، لانه كان شاهدا . فأمر باحضاره ، فلما وصل اليه ، سأله عن ذلك، فقال له : انا لما صافننا القوم يا أمير المؤمنين ، خفقت الويتنا بالنصر ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وهبت ريح الغلبة ، فما كان الا كلا ولا ، حتى انجلى الامر لنا بالنصر ، ولله الحمد والشكر . فقال له المهدي : احسنت وأوجزت .
وكان المهدي انفذ خالدا الى فارس عاملا عليها ، واستخلف خالد ابنه يحيى ، فتسط الخراج على اهلها ، ووضع عنهم خراج الشجر ، وكانوا يلزمون له خراجا ثقيلا ، واكثر خالد الصلات والجوائز ، والاحسان الى كافة الناس وخاصتهم ، فشغب الجند عليه ، فضرب عنق قائد منهم ، يدعى شاكرا التركي ، قرابة لفرج خادم المهدي ، فكثر فرج فيه عند المهدي ، ونسبه الى المعصية ، فغضب المهدي وحبسه ، والزمه مالا جليلا ، ونجمه عليه ، فكان يؤدي في كل يوم جمعة الف الف درهم ، وشفعت الخيزران في أمره ، بالرضاع الذي كان بين هارون ابنها وبين الفضل بن يحيى ، فرضي عنه ، ورده الى منزلته .
ولما انصرف هارون من الغزاة التي نفذ فيها في سنة ثلاث وستين ومئة

توفي خالد ، فوجه اليه المهدي بكفن وحنوط ، وصلى عليه هارون .

الربيع وأبو عبيد الله : ولم يزل أبو عبيد الله في خلافه المهدي الى ثلاث وستين ومئة مستقيم الامر ، ثم سعى عليه الربيع ، وحمل المهدي على مكارهه ، فصرفه في سنة ثلاث . وكان السبب في ذلك أن الربيع كان يحسن خلافة أبي عبيد الله ، بحضرة أبي جعفر عند غيبته مع المهـدي بالري ، ويكاتبه بما يحتاج اليه ، وينبهه على ما يصلحه ، ويكف عنه من يريد غيبه والقدح في محله ، او ذكره بخلاف الجميل ، فلما انصرف الربيع من الحج ، بعد موت أبي جعفر ، وقد قام ببيعة المهدي القيام المشهـور ، قصد بابه ، بادئا به قبل المهدي ، فقال له الفضل : يا سيدي ، تترك أمير المؤمنين ، وتترك اهلك . وتأتي ابا عبيد الله ! فقال: يا بني ، هو صاحب الرجل ، فليس ينبغي أن نعامله كما كنا نعامله ، ولا ان نحاسبه بما كان منا في أمره ، من النصرة له والمعاونة . فلما وصل الى الباب وقف عليه ، وقد كان وقت المغرب الى وقت عشاء الآخرة ، ثم خرج الحاجب ، فقال : ادخل ، فثنى رجله لينزل ، وثنى الفضل رجله معه ، فقال الحاجب : انما استأذنت لك وحدك يا أبا الفضل ، فقال له : أرجع فأعلمه أن الفضل معي ، ثم اقبل على الفضل فقال : هذا من ذاك . ثم خرج الآذن ، فأذن لهما جميعا ، فدخلا وابو عبيد الله في صدر مجلسه على مصلى قد اتكأ على وسادة ، فلم يقم اليه ، ولا استوى جالسا ، ولا القى اليه شيئا يجلس عليه ، وتركه على البساط ، وجعل يسائله عن سفره ومسيره وحاله ، والربيع يتوقع أن يسأله عما كان منه في امر المهدي ، وتجديده بيعته ، فأعرض ابو عبيد الله عن ذلك ، فذهب الربيع ليبتدئه بذكره ، فقال : قد بلغنا نبؤكم فقام الربيع لينصرف ، فقال أبو عبيد الله ، لا ارى الدروب الا وقد أغلقت ، فلو اقمت . فقال له الربيع : لا أرى الدروب تغلق دوني . فقال : بلى ، قد أغلقت . وظن الربيع انه يريد أن يستريح من تعب مسيره ، ثم يسأله فيما بعد ، فقال : فأقيم اذا، فقال أبو عبيد الله : يا غلام ، هيىء لابي الفضل موضعا في منـزل محمد ، يعني ابنه ، فلما راى انه يريد الخروج من داره ، قال : فليس يغلق دوني درب ، وقصد منزله منصرفا . واقبل على ابنه الفضل ، فقال : يا بني ، انت احمق . قال : وما حمقي ؟ قال : تقول لي : كان ينبغي الا تجيء ، واذا جئت وحجبك ان لا تقيم منتظرا ، ولما دخلت فلم يقم اليك أن ترجع ، ولا تكلمه! لم يكن الصواب غير ما فعلته كله ، ولكن والله الذي لا اله الا هو لاخلقن جاهي ، ولانفقن مالي ، حتى أبلغ مكروه أبي عبيد الله . ثم جعل يضرب ظهرا لبطن ، ويضطرب يمينا وشمالا ، فلا يجد مساغا ، ثم ذكر القشيري ، وكان أبو عبيد الله اساء به وحجبه ، فاستحضره وقال قد علمت ما ركبك

به أبو عبيد الله ، فهل عندك في امــره حيلة ؟ قال له : ليس بجاهل فــي صناعته . وانه لاحذق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، لانه أعف الناس، حتى لو كان بنات المهدي في حجره لكان لهن موضعا ، وليس بمتهم بانحراف عن هذه الدولة ، لانه ليس يؤتي من ذلك ، وليس يتهم في دينه ، لان عقده وثيق ، ولكن هذا كله يجتمع لك في ابنه ، فقام الربيع ، فقبل عينه ، ومـــا زال يدس الى المهدي من يخبره خبر عبد اللــــه بن أبي عبيد الله . وكـــان المهدي قد جد في طلب الزنادقة ، وغلظ في امرهــم ، فقدم عليه بجماعـــة منهم ، في سنة ست وستين ومئة ، واحضر معهم وضاح الشروي ، وعبد الله بن ابي عبيد الله ، وكان اخذه بمكة ، فأدخل على المهدي ، فقال : أزنديق أنت ؟ قال : نعم ــ وممن يعتقد الزندقة قوم يرون أن جحد ما يدينون بـــه محظور ، وأن التقية غير جائزة ، وقد دخل هذا الخبر على أن عبد الله بن ابي عبيد الله منهم ــ فقال له المهدي : اقرأ ، فقرأ : « تباركـــت وعالموك بعظم الخلق » . فأشار الربيع على المهدي بمطالبة ابيه بقتله ، فقال المهدي لابي عبيد الله : اضرب عنقه ، فتنحى ، كأنه يريد أن يفعل ذلك ، فارتعـــد فقال له العباس بن محمد : يا أمير المؤمنين : شيخ كبير ، وله حرمة ، ويكفيك غيره ما اردته منه . وابو عبيد الله يقول لابنه : ما بهذا أدبتك ، ولقد علمتك كتاب الله عز وجل ! فأمر المهدي عبد الله بن أبي العباس الطوسي ، وكان يخلف أباه على الحرس ، بقتله ، فلما تنحى ليقتل صاح : يا أمير المؤمنين ، التوبة . فتغافل عنه المهدي ، فقال : عافية بن يزيد القاضي . انه يعرض بالتوبة ، يا أمير المؤمنين ، فأقبل عليه المهدي ، وقال : والله ما الله اردت بذلك ، انزعوا عمامته ، وجئوا في عنقه . فما زال يدفـــع ويوجأ في عنقه حتى اخرج ، وامضى عبد الله ابن أبي العباس ما أمر به من قتله ، فقتل ودفن ولم يستقبل به القبلة .

واحضر جملة من احضر من الزنادقة ابن لابي أيوب ، سليمان بـــن ايوب المكي ، فأقر بالزندقة وتاب ، فقبل المهدي توبته ، وامــر باطلاقه . وذلك في سنة ست وستين ومئة .

ولما قتل المهدي عبد الله بن ابي عبيد الله ، قال الربيع لبعض خدم المهدي : لك علي ثلاثة آلاف دينار ، ان فعلت شيئا لا يضرك ، قال له : وما هو ؟ قال : اذا دخل ابو عبيد الله الى المهدي ، فصار بحضرته ، قبضـــت على سيفه ، ومشيت الى جانبه ، فسينكر ذلك عليك أمير المؤمنين ، فتقول : يا أمير المؤمنين ، قتلت ابنه بالامس ، فكيف آمنه عليك ان يخلو بك ومعـــه سيفه اليوم ! ففعل ذلك الخادم ، فكان ذلك مما اوحش المهدي من ابـــي عبيـــد الله .

ومات ابان بن صدقة في سنة سبع وستين ومئة ، وهو على رسائل موسى بن المهدي بجرجان ، عند نفوذه الى الري .

المهدي ويعقوب ابن داود وأبو عبيد اللـه : وكان المهدي لما افضت الخلافة اليه أمر باطلاق من في السجون ، فأطلق منهم يعقوب بن داود بن طهمان ، وكان يعقوب كاتب ابراهيم ابن عبد الله بن حسن بن حسن ، وكان المنصور حبسه في المطبق ، وكان داود بن طهمان وأخوته كتابا لنصر بن سيار ، ولما مات داود نشأ ولده علي ويعقوب اهل ادب وفهم ، وافتنان في صنوف العلوم ؛ وكان علي ابن داود كتب لابراهيم بن عبد الله بن حسن ، وصحبه يعقوب بن داود ، ولم يزالا معه الى أن قتل ابراهيم بن عبد الله بن حسن ؛ فظفر بيعقوب ابن داود ، فحبسه أبو جعفر في المطبق ، في سنة اربع وأربعين ومئة ، وكان الحسن بن ابراهيم بن عبد الله معه في المطبق ، فسعى به يعقوب الى المهدي ، وذكر انه قد عمل سربا يهرب منه ، فبعث المهدي ، فوجد السرب ، فنقله الى نصير الوصيف ، فاحتيل له في الهرب ، فهرب من يده ؛ لان جماعة من الزيدية احتالت في هربه ، وصاروا به الى مدينة الرسول ؛ فتقدم المهدي الى يعقوب بطلبه ، فضمن له ذلك ، واستأذنه في رفع النصائح اليه ، فأذن له ، فداخله بذلك السبب ، وتثاقل ابو عبيد الله وادل ، وتمالأ يعقوب والربيع على أبي عبيد الله ، فجعلت حال يعقوب تزيد، وحال أبي عبيد الله تنقص ، الى ان سمى المهدي يعقوب اخا في الله ووزيرا، واخرج بذلك توقيعات تثبت في الدواوين ، ففي ذلك يقول سلم الخاسر :

قل للامام الذي جاءت خلافته ... تهدى اليه بحق غير مردود
نعم المعين على التقوى اعنت به ... أخوك في الله يعقوب بن داود

وحج المهدي سنة ستين ومئة ، ويعقوب بن داود معه ، فأخذ منه امانا للحسن بن عبد الله بن حسن ، واحضره اياه ، فاحسن اليه المهدي ، ووصله بمال ، واقطعه مالا من الصوافي (١) بالحجاز ، واحمد فعل يعقوب في ذلك .

وشكى الى المهدي في حجته هذه بعض عماله ، وسئل عزله ، فلم يفعل ، فلما صار ببعض الطريق ورد عليه خبر وفاته ، فقال : يا يعقوب ، عزله من هو أقوى على عزله منا .

ثم صرف المهدي ابا عبيد الله عن وزارته في سنة ثلاث وستين ومئة ، واقتصر به على ديوان الرسائل ، وكان يصل اليه على رسمه ، وغلب على

---

(١) هي الضياع التي يستخلصها السلطان لخاصته ، أو هي الاملاك والارض التي جلا عنها أهلها أو ماتوا ولا وارث لها ، وأحدها صافية .

أمره كله ووزارته يعقوب بن داود ، وجد المهدي في طلب الزنادقة ، وقلد عمر الكلواذاني طلبهم ، فظفر بجماعة منهم ، وظفر فيهم بيزيد بن الفيض ، كاتب المنصور ، فاقر بالزندقة ، فحبس ، وهرب من الحبس ، فلم يقدر عليه ، ثم عزل المهدي أبا عبيد الله عن ديوان الرسائل في سنة سبع وستين ومئة ، وقلده الربيع ، فاستخلف الربيع عليه سعيد بن واقد ، وكان أبو عبيد الله يصل الى المهدي على مرتبته ، رعاية لحرمته .

ومن حسن كلام ابي عبيد الله ما رواه عمرو بن بحر الجاحظ : « التماس السلامة بالسكوت ، اولى من التماس الحظ بالكلام ، وقمع نخوة الشرف ، اشد من قمع بطر الغنى ، والصبر على حقوق النعمة ، اصعب من الصبر على الم الحاجة ، وذل الفقر ، قاهر لعز الصبر ، كما أن عز الغني ، مانع من الانصاف ، الا لمن كان في غريزته فضل كرم ، وفي اعراقه مناسبة لعلو الهمة » .

وتفرد يعقوب بتدبير الامور كلها ، وتوفي عمر بن داود أخو يعقوب . وكان سبب ذلك انه خرج متنزها ، ومعه جماعة من اهله وأقاربه ، ومعه سفرة وفواكه ، فقدمت اليه سلة فيها عنب ، فأخذ منها حبتين ، فألقاهما في فيه ، فاعترضتا في حلقه ، فلم تنزلا ولم تصعدا حتى مات ، فرثاه ابن اخيه داود بن علي بن داود :

غدا صحيحا مع الاحياء مغتبطا	والآن ميتا بقربى اهله عمر
فاحتل قبرا لدى قبر ابوه به	يعلوهما نضد الاحجار والمدر
فما بقاؤك يا داود بعدهما	فاحذر حذار امرىءقد شفهالذعر
وراقب الله واعلم ان طاعته	هي النجاة اذا ما حوسب البشر

فذكر عبد الله بن يعقوب بن داود أن سفيان بن عيينة صار اليهم معزيا ، فكانت تعزيته أن انشد بيتا لعمران بن حطان :

كيف اعزيك والاحداث مقبلة	فيها لكل امرىء من نفسه شغل

وكان عبد الله بن يعقوب بن داود احد الادباء والشعراء ، وله ابنان يقولان الشعر ، يقال لاحدهما محمد ، والاخر عبيد الله ، فمن قول محمد ابن عبد الله بن يعقوب :

وزع المشيب شراستي وغرامي	ومرى الجفون بمسبل سجام
ولقد حرصتبأن اواريشخصه	عن مقلتي فرمت صعب مرام
وصبغت ما صبغ الزمان فلم يدم	صبغي ودامت صبغة الايام
لا تبعدن شبيبة ذيالة	فارقتها في سالف الايام
ما كان ما استصحبت من أيامها	الا كبعض طوارق الاحلام

ومن قول عبيد الله بن عبد الله بن يعقوب :

سأصبر حرا لم يضق عنه صبره　　وان كان قد ضاقت عليه مذاهبه
فان الغمام الغمر يخلف حالها　　وان الحسام العضب تنبو مضاربه

قتل بشار بن برد : وذكر خالد بن يزيد بن وهب بن جرير ان اباه حدثه: ان بشار بن برد هجا صالح بن داود اخا يعقوب حين ولي ، فقال :

هم حملوا فوق المنابر صالحا　　أخاك فضجت من اخيك المنابر

فبلغ يعقوب بن داود هجاؤه ، فدخل على المهدي ، فقال له : يا امير المؤمنين ، ان هذا الاعمى المشرك قد هجا امير المؤمنين ، قال : وما قال ؟ فقال : يعفني أمير المؤمنين من انشاده ذلك ، فابى عليه ، وراجعه ، ولم يزل به الى ان أنشده :

خليفة يزني بعماته　　يلعب بالدبوق والصولجان
أبدلنا الله به غيره　　ودس موسى في حر الخيزران

فقال له : وجه في حمله ، فخاف يعقوب أن يقدم على المهدي فيمدحه ، فيعفو عنه ، فوجه اليه من القاه في البطائح ، وقيل : لم يغرق في البطائح ، ولكن قتله في طريقه .

احداث واخبار : ولما أستقام امر يعقوب ارسل الى الزيدية جميعا ، فاتى بهم من كل ناحية ، فولاهم امور الخلافة ، في الشرق والغرب ، وكان هذا مما عتب به عليه .

وكان أبو عبيد الله يضبط أمور المهدي ، ويشير عليه بالاقتصاد ، وحفظ الاموال ، وكان ابو جعفر خلف في بيوت الاموال عند وفاته تسع مئة الف الف درهم ، وستين الف الف درهم ، فلما صرف المهدي ابا عبيد الله عن وزارته ، وقلدها يعقوب ، زين له هواه ، فأنفق المال ، واكب على اللذات والشرب وسماع الغناء ، ففي ذلك يقول بشار :

بني أمية هبوا طال نومكم　　ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا　　خليفة الله بين الزق والعود

وذكر المفضل العمري :

ان المهدي حج في بعض السنين ، فمر بميل (١) وعليه مكتوب فوقف فقراه ، واذا هو :

لله درك يا مهدي من رجل　　لولا اتخاذك يعقوب بن داود

فقال لمن معه : اكتب تحته : «على رغم أنف الكاتب هذا ، وتعسا لجده» فلما انصرف وقف على الميل ، فقلنا انه لم يقف عليه الا لشيء قد علق بقلبه

---

(١) الميل : منار يبنى للمسافر في الطريق .

من ذلك الشعر ؛ وكان كذلك ، لانه أوقع بيعقوب بعد قليل ، وكثرت الاقوال في يعقوب ، ووجد أعداؤه مقالا فيه ، فقالوا ، وذكروا للمهدي خروجه على المنصور مع ابراهيم بن الحسن ، وعرفه بعض خدمه انه سمع يعقوب وهو يقول : بنى هذا الرجل متنزها أنفق عليه خمسين الف الف درهم ، من أموال المسلمين ، وكان القائل لهذا القول احمد بن اسماعيل ، صهر يعقوب بن داود ، وكان المهدي بنى عيسا باذ .

واراد المهدي امرا ، فقال له يعقوب : هذا يأمير المؤمنين السرف ، فقال : ويلك ! وهل يحسن السرف الا باهل الشرف ! ويلك يا يعقوب ، لولا الاسراف لم يعرف المقتر من المكثر .

قال محمد بن عبيد الله النوفلي ، قال : لي أبي ؟ قال لي يعقوب :

كان المهدي لا يشرب النبيذ الا تحرجا ، ولكنه كان لا يشتهيه ، وكان اصحابه عمر بن بزيع والمعلي مولاه ومواليه يشربون عنده ، بحيث يراهم ، قال : وكنت اعظه في سقيهم النبيذ ، وفي السماع ، وكان يقول : هذا عبد الله بن جعفر . قال : قلت ، ليس هذا من حسناته ، لو ان رجلا سمع كل يوم ، هل كان يزيده قربة من الله عز وجل أو بعدا .

وكان يعقوب قد ضجر بموضعه ، وتاب الى الله مما هو فيه ، واستقاله وقدم النية في ترك موضعه ، فكان يقول : والله يا أمير المؤمنين لشربة خمر أشربها أتوب الى الله منها أحب الي مما انا فيه ، واني لاركب اليك فأتمنى يدا خاطئة تصيبني فاعفني ، وول من شئت . فأني احب ان اسلم عليك انا وولدي ، ووالله اني لاتقرع (١) في الليل منذ وليتني امور المسلمين ، وليس دنياك بعوض من آخرتي .

قال : فكان المهدي يقول له : اللهم غفرا ! اللهم اصلح قلبه .

ثم اراد المهدي ان يمتحنه في ميله الى العلوية ، فدعا به يوما وهو في مجلس ، فرشه موردة ،وعليه ثياب موردة ، وعلى رأسه جارية عليها ثياب موردة ، وهو مشرف على بستان ، فيه شجر قد ورد صنوف الاوردا ، فقال له : يا يعقوب ، كيف ترى مجلسنا هذا ؟ قال : على غاية الحسن ، فمتع الله امير المؤمنين به ، وهنأه اياه ، فقال له : جميع ما فيه لك ، وهذه الجارية لك ، ليتم سرورك ، وقد أمرت لك بمئة الف درهم ، ففرقها في بعض شأنك ، فدعا بما يجب ، وقال له : لي اليك حاجة ، فقام قائما ، وقال :

---

(١) اتقرع : انقلب لا انام .

ياامير المؤمنين ، ما هذا القول الا لموجدة ، وأنا أستعيذ بالله من سخطك ، فقال له : احب أن تضمن لي قضاءها ، فقال : السمع والطاعة ! فقال له : والله ، فقال : والله ثلاثا ، فقال له ضع يدك على راسي واحلف به ، ففعل ذلك . فلما استوثق منه ، قال له : هذا فلان بن فلان ، رجل من العلوية ، أحب ان تكفيني مئونته ، وتريحني منه ، فخذه اليك ، فحوله اليه ، وحمل الجارية وما كان في المجلس والمال ، فلشدة سروره بالجارية ، جعلها في مجلس تقرب منه ، ليصل اليها ، ووجه فأحضر العلوي ، فوجده لبيبا فهما ، فقال له : ويحك يا يعقوب ! تلقى الله بدمي وانا رجل من ولد فاطمة رضي الله عنها بنت محمد صلى الله عليه وسلم ! فقال له يعقوب : يا هذا ، افيك خير ؟ قال : ان فعلت بي خيرا شكرت ، ودعوت لك واستغفرت ، فقال له : خذ هذا المال ، وخذ أي طريق شئت ؟ فقال له : طريق كذا وكذا آمن لي ، فقال له : امض مصاحبا . وسمعت الجارية الكلام كله ، فوجهت الى المهدي مع بعض خدمه به ، فوجه المهدي ، فشحن (١) الطريق ، حتى ظفر بالعلوي وبالمال ، ثم وجه الى يعقوب فأحضره ، فلما رآه قال له : ما حال الرجل ؟ قال : قد أراحك الله منه ، قال : مات ؟ قال : نعم ، قال : والله ، قال : والله ، قال : فضع يدك على راسي ، فوضع يده على راسه ، وحلف له به فقال : يا غلام ، اخرج الينا من في هذا البيت . ففتح بابه عن العلوي والمال بعينه ، فبقي يعقوب متميزا ، وامتنع الكلام عليه ، فما درى ما يقول . فقال له المهدي : لقد حل لي دمك ، ولو آثرت اراقته لارقته ، ولكن أحبسوه في المطبق ، فحبسه في مطبق اتخذه له . وامر بأن يطوى خبره عنه ، وعن كل احد . فأقام من أيام المهدي سنتين وشهورا ، وجميع أيام الهادي ، وخمس سنين وشهرين من أيام الرشيد . ثم ذكر يحيى بن خالد الرشيد بأمره ، وشفع اليه فيه ، فأمره باخراجه ، فأخرج وقد ذهب بصره ، فأحسن اليه الرشيد ، ورد اليه ماله ، واختار المقام بمكة ، فأذن له في ذلك ، فأقام بها حتى مات في سنة سبع وثمانين ومئة .

وليعقوب بن داود شعر صالح ، ومنه ما قاله عند مقامه بمكة ، انشده جرير بن أبي دواد (٢) ، قال : أنشدني سعيد بن يعقوب :

طلق الدنيا ثلاثا   واطلب زوجا سواها

---

(١) ملأ الطريق بالرجال ليأخذوا العلوى .

(٢) هو جرير بن أحمد بن أبي داود .

انهــا زوجــة ســـوء ‏ لا تبــالي ممــن أتــاها

وانشد له ايضا :

قليــل الهم ، لا ولد يموت ، ‏ ولا مــال تحــاذره يفــوت
رضي البال ، ليس له عيــال ‏ سليم من رزيــت ومن بليــت
قضى وطر الصبا ، وافاد علما ‏ فهمته التفكــر والسكــوت
واكثــرهم من يمشــي عليهــا ‏ اذا فتشــتهم ، خلــق وقــوت

وحكي ان المهدي قال ليعقوب وقد دخل اليه : يا يعقوب ، قال : لبيك يا أمير المؤمنين ، تلبية مكروب بغضبك ! فقال : الم ارفع من ذكرك وانــت خامل ، واعل من قدرك وانت غافل ، وألبسك من نعم الله ما لم اجــد لك بحمله يدين من الشكر ؟ فكيف رأيت الله اظهر عليك ، ورد كيــدك اليك ؟ فقال : يا امير المؤمنين ، ان كان ذلك بعلمك فتصديق معترف ومذنب ، وان كان بما كسبته نمائم الباغين ، فعائذ بفضلك ، فقال : واللــه لالبسنك من الموت تميصا لا يخلق الدهر جديده ، يا غلام ، المطبق . فولى وهو يقول : المودة رحم ، والوفاء كرم ، وانت بهما جدير .

قال ميمون بن هارون : أخبرني ابو الحسن عمر بن خلف الباهلي : ان يعقوب بن داود لما أطلق ، سأل عن جماعة من اخوانــه واصحابه ، فخبر بوفاتهم ، فقال :

لكل أناس مقبــر بفنــائهم ‏ فهم ينقصون والقبــور تزيــد
فما ان تزال دار حي قد اخلقت ‏ وقبر لميــت بالفناء جديـــد
هم جيرة الاحيــاء : أما محلهم ‏ فدان ، وأمـــا الملتقى فبعيــد

وكان المهدي وهب لابن يعقوب بن داود جارية ، فدخل عليه في غــد اليوم الذي حولت فيه اليه . فقال : كيف الجارية يا فلان ؟ فقال : ما وضعت بين الارض وبيني اوطأ منها ، حاشا سامع . فأقبل المهدي على ابيه فقال : تراه أينا يعني ؟ فقال له يعقوب : يا امير المؤمنين ، الاحمق يحفظ من كــل شيء الا من نفسه .

وامر المهدي بعزل اصحاب يعقوب جميعا من الاعمــال ، في الشرق والغرب ، وأن يحبس جميع أهل بيته واقاربه ، فقال ابو الشيص :

أبلغ امام الهدى ان لست مطنعا ‏ للناصئبــات كيعقــوب بن داود
امسى يقيــك بنفس قد حباك بها ‏ والجود بالنفس أقصى غاية الجود
نصبت للنــاس يعقوبا فقومهــم ‏ كما الثقــاف مقيــم كــل تأويــد
لو تبتغي مثلــه في النــاس كلهم ‏ طلبت ما ليس في الدنيا بموجــود

وقال أبو حنش حصين بن قيس ، وكان يصحب يعقوب ويخدمه :

يعقوب لا تبعد وجنبــت الردى ‏ فلأبكين زمانــك الرطــب الثرى

وأرى رجالا ينهشـونك بعدما أغنيتهم من فاقـة كل الغنـى
لو ان خيـرك كان شـرا كلـه عند الذين عـدوا عليك لما عـدا

الفيض في وزارة المهدي : واستورز المهـدي بعد يعقـوب بن داود الفيض بن ابي صالح ، واسم ابي‌صالح شيروية ، وكان سخيا سريا ، كثير الافضال ، واسع الحال ، وكان متكبرا متجبرا مترفعا ، فحكي انه دخل على الرشيد فمد يده ليقبلها : فلم ينكب عليها ورفعها الى فيه ، فقبلها ، فقـال الرشـيد : لولا لؤمه وحمقه لقتلته . وفيه يقول بعض الشعراء :

صيرت ودك اذ ظفـرت به بيني وبين نوائـب الدهر

وذكر يعقوب بن اسحاق الكنـدي انه سمع يحيى بن خالد ، وذكـر الفيض بن أبي صالح ، فقال : كان يعلم الناس الكرم .

وكان يحيى يهضم نفسه اذا استكثر شيء يكون منـه من الجود ، ويقول : فكيف لو رايتم الفيض بن ابي صالح !

وقال ابو الاسد ألتميمي ، واسمـه نباتة (١) من بني حمان يمـدح الفيض بن أبي صالح :

ولائمة لامتك يا فيض في النـدى فقلت لها هل يقدح اللوم في البحر
أرادت لتثني الفيض‌عن عادة الندى ومن ذا الذي‌يثني السحاب‌عن القطر
مواقع جود الفيض في كل بلـدة مواقع ماء المزن في البلـد القفـر
كأن وفـود الفيض حين تحملـوا الى الفيض لاقوا عنده ليلـة القدر

وحدثنا ولد علي بن الحسين عنه :

أن الفيض بن أبي صالح ، وأحمد بن الجنيـد ، وجماعة من الكتاب والعمال ، خرجوا من دار الخليفة ، منصرفين الى منازلهم في يـوم وحل ، فتقدم الفيض ، وتلاه أحمد بن الجنيد ، فنضح دابة الفيض على ثياب أحمد ابن الجنيد من الوحل ، فقال أحمد للفيض : هذه والله مسايرة بغيضة . ولا أدري بأي حق وجب لك التقدم علينا ، فلم يجبه الفيض عن ذلـك بشيء ، ووجه اليه عند مصيره الى منزله بمئة تخت ، وفي كل تخت قميص وسراويل ومبطنة وطيلسان وعمامة أو شاشية ، وقال لرسوله : قل له : وجب لنـا التقدم عليك أن لنا مثل هذا ، نوجه به اليك عوضا مما افسدناه من ثيابك ، فان كان لك مثله فلك التقدم علينا ، والا فنحن أحق بالتقدم منك .

وحدثنا ولد علي بن الحسين عنه :

أن داود كاتب ام جعفر حبس وكيلا لها، وجب عليه من حساب رفعه، عن

---

(١) هو نباتة بن عبد الله الحمانى ، من شعراء الدولة العباسية .

ضياع تتقلدها من ضياعها ، مئتا ألف درهم ، فكتب الوكيل الى عيسى بن داود ، وسهل بن الصباح المدائني ، وكانا صديقين له ، يسألهما مسألة داود في أمره ، فركبا اليه ، فلقيهما الفيض في طريقهما ، فسألهما عن مقصدهما ، فخبراه به . فقال : اتحبان ان اساعدكما ؟ فقالا : نعم ، فصار معهما الى داود . فكلموه ، فكتب الى أم جعفر بخبرهم ، وما قصدوا له ، فوقعت في الرقعة : انه لا سبيل الى اطلاقه الا بأداء المال ، فأقرأهم داود الرقعة ، واعتذر اليهم ، فعزم عيسى على القيام ، فقال له الفيض بن ابي صالح : كأنا انما جئنا لنوكد حبس الرجل ! لا والله ، ولكنا نؤدي المال عنه ، ثم أخذ الدواة وكتب الى وكيله في حمل المال عن الرجل ، كتابا دفعه الى داود كاتب ام جعفر ، وقال له : قد أزحنا علتك في المال ، فادفع الينا صاحبنا ، فكتب الى أم جعفر بالخبر ، فوقعت انا أولى بهذه المكرمة من الفيض ، فأردد عليه كتابه ، وادفع اليه الرجل ، وامره الا يعاود الى مثل ما كان منه ، ولم يكن الفيض يعرف الرجل ، وانما ساعد عيسى وسهلا .

ووجدت بخط ميمون بن هارون :

إن الفيض بن ابي صالح أولى رجلا عرفا فشكره ، ثم كتب اليه الرجل يسأله حاجة ، فوقع على رقعته : أنت طالب مغنم ، وأنا دافع مغرم ، فان تشكر ما مضى ، فستعذر فيما بقي .

ابن يقطين وابن بزيع وغيرهما : وقلد المهدي علي بن يقطين الازمة على عمر بن بزيع ، وتضعضعت حال عمر بن بزيع ، وذلك في سنة ثمان وستين ومئة ، فصار علي زماما على الازمة ، واحسب ان من ذكر ان المهدي اول من احدث الازمة انما أراد أزمة على الازمة .

وكان يقطين من وجوه الدعاة .

وكان أبو الوزير عمر بن مطرف يتقلد للمهدي ديوان الخراج ، فاتصل بالمهدي أن أبا الوزير احتجم في يوم الخميس في ديوانه ، فأمر أن يجعل يوم الخميس للكتاب يستريحون فيه ، وينظرون في أمورهم ، ولا يحضرون الدواوين ، ويوم الجمعة للصلاة والعبادة ، فلم يزل الامر جاريا على ذلك ، الى أن كتب الفضل بن مروان للمعتصم ، فأزال ذلك الرسم ، واخذ الكتاب بالحضور يوم الخميس .

أيام موسى الهادي

وكانت وفاة المهدي والهادي مقيم بجرجان ، وهارون مع المهدي في عسكره فأنفذ هارون نصيرا مولاه على دواب البريد الى الهادي بالخبر ، وانفذ معه القضيب والبردة والخاتم ، وقفل الى العراق ، وقد كان الربيع قام بأمر البيعة ببغداد ، الى أن ورد موسى الهادي على دواب البريد ، ولا يعلم خليفة ركب دواب البريد غيره ، فورد معه من كتابه عبيد الله بن زياد بن ابي ليلى ، ومحمد بن جميل ، وقلد الربيع وزارته وتدبير أموره ، وما كان عمر بن بزيع يتولاه ؛ دواوين الازمة .

وقلد محمد بن جميل ديوان خراج العراقين ، وولى عبيد الله بن زياد ابن ابي ليلى ديوان خراج الشام وما يليها ، وولى عمر بن بزيع ديوان الرسائل . وقلد علي بن عيسى بن ماهان ديوان الجند ، الى ما كان يتولاه من حجابته ، ثم صرف الربيع عن الوزارة ، وقلدها ابراهيم بن ذكوان الحراني الاعور ، واقر الربيع على دواوين الازمة ، فلم يزل عليها الى أن توفي في سنة تسع وستين ومئة ، وكانت وفاته وسنه ثمان وخمسون سنة ، وصلى عليه الرشيد وهو ولي عهد ، وقلد موسى ديوان الازمة ابراهيم بن ذكوان الحراني ايضا .

وكان ابراهيم خاصا بالمهدي ، فلما انفذ المهدي موسى الى جرجان ، انفذ معه ابراهيم الحراني ، فخص بموسى ، ولطف موقعه منه ، واتصل بالمهدي عنه أشياء ، يزيد فيها عليه أعداؤه ويكثرون ، فكتب الى موسى في حمله اليه ، فضن به ، ودافع عنه ، وتعلل في حمله ، فكتب : ان لم تحمله خلعتك من العهد ، واسقطت منزلتك ، ونلتك بكل ما تكره . فلم يجد موسى بدا من حمله ، فحمله مع بعض خدمه مكرما مرفها ، وقال له : اذا دنوت من محل المهدي فقيده ، واحمله في محمل بغير وطاء ، وأدخله اليه بهذه الصورة فامتثل الخادم ما امره به في ذلك . واتفق أن ورد العسكر والمهدي يريد

الركوب ، وهو اذ ذاك « بالرد والدار » (١) ، فبصر بالموكب ، فسأل عنه ، فقيل : خادم موسى ومعه ابراهيم الحراني ، فقال : وما حاجتنا الى الصيد ، وهل صيد أطيب من صيد ابراهيم ؟ علي به ، قال ابراهيم فادنيت منه وهو على ظهر فرسه ، فقال : ابراهيم ! والله لاقتلنك ، ثم والله لاقتلنك ، ثم والله لاقتلنك ، امض به يا خادم الى المضرب (٢) الى ان أنصرف ، فصار بي الى المضرب . وقد يئست من نفسي ، ففزعت الى الله جل وعز بالدعاء والصلاة ، وانصرف المهدي ، فأكل من اللوز ينج المسموم ، المشهور خبره ، فمات من وقته . ويقال من الكمثرى ، وتخلصت .

وقلد ابراهيم الحراني اسماعيل بن صبيح ديوان زمام الشام وما يليها ، بشفاعة يحيى بن خالد اليه ، لان اسماعيل كان كاتبه ، فأحب أن يضعه بموضع يستعلم منه ما يريد ، فرفع الى موسى الخبر ان يحيى شفع الى ابراهيم الحراني ، حتى استكتب اسماعيل ، فهو ينقل الاخبار ، فيؤديها الى هارون ، وكان اسماعيل بن صبيح يكتب قبل يحيى لابي عبيد الله ، وعرف يحيى الخبر ، فبادر بالمشورة على اسماعيل بالخروج الى حران ، فخرج اليها ، واستخلف ابراهيم يحيى بن سليمان على جميع الازمة ، فلما خاطبه موسى بسببه ، اعلمه انه بحران .

وتوفي عبيد الله بن زياد بن أبي ليلى في سنة تسع وستين ومئة ، فقلد عمله بن جميل الى ما كان يتقلد ، وامر موسى يحيى بن خالد ان يقوم بأمر هارون اخيه ، واقره على كتابته وعلى تدبير الاعمال التي كانت اليه .

وكان ليقطين بن موسى كاتب من اهل النهروان ، يعرف بازدانقاذار ويكنى أبا خالد ، فحكى الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين » ان لكنة ازدانقاذار كانت لكنة نبطية قبيحة ، وانه امل على كتاب له : « والهاصل الف كر » فكتبها الكاتب بالهاء على لفظه ، فأنكر ذلك ، فلم يفهم عنه الكاتب ، فلما راى اجتماعهما على الجهل . قال : انت لا تهسن تكتب ، وانا لا اهسن أملي ، فاكتب : الجاصل الف كر ، فكتبها بالجيم معجمة .

---

(١) اسم الموضع الذي خرج فيه المهدي للصيد .

(٢) المضرب : الفسطاط العظيم ، وقيل هو فسطاط الملك .

وحكي أن الهادي سخط على بعض كتابه ، ولم يسم لنا الكاتب ، فجعل يقرعه بذنوبه ، ويتهدده ويتوعده ، فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين ، ان اعتذاري فيما تقرعني به رد عليك ، واقراري بما بلغك يوجب ذنبا علي لم أجنه ، ولكني اقول :

فان كنت ترجو في العقوبة رحمة فلا تزهدن عند المعافاة في الاجر

فصفح عنه ، وأحسن اليه .

الهادي وهارون الرشيد : ثم تنكر موسى لهارون الرشيد ، وعمل على خلعه ، وتقليد ابنه جعفر ابن موسى ، وهو طفل ، فعزم هارون على اجابته، فمنعه يحيى بن خالد ، فبذل له موسى « الهنى والمرى » من أعمال الرقة ، فقال هارون ليحيى : اذا نزلت على « الهنى والمرى » وخلوت بابنة عمي ، يعني أم جعفر ، وكان يجد بها وجدا شديدا ، فما أريد شيئا . فقال يحيى : انها الخلافة ، ولعل ما تقدر انه يبقى لك لا يبقى ، ولم يزل به حتى ثبته . فدعا موسى يوما بيحيى ، فلما دخل عليه اكرمه ، ورفق به ، فقال له : انت الذي يقول فيك القائل :

لو يمس البخيل راحـة يحيى اسمحت كفـه ببـذل النـوال

فقال له : تلك راحتك يا أمير المؤمنين ، وقبل يده ورجليه ، فأمر لـه باقطاع ، ووصله بعشرين الف دينار ، ثم ناظره في خلع هارون ، فقال له : يا امير المؤمنين انك ان حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم ايمانهم وجراتهم على حل العقود التي تعقد عليهم ، ولو تركت الامر في بيعة اخيك بحاله ، وبويع لجعفر من بعده ، كان ذلك اوكد لبيعته ، فقال له : صدقت ونصحت . وأنا أنظر في هذا ، ثم صرفه . ثم لم تطب نفسه ، فدعا بيحيى فحبسه ، فتلطف في أن يدعو به ويخليه ، ففعل ذلك ، فلما خلا به قال : يا امير المؤمنين ، ارايت ان كان ما نعوذ بالله منه قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعت هارون ، هل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم ؟ قال : لا ، قال فدع هذا الامـر حتى يبلغ جعفر ، فاذا بلغنا الله ذلك ، فعلي أن آخذ بيد هارون حتى يبايعه عفوا ، والله والله يأمير المؤمنين ، فانك ان فعلت هذا ، وحدث ما نعوذ منه، وثب على هذا الامر اكابر اهلك ، وخرج الامر عن ولد أبيك ، ووالله لو لم يعتقد المهدي لهارون ، لوجب ان تعقد له ، ليكون في بني أبيك ، فشكر منـه هذا القول ، واطلقه .

واصيب ابراهيم الحراني بابن له ، فجزع عليه فعزاه موسى الهادي عنه ، فقال له سرك وهو بلية وفتنة ، وحزنك وهو ثواب ورحمة .

وراى رجل من الموالي في ايام الهادي — ويحيى بن خالد على غاية من الخوف والوجل منه بسبب هارون — ليحيى رؤيا سارة ؛ فشاور أباه في تعريفه اياها ، فأشار عليه ألا يفعل ، فعصى أباه ، وقصد يحيى ، فاستأذن عليه ، فقص الرؤيا ؛ وقال : فلما فرغت من الرؤيا ، قال : يا بني ، ما أحسن بالرجل أن يلتمس الرزق من احسن الوجوه ! واقبح به ان يلتمس الرزق بهذا وما اشبهه ! قال : فخرجت من عنده وقد سقط وجهي ، فاتيت ابي فأعلمته الخبر ، فقال لي : بعدا وسحقا ! نصحت لك فلم تقبل . قال : واقبلت انا وابي نشتمه ونسبه ؛ فلم يمض الا مديدة يسيرة ، حتى افضى الامر الى الرشيد ، وبلغ يحيى ما بلغ ، قال : فبينا انا واقف يوما مرّ بي موكبه ، فبصر بي ، فوجه فاحضرني ، فدخلت اليه وهو على كرسي لم ينزع ثياب ركوبه ، فقال لي : أين غبت عنا ؟ فقلت له : اصلحك الله ، ما لقيت منك ما يدعو الى اتيانك ! فقال : ويحك ! انك اتيتنا ونحن في حال نتخوف الجدران ان تسيء بنا ، والاخوان فيها ان يحتالوا علينا ، فلم يكن الراي الا ما احببناك به ، وما فارقتنا العناية بك ، والايجاب لحقك ، ثم امر له بعشرة الاف درهم ، وكتب الى سليمان بن راشد ، وكان عامله بأرمينية ، فأمر له ببغال خلع ، قال : فصرت انا وابي وجميع أهلي ندعو له ، بدلا مما كنا نشتمه ، وقصدت سليمان بن راشد وقد تدم اليه يحيى الخبر ، فتلقاني بقائد من قواده في جماعة من الجند ، فلما وصلت اليه ، وجه الي ببغال ودواب وتخوت ثياب ، ثم غدوت الى سليمان ، فقال : قد كتب الي ابو علي أعزه الله بحالك عنده ، وها هنا « بشرى » وبشرى من أجل أعمالنا ، فان شئت أن تخرج اليها فاخرج ، وان شئت فهاهنا من يبذل عنها خمس مئة الف درهم ، قال ، فقلت تعجل ما يبذل ها هنا أحب الي ، وخرجت من عنده ، فلم البث أن وجه الي من وفاني المال ، ووهب لي سليمان من ماله خمسين الف درهم ، فقبضت المال ، وانصرفت الى حضرة يحيى ، فوجهت اليه ببعض تلك الطرف ، فأبى أن يقبلها ، وتبسم في وجهي ، وقال : انا لم نوجهك لننتفع بك ، وانما وجهناك لننفعك ، وقد وفر الله عليك مالك ، وسيتصل معروفنا عندك ، فالزمنا . قال فلزمته ، فلم تفرق الايام بيننا حتى كسبت به عشرين الف درهم .

وقائع واخبار : وذكر ابن داب ، وكان خاصا بموسى :

انه دخل عليه يوما ، وهو على فراش : فجلس وعليه قميص ، محلولة ازراره ، محمرة عيناه ، فعلمت انه كان احيا ليلته ، فسلمت ، فرد السلام ، وأمرني بالجلوس ، ثم قال : هل نروي في السقي شيئا ؟ قلت : نعم يا امير المؤمنين ، كان اخوة من بني كنانة يسبئون الخمر من الشام ، وينتجعونها ويجتمعون عليها ، فمات أحدهم فدفنوه ، فكانوا يجتمعون حول قبره ويشربون

ويصبون على قبره قدحه ، فقال واحد منهم :

لا تصــــرد هامه من شــــربها	اسقه الخمــر وان كان قبــر
اسق اوصـــالا وهاما وصـــدى	ناشـفا ينشـــغ مثــل المنهمــر
كان حيا فهوى فيمـــن هـــوى	كل عــود ذو فنـــون ينكســـر

فقال : أحسنت ، وامر لي بثلاثين الف دينار ، ووقع الى ابراهيم ابن ذكوان الحراني ، فصرت الى ابراهيــم ، فأوصلت اليه التوقيع ، فأكثــر التعجب ، فقلت : ما يعجبك من هذا ؟ اتضع امير المؤمنين ان يصل بمثلها ؟ قال : لا ، قلت افتضعني عن ان استحق مثلها ؟ قال : لا ، فهل لك في عشرة الاف دينار . فقلت : ولم انقصك ؟ هل غبنته فأنقصك الربح ؟ لا ، واللــه ما آخذ الا ما أمر لي به ، وتراجعنا الكلام ببعض الغلظة ، فخرقت التوقيع وقلت : والله لا ذكرت ذلك حتى يذكره ، فوالله ما ذكره ، ولا احدث شيئا ، ومات . فذهب المال مني .

وذكر مخارق عن ابراهيم الموصلي :

انه كان مع الهادي يوما ، وهو يتصيد ، وانقطع الوتر ، فاغتم لذلك، وتطير منه ، وضجر ، فنزل عمر بن بزيع ، اذ ذاك يكتب له ، فوقف بيــن يديه ، ثم قبل الارض ، وحمد الله ، فقال له موسى : اي موقف حمد هذا ؟ فقال له : الحمد لله على ان كانت العين بالقوس ، ولم تكن بأمير المؤمنين ، فسرى عنه ، وحسن موقع ما كان من عمر ، ووصله .

وكان الهادي يشتهي سماع قصيدة ابن قيس الرقيات التي أولها :

عاد له من كثيــرة الطــرب	فعينــه بالدمـــــوع تنسكــب

ويستحســن رؤيها ، ويحب أن يمدح بمثلها ، فقال عمر بن بزيع لسلم الخاسر ذلك ، وامره أن يقول في نحوها شيئا يمدحه به ، ويصفه فيــه ، فقال سلم :

يممت موسى الامــام مرتغبــا	أرجو نــداه والخيــر مطلــب
فرع قــريش عـــزا ومكرمـــة	وانظــم الناس حيــن ينتسب
لولا هداكــم وفضــل اولكــم	لم تدر ما اصل دينها العــرب

فعرضها عمر بن بزيع على الهادي ، فاستحسنها ، ووصله بثلاث مئة الف درهم ، فقال : انما وفرت صلته للبيت الاخير .

الهادي والرشيد وقصة الخاتم : وكــان المهدي وهب للرشيد خاتمــا نفيسا ، له قيمة جليلة ، فلما استخلــف موسى ، وانحرف عن هــارون ، لامتناعه من خلع نفسه ، طلب الخاتم منه ، فدفعه عنه ، فاحضر يحيى بن

خالد ، فقال له : ان لم يحضرني الخاتم قتلتك ، وكان فظا قاسيا غير مأمون على وفاء بوعد ، فصار الى هارون وهو في قصره بالخلد ، فاشار عليه ان يدفع الخاتم اليه ، وتلطف له ، ورفق به ، فأقام على الامتناع ، والح يحيى ، وعرفه ما توعده به ، فقال له ، فانا أصير به اليه ، وركب من الخلد ، يريد عيسا باذ ، وموسى مقيم بها ، فلما صار الى الجسر ، وتوسط دجلة ، رمى الخاتم فيها ، وانصرف ، فقال : يفعل الان ما يشاء ، فبلغ ذلك موسى ، فاغتاظ عليه ، وعلم أنه لا ذنب ليحيى ، وأنه قد اجتهد وناصح ، فلم يطعمه هارون ، ولم يعرض له .

ولما توفي موسى واستخلف هارون ، ركب وفي يده خاتم لا قدر له ، فلما صار الى الموضع الذي رمى بذلك الخاتم فيه ، رمى بالخاتم الذي كان معه ، ووقف مكانه ، وامر باحضاره الغاصة ، فلم يزالوا يطلبون حتى وجد الخاتم الاول سليما ، وكان يتختم به ، وتفاءل بوجوده ، وكان احب خواتيمه اليه ، وكان اكثر ما يلبس منها هو .

هم الهادي بقتل يحيى : ثم حرك موسى ، واجتمع اليه جماعة من القواد ، منهم المعروف بأبي هريرة القائد ، واسمه محمد بن فروخ ، ومنهم يزيد بن مزيد ، وعبد الله بن مالك ، وعلي بن يقطين ، فطالبوا بأن يخلع هارون ، ويبايع جعفرا ابنه ، تقربا اليه ، ورغبة فيما يصل اليهم من الاعطاء وكان يحيى يمطله ويدافعه ، واعتل موسى علته التي مات فيها ، فدعا يحيى ليلة من الليالي ، وقال له : قد افسدت علي اخي ، والله لاقتلنك ، فقال ابراهيم بن ذكوان الحراني : يا امير المؤمنين ، ليحيى عندي اياد ، احب ان أكافئه عليها ، فأحب ان تهبه لي الليلة ، فقال : وما الدرك في هذا ، وانا على قتله ، قال : فتهبه لي الليلة وتحييه فيها ، وأنت في غد أعلم . فأجابه الى ذلك وامر بحبسه . قال يحيى : فحبست وقد ايقنت بالموت ، ويئست من نفسي ، فأنا مفكر في ليلتي ، ما يجيئني الغمض ، حتى سمعت صوت القفل ، فقدرت أن الحراني لما انصرف ، دعاني موسى ليقتلني ، فاذا بخادم يقول لي : السيدة تريدك . فأتيت الخيزران ، فقالت لي : أن هذا الرجل قد مات ، ونحن نساء ، فادخل فأصلح من أمره ، فدخلت ، فاذا بأمة العزيز (١) تبكي عند رأسه وهو ميت ، فغمضته ، وانطلقت الى الخلد أريد الرشيد ، فلما وصلت الى داره وجدته نائما ، وتلقاني خادم ، فقال : ولدت « مراجل »

---

(١) اسم جارية كانت للربيع ، ثم أهداها الى المهدي .

غلاما . فأتيت الرشيد ، فأنبهته ، فسر لي لما رآني ، وقال : ما الخبر ؟ فقلت له : لتهنئك الخلافة ، وغلام من « مراجل » ؛ وكان « عبد الله المأمون » وكانت ليلة مات فيها خليفة ، وولي فيها خليفة ، وولد خليفة ، وذلك في سنة سبعين ومئة . ودعا يحيى بيوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب ، فأمره ان يكتب بالخبر الى الآفاق ، ففعل ذلك .

قال اسحاق بن ابراهيم الموصلي :

قال لي الهادي يوما : غنني جنسا من الغناء اطرب له . ولك حكمك . فغناه :

وانى لتعروني لذكراك فترة   كما انتفض العصفور بلله القطر

قال : احسنت والله ، وضرب بيده الى جيب دراعته ، فحطه ذراعا ، وقال له : زدني ، فغناه :

فيا حبها زدني جوى كل ليلة   ويا سلوة الايام موعدك الحشر

فضرب بيده الى جيب دراعته ، فحطها ذراعا آخر . وقال : والله زدني . فغناه :

هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى   وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فقال : احسنت والله . وحط جميع دراعته ، وقال لي حكمك ، لله ابوك وامك . فما تريد ؟ فقلت له : اريد « عين مروان » بالمدينة ، فدارت عيناه في راسه ، حتى صارتا كأنهما جمرتان ، وقال لي : يا ابن اللخناء، أردت ان تشهرني بهذا المجلس ، فيقول الناس : اطربه فحكمه ، فتجعلني سمرا وحديثا ، ثم احضر ابراهيم بن ذكوان ، فلما حضر ، قال : يا ابراهيم ، خذ بيد هذا الجاهل ، فأدخله بيت مال الخاصة ، فان اخذ كل ما فيه فخله واياه ، فدخلت فأخذت خمسين الف دينار .

ايام هارون الرشيد

منزلة يحيى بن خالد عند الرشيد وأعماله : ولما تقلد هارون الخلافة دعا يحيى بن خالد ، وكان يخاطبه بالابوة ، وعلى ذلك اجراه في خلافته ، فقال له : يا ابة ، انت اجلستني هذا المجلس ببركة رايك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك امر الرعية ، واخرجته من عنقي اليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من رايت ، وافرض من رأيت ، وأسقط من رأيت ، فاني غير ناظر معك في شيء . فكان يحيى وأبناه الفضل وجعفر يجلسون للناس جلوسا عاما في كل يوم ، الى انتصاف النهار ، ينظرون في أمور النـــاس وحوائجهم ، لا يحجب أحد ، ولا يلقى لهم ستر . وقام يحيى بالامور ، وكان يعرض على الخيزران ، ويورد ويصـــدر عن امرها ، واحتفر القاطـــول ، واستخرج نهرا سماه أبا الحيل ، وانفق عليه عشرين الف الف درهم ، وقلد ثابت بن موسى ديوان العراقين وخراج الشام ، وامر باجراء القمح على أهل الحرمين ، وتقدم بحمله من مصر اليهم ، واجرى على المهاجرين والانصار ، وعلى وجوه أهل الامصار ، وعلى أهل الدين والآداب والمروءات ، واتخـــذ كتاتيب لليتامى . وكانت الدواوين كلها الى يحيى بن خالد مع الوزارة ، سوى ديوان الخاتم ، فانه كان الى أبي العباس الطوسي . وكان يحيى اول مـــن أمر من الوزراء ، وكان أول من زاد في الكتب : « واسأله ان يصلي على محمد عبده ورسوله » وأنشأ في ذلك كتابا ، وذكر فيه فضل الانبياء عليهم السلام .

وكان الرشيد ساخطا على ابراهيم بن ذكوان الحراني ، فحبسه وقبض امواله ، فحبسه يحيى في داره ، وكتمه عنه ، وتلطف الى أن استكتبه لمحمد بن سليمان بن أبي جعفر ، وكان يلي البصرة ، فأشخصه .

وامرت الخيزران أن يقتل من كان تسرع الى خلع الرشيد ، ودعا الى بيعة جعفر بن الهادي ، فقال لها يحيى : أوخير من ذك ، قالت : وما هو ؟ قال : يرمى بهم في نحور الاعداء ، فان دفعوا عن أنفسهم كان لهم في الدفع

عنها شغل ، وان أصابهم العدو كنت قد استرحت منهم ، فأذنت له في ذلك ، فتخلص القوم جميعا .

وكانت الكتب التي تنفذ من ديوان الخراج تؤرخ باسم يحيى ابن خالد ، ولم تكن تنفذ الا عن الخليفة ، وكان ابو العباس الطوسي يتعقد في ختم الكتب ، فشكا يحيى الى الرشيد تاخر الكتب ، فأمره أن يكاتب العمال عن نفسه ، وامر كاتبه أن يكتب عنه في المهم ، وأن يؤرخ الكتب باسم الكاتب . قال الفضل بن مروان : واحب الكاتب كان منصور بن زياد ، وقرب يحيى بن خالد منصور بن زياد هذا واختصه ، حتى كان الناس ربما توسلوا به في حوائجهم .

وكان من كتابه يوسف بن سليمان ، وأبو صالح يحيى بن عبد الرحمن ، ويحيى بن سليمان ، ومحمد بن اعين ، وعبد الله بن عبدة .

وحكي ان اصحاب الحوائج كانوا يكثرون القعود على دكان ، على باب يحيي بن خالد ، وكان يحيى اذا رآهم وقف عليهم ، ولقيهم يبشر وطلاقة وانه خرج يوما مبكرا ، فلم ير منهم أحدا ، فأنشد متمثلا :

وليس أخو الحاجات من بات نائما ... ولكن اخوها من يبيت على وجل

وكان يحيى بن خالد يقول : العجب للسلطان كيف يحسن ، ولو أساء كل الاساءة لوجد من يزكيه ، ويشهد بانه محسن .

وكتب جعفر بن محمد بن الاشعث الى يحيى بن خالد يستعفيه من العمل فقال في كتابه : « شكري لك على اخراجي مما احب الخروج منه ، شكر من نال الدخول فيه بك » .

وطالب يحيى أبا عبيد الله معاوية بن عبد الله وزير المهدي بالدخول في جملته ، ومشاركته في نعمته ، وقلده ديوان الرسائل ، وديوان الخاتم ، وديوان الزمام ، فابى ذلك ، وقال : قد كبرت سني ، ولا حاجة لي الى العمل فتركه وقال : هذا يظن ان الامور لا تتم الا به !

وفي يحيى يقول مروان بن ابي حفصة :

اذا بلغتنا العيس يحيى بن خالد ... أخذنا بحبل اليسر وانقطع العسر
سمت نحوه الابصار منا ودونه ... مفاوز تغتال النياق بها السفر
فان نشكر النعمى التي عمنا بها ... فحق علينا ما بقينا له الشكر

وفيه يقول ابو قابوس عمر بن سليمان الحيري :

رايت يحيى اتم الله نعمته ... عليه ياتي الذي لم ياته احد
ينسى الذي كان من معروفه ابدا ... الى الرجال ولا ينسى الذي يعد

وكان يحيى يقول لولده : لا بد لكم من كتاب وعمال وأعوان ، فاستعينوا بالاشراف ، واياكم وسفلة الناس ، فان النعمة على الاشراف أبقى ، وهي

بهم أحسن ، والمعروف عندهم أشهر ، والشكر منهم اكثر .

وكان ليحيى ابن يقال له ابراهيم ، وكان جميلا ، وكان يقال له لجماله دينار آل برمك ، فتوفي وسنه تسع عشرة سنة ، ووجد عليه يحيى ، واغتم به ، فقال أبو المنذر العروضي :

ما ارى حامليه حين أقلوا نعشه للثواء أو للقاء
فليقل فيك باكياتك ماشين صباحا وعند كل مساء
لا يعنفن في المقال ولكن مسعدات بذاك غير خفاء
كل حي رهن المنون ولكن ليس من مات منهم بسواء

وكان يحيى احضر مؤدب ابنه هذا ، ومن كان ضم اليه من كتابه وأصحابه ، فقال لهم : ما حال ابراهيم ؟ قالوا قد بلغ من الادب كذا ، قال : ونظر في كذا ، وقد اتخذنا له من الضياع كذا ، وبلغت غلته كذا ، قال : ما عن هذا سألت ، انما سألت : هل اتخذتم له في اعناق الرجال مننا ، وحببتموه الى الناس ؟ قالوا : لا ، قال : فبئس العشراء انتم ! وهو الى هذا أحوج مما فعلتم ، وتقدم بحمل خمس مئة الف درهم ، وامر بتفريقها في الناس .

حدثني عبد الواحد بن محمد ، قال حدثني ميمون بن هارون قال : حدثني اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، عن أبيه ، قال :

كتب الي وكيلي في الضيعة الفلانية ، في أمر ضيعة كانت تجاور ضيعتي تباع : قد انقطع امرها على أربعة الاف دينار ، وقد سألت صاحبها الانتظار علي الى ورود جواب كتابي ، فان أنت وجهت بالمال ، والا خرجت الضيعة عن يدك ، وورد علي الكتاب في الليلة التي صبحتها نوبتي في بيتي ، وكانت نوبة يحيى بن خالد في بيته ، الا انه كانت عاداتي الا أبرح في ذلك اليوم من بيتي ، وورد علي ما أسهرني ، لان المال لم يكن معي ، ولم اكن اقدر على احتياله في ذلك الوقت القريب . فضربت الارض ظهرا لبطن ، فلم اجد غير يحيى ، فركبت اليه ، واستأذن لي الحاجب ، فدخلت وفي يده المسواك ، فلما رآني سر وابتهج ، وقال : أحسنت والله ، احسنت والله ، اليوم نوبتي ونوبتك ، فنأخذ في أمرنا ، لا يدخل معنا غيرنا ، فقلت : يا سيدي ، الحمد لله الذي وفقني لمحبتك ، ولكني والله بكرت لغير ذاك . قال : وما هو ؟ قلت : كتب الي وكيلي البارحة بكذا وكذا ، ولا والله ان اقدر على المال ، وبكرت اسألك استسلافه لي من بعض المعاملين ، لترده من تحت يدك في رزقي ، قال : دعنا الان من هذا ، وهات يا غلام ما حضر ، فجيء بالطعام ، فأكلنا وانا كأنني آكل لحمي ، ثم رفع وجيء بالشراب ، وانا في فكري ، فلما كان وقت العصر وأنا قد يئست ، وعلمت ان الحيلة قد قلت ، واني احتاج أن احضر في غد الدار ، قال لي : ابراهيم ، أعندك صبية تغني ؟ قلت : لا

والله يا سيدي ؛ قال : ولا لبعض الجواري والاهل ؟ قلت : لا ؛ ثم ذكرت صبية لبعض امهات أولادي ، ما وضعت يدها على العود الا انها مطبوعة ، ولها حليق ، فقلت : صبية ريض ، وليست بشيء ، ووصفتها له ، وحقرتها عنده . قال : لا تبال ؛ هو ذا يبكر اليك من يطلبها منك ، فاياك وإياك أن تنقصها من مائة ألف دينار . قلت : يا سيدي ، انما قيمتها مئتا دينار . وقال لي : لو أنها تساوي درهما لا تنقصها من مائة ألف دينار ، واياك واياك أن تنقص من ذلك شيئا ؛ قال : فقلت في نفسي : هذا رجل قد غلب عليه النبيذ ، ولم يكن لحاجتي عنده موضع ، فهو يسخر مني ، فانصرفت مكروبا ؛ وغلب علي السهر الى وقت الصبح ، فهومت قليلا ، ثم قمت للصلاة ؛ وقد كنت استظهرت بأن ابتعت الصبية عند منصرفي من مولاتها بمائتي دينار ، وقلت للغلام لما صليت : هو ذا أنام ، فكل من جاء فاصرفه عني ، الا ان يجيء رجل من قصته كذا ، وقد كان يحيى وصفه ، فأنبهني له، ويئست من الضيعة ، وأخرجتها عن قلبي ، فما طلعت الشمس جدا حتى انبهني الغلام ، وقال : قد جاء الرجل ، فأذنت له ، وطلب الجارية ، فأخرجتها ، وساومني ، فاستمت مئة ألف دينار ، فاستكثر ذلك ، وأعطاني ثلاثين الف دينار ؛ وانا لست أصدق ، ثم لم يزل يزيدني حتى بلغ خمسين الف دينار ، فقلت : احضر المال ، فقال : ها هو ذا ، فحمله الي . ونسلم الجارية ، فحللت المال ، فأخرجت أربعة الاف دينار ، ووجهت بها الى الوكيل ، وتركته على جملته ، وقلت : لا بد للرجل من أن يرجع يسترده ، ويرد الجارية ، ولكن نحصل ثمن الضيعة ، ويقع النظر فيه ، وركبت الى دار السلطان ، فأقمت الى الليل ، وانصرفت ، فسألت عن الرجل ، فقيل لي لم يرجع ، فحمدت الله ، وبكرت الى يحيى فشكرته ، فلما رآني قال : هات حديثك ، فحدثته ، فقال : انا لله ! أي شيء عملت ؟ ذهبت منك خمسون الف دينار ! ثم أسر الى الغلام ، فمضى وجاء ومعه الجارية ، فقال : أتعرف هذه ؟ فقلت : نعم يا سيدي ، هذه التي منّ الله عز وجل بك علي في أمرها ، فقال : خذها ، وهو ذا يجيئك من يطلبها ، فلا تنقصها من خمسين الف دينار ، فأخذت بيدها ، وجاءني من يطلبها ، فبعتها منه بثلاثين الف دينار ، وعدت الى يحيى ، فسألني وخبرته ، فلا مني أيضا وشكرته ، وقلت استحييت من الله أن اخذ اكثر من هذا ، فأخرج الجارية ومعها كسوة وطيب ، بالوف دنانير ، وقال : قد تبركت لك بها ، فاتخذها لنفسك ، ففعلت ، فهي والله أم طياب ولدي ، قال : وقلت : ما قصة هؤلاء مع هذه الجارية ؟ قال : ويحك! اما الاول فخليفة صاحب مصر ، وهو مقيم على بابي منذ سنة ، يسألني مسألة أمير المؤمنين في حاجة بمئة الف دينار ، وانا لا اسأله ، فلما شكوت

الي ما شكوت ، قلت له : صبية عند ابراهيم ، اشترها لي منه ، ولو أبيت عليه الى مئة الف دينار لوزنها لك ، ولكنك ضيعت ، وأما الثاني فخليفة صاحب فارس ، وقصته قصة الاول . فدعوت له ، وشكرته وانصرفت .

وحكى يحيى بن خاقان قال :

كنت يوما عند يحيى بن خالد ، وبحضرته ابنه الفضل ، اذ دخل قوم مسلمون ، ودخل فيهم أحمد بن يزيد المعروف بابن ابي خالد ، فسلم وخرج ، فقال يحيى لابنه الفضل : لي في امر هذا الرجل خبر ، فاذا فرغنا من شغلنا فاذكرني لاعرفكه ، ثم فرغ من عمله ، وغسل يده ، ودعا بطعامه ، فلما اكل صدرا منه ، اذكره الفضل ما كان وعده ان يخبره به ، فقال له : نعم . كانت العطلة قد بلغت من ابي رحمه الله ومني ، وتوالت المحن علينا ، واخفقنا ، فقالت لي اهلي : اراك على نية الركوب ، قلت : نعم ، قالت : فاعلم ان هؤلاء الصبيان باتوا البارحة بأسوأ حال ، واني ما زلت اعللهم بما لا علالة فيه ، وما اصبحت ولهم شيء ، ولا لدابتك علف ، ولا لك ما تأكله ، اذا انصرفت ، فينبغي أن يكون ركوبك وطلبك بحسب هذه الحال . ففزعت قلبي ، وقطعتني عن الحركة ، ورميت بطرفي ، فلم أر شيئا أمد اليه يدا ، ورميت بوهمي ، فلم يقع الا على منديل طبري ، كان بعض الداريين اهداه لي ، فقلت لاهلي : ما فعل المنديل الطبري ، الذي اهدي الينا ؟ قالت : ها هوذا ، فاحضرته ، فأخذته وخرجت الى الغلام ، وهو مع دابتي ، فأمرته بادخال الدابة ، وقلت له : أخرج الى الشارع ، فبع هذا المنديل ، واقبل بثمنه ، فمضى وعاد من ساعته ، فقال : خرجت الى البقال الذي يعاملنا ، وعنده رجل يصرف دراهم ، فأعطاني اثني عشر درهما صحاحا ، ورأى صاحبنا البقال ان ابيعه منه بشرط ، وقد حضرت الدراهم ، فان أمضيت البيع ، والا أخرجت المنديل الى سوق قنطرة البردان ، فاستقصيت فيه وبعته ، فأمرته بامضاء البيع ، لحاجتي الى الغلام ، والحال التي عليها الصبيان ، وما حدثتني به المراة ، وأمرته ان يشتري علفا للدابة ، وما يحتاج اليه الصبيان في ذلك اليوم ، وركبت لا أدري أين أقصد ، فأنا في الشارع اذا انا بين يدي أبي هذا ، وهو خارج من درب ، ومعه موكب ضخم ، وهو يكتب يومئذ لابي عبيد الله كاتب المهدي ، فملت اليه ، ورميت نفسي عليه ، وقلت : قد تناهت العطلة باخيك وبي الى ما لا نهاية وراءه ، والى ما أجلك عن ذكره مع ما توجبه لنا ، فأنا أقصر قولا ولا اطيله ، علي وعلي ان لم تكن قصتي في يومي كيت وكيت ، وقصصت الخبر ، وخبر المنديل ، وهو مستمع لذلك ، ماض على سيره ، حتى بلغ مقصده ، وانصرفت عنه ، ولم

يقل لي درهما ، فانصرفت منكسف البال منكسرا ، منكرا على نفسي اسرافي في الشكوى ، واطلاعي اياه على ما اطلعته عليه من أمري ، فقلت : ما زدت على ان هجوت نفسي ، وقللتها في عينه ، من غير نفع ، ولو صبرت لاتى الله بما هو اهله . قال : ووافيت الى منزلي على حال انكرتها اهلي ، من الفكر ، فقالت لي ما حالك ؟ وما قصتك ؟ فقلت لها : جنيت اليوم جناية كنت عنها غنيا ! فقالت لي : وما هي ؟ قلت : لقيت يزيد الاحول الكاتب ، فقلت له: كيت وكيت ، فمضى ، فلم يجبني بحرف ، فذممت نفسي على خنوعها وبثها حالها الى من لا ينفعها ، قال : فاقبلت علي توبخني وتقول : ما حملك على ما فعلت ، وان اظهرت للرجل من ذلك ما اظهرت ! فان أقل ما في ذلك الا يأتمنك على شيء ، فان من تناهت به الحال الى مثل ما ذكرت كان غير مأمون على ما يؤتمن عليه ، ويجمل اليه ، فنالني من توبيخها وعذلها أضعاف ما نالني أولا ، واصبحنا في اليوم الثاني ، فوجهت احد ثوبي ، فبيعا ، وتبلغنا به ذلك اليوم وفي اليوم الثالث ، فلما كان في اليوم الرابع ، وقد ضاقت نفسي ، وغلبني الفكر ، وعاتبتني على ذلك اهلي ، وقالت لي : انا خائفة عليك مما أرى الوسواس ، فيكون ما نحتاج اليه لعلاجك ، أضعاف ما نحتاج اليه لمئونتنا ، فسهل عليك ، فان الله الصانع .
فركبت في ذلك اليوم لا ادري اين اقصد ، الا انني أؤم الجسر ، ثم انصرف ، لابلي عذرا في الطلب عند اهلي ، فلما صرت الى قنطرة البردان ، لقيني لاق ، فقال : قد رأيت في يومنا هذا من يطلبك ثم لم البث ان لقيني من خبرني بمثل ذلك ، فقصدت الدار ، لاعرف الخبر ، فلقيني بالقرب منها رسول ، فقال لي : أبو خالد يطلبك واياك اردت فدخلت الدار والرسول معي فالفينا ابا خالد داخلا ، فقال لي حاجبه : أمرنا باحضارك ، وان ننتظره الى ان يخرج ، فأقمت ، وخرج مع الزوال ، ومع غلامه كتب كثيرة ، فقال له : قد حضر يحيى ، فقال : هاته ، فقمت ودنوت منه ، فقال لي : يا بني اخي ، شكوت الي بالامس شكوى لم يكن ينفع في جوابها الا الفعل ، اذ كانت الحال قد تأدت الى ما تأدت اليه ، ثم امر باحضار ابي جميل وزاهر ، تاجرين كانا يبيعان الطعام ، فأتى بهما ، فقال : قد علمتما اني بايعتكما البارحة بثلاثين الف كر ، على ان ابن اخي هذا شريككما فيها بالسعر ، ثم التفت الي فقال : لك من هذه الاكرار عشرة الاف كر ، فان دفعا اليك ثلاثين الف دينار ربحك ، وآثرت ان تخرج اليهما من حصتك ، فعلت ، وان آثرت ان تقيم على هذا الابتياع ، فعلت : فتنحينا ناحية ، فتناظرنا ، فقال لي التاجر : انت رجل شريف وابن شريف ، وليست التجارة من شأنك ، ومتى اقمت على هذا الابتياع احتجت الى كفاة واعوان ، ولكن خذ منا ثلاثين الف دينار ، وخلنا والطعام ، فقلت : قد فعلت . فقمنا الى ابي خالد ، فقلت : قالا لي : كذا

وكذا ، وأجبتهما الى اخذ المال ، فقال : صواب ، لو أقمت معهما احتجت الى تعب ، ولزمتك مؤن ، وكان ذلك أربح لك ، ولكن هذا أروح ، فخذ المال ، ونبلغ به ، والزمنا ، فاذا لا نقصر في كل ما يمكننا في امرك ، فخرجت فاخذت من الرجلين المال ، ثلاثين الف دينار ، وما بين ذلك وبين بيع المنديل الا اربعة أيام ، فصرت الى أبي ، فأخبرته الخبر ، وقلت له : جعلني الله فداك ! تأمر في المال بأمرك . فقال : نعم ، أنا احكم عليك في هذا المال بما حكم به ابو خالد على التاجرين ، اي ان لي الثلث ، فحملت اليه عشرة الاف دينار ، واشتريت بعشرة الاف دينار عقدة ، ولم ازل انفق الباقي الى ان اداني الى هذه الحال ، وانما حدثتك يا بني هذا ، لتعرف للرجل حقه .

فقلت ليحيى بن خاقان : فما كان من يحيى الى احمد بن ابـي خالد ؟ فقال : ما زال وولده على غاية البر له والتحريك ، حتى نال ما نال من الوزارة بذلك الاساس الذي اسسوه .

وكانت وفاة أبي خالد يزيد الاحول في سنة ثمان وستين ومئة .

قال اسحاق بن سعد حدثني أبو حفص عن العتابي قال :

كنت انا ومنصور بن زياد عند يحيى بن خالد ، ويحيى يتحدث ، قال : والخدم يعبثون ويترامون بالبطيخ ، حتى جاءت بطيخة فأصابت وجهه ، فوالله ما تحرك ولا غضب ، فقال له المنصور : اصلحك الله ! لو نهي هؤلاء واخيفوا حتى لا يجترئوا على مثل هذا ! فقال : اللهم غفرا ، نحـن نحب أن نؤمن من بعد عنا ، فكيف نخيف من كان على بساطنا !

وقلد الرشيد حجابته محمد بن خالد بن برمك في سنة اثنتين وسبعين ومئة .

وعرض ليحيى بن خالد رجل من اهل الشام ، من بني امية ، فترجل له فراى شيخا وسيما ، له رواء وهيئة ، فلما عاد الى مجلسه دعا به ، وساله عن سببه ونسبه ، فأخبره أنه رجل من بني أمية ، وان مسالته التي اليهـا يقصد وصوله الى امير المؤمنين ، فقال له يحيى : الصدق أولى بي ، وامير المؤمنين يستثقل هذا النسب ، فانظر ما تلتمسه منه ، فالقه الي ، فان تكن مظلمة رددتها ، وان تكن صلة بذلناها ، وما بين ذلك من الحوائج فغيـر معتذر اليك من شيء منها ؟ فقال الرجل : الذي سالت ما سمعت أيها الوزير واني لاعلم انكم يا آل برمك معادن الخير ، فان سهل أن تذكرني له ، فـان أذن فهو ما أردت ، وان رد فقد قضيت أيها الوزير ما عليك ، واوجبت علي شكرك اخرى الليالي الغوابر . فذكره يحيـى للرشيد ، وخبره بمـا دار بينهما ، فأمره بايصاله اليه ، فلما وقعت عين الاموي عليه استأذن فـي الكلام ، فأذن له ، فتكلم وأحسن وابلغ ، ثم انشد :

يا أمـــين اللـــه انـــي قائل	قـــول ذي رأى وديـــن وادب
لكـــم الفضـــل علينـــا ولنـــا	بكـــم الفضـــل على كل العرب
عبد شمس كان يتلو هاشمـــا	وهمـــا بعـــــد لأم ولأب
فصلوا الارحـــام منـــا انمـــا	عبد شمس عـــم عبد المطلـــب

فأحسن الرد عليه ووصله ، وأجرى له رزقا في بلده ، ورده اليه .

وحدثنا ولد علي بن الحسين عنه ، قال : حدثني علي بن الجنيد قال : كانت بيني وبين يحيى بن خالد مودة وانس ، فكنت اعرض عليه الرقاع في الحوائج ، فكثرت رقاع الناس عندي ، واتصل شغله ، فقصدته يوما ، وقلت له : يا سيدي قد كثرت الرقـــاع ، وامتلأ خفي وكمي ، فاما تطولـــت بالنظر فيها ، واما رددتها . فقال لي : أقم عندي حتى افعل ما سالـــت . فأقمت عنده ، وجمعت الرقاع في خفي ، واكلنا وغسلنا ايدينا ، وقمنا الـــى النوم ، واستحييت من اذكاره اياها ، ويئست من عرضها ، لانني قد علمت اننا نقوم ، فنتشاغل بالشرب ، فنمت ، ودعا هو بالرقاع من خفي ، فوقـــع في جميعها ، وردها اليه ، ونام وانتبه . فدخلت اليـــه في مجلس الشراب ، وقد أعدت آلته فيه ، فلم استجز ذكر الرقـــاع له ، وشربت وانصرفـــت بالعشي ، فبكر الي اصحاب الرقاع ، لما وقفوا على اقامتي عنده ، فاعتذرت اليهم ، وضاق صدري بهم ، فدعوت بالرقاع لاميزها ، وأخفف منها ما ليس بمهم ، فوجدت التوقيعات في جميعها ، فلم تكن لي همة الا تفريقها ، والركوب اليه لشكره ، فلما رايته قلت : يا سيدي ، قد تفضلت وقضيـــت حاجتي ، فلم علقت قلبي ، ولم تعرفني حتى يتكامل سروري ؟ فقال لي : سبحان الله! اردت مني أن امن عليك بأن اخبرك ما لم يكن يجوز أن يخفى عنك .

وكان خالد بن برمك ينزل باب الشماسية ، في الموضع المعروف بسويقة خالد ، وهي اقطاع من المهدي ، وبنى يحيى بن خالد قصرا يعرف بقصـــر الطين ، ثم بنى فيه الفضل بن يحيى وجعفر بن يحيى قصرين ، كانا يعرفان بهما .

جعفر والفضل وافعالهما : وكان يحيى بن خالد يميـــل الى الفضل ، والرشيد يميل الى جعفر ، فكان الرشيد يقول ليحيى كثيرا : أنت للفضل ، وأنا لجعفر ، وغلب جعفر على الرشيد غلبة شديدة ، حتى صار لا يقـــدم عليه أحدا ، وانس به كل الانس ، وانزله بالخلد من قصره ، وتباعد ما بين الفضل وجعفر ، لان الفضل كان يلتمس من جعفر أن يعطيه بعد اختصاص الرشيد اياه من نفسه ، مثل ما كان يعطيه قبل ذلك ، فخرجا الى أن صـــار احدهما يسبع الآخر .

وكان جعفر اوصل الاصمعي الى الرشيد ، فقال له الرشيـــد يوما :

اخبرني : من ام فلان ؟ لانسان من العرب . فقال له الاصمعي ، على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين ؛ فقال الفضل . أسقط الله انفك وعينيك ! اهكذا تخاطب الخلفاء ! وانما اراد بذلك مساءة جعفر ، والتصد له .

وقلد يحيى بن خالد الفضل بن الربيع ديوان النفقات في سنة اثنتين وسبعين ومئة . وفي هذه السنة ظهر يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالديلم ، وقوي أمره ، فشق ذلك على الرشيد ، وانهض اليه الفضل بن يحيى في خمسين الفا ، وأنهض معه وجوه القواد ، وولاه كور الجبل في سنة ست وسبعين ومئة ، وفيه يقول ابو قابوس الحيري :

رأى الله تفضيل ابن يحيى بن خالد	ففضله والله بالناس اعلم
له يوم بؤس فيه للناس ابؤس	ويوم نعيم فيه للناس انعم
فيمطر يوم الجود من كفه الغنى	ويمطر يوم البؤس من كفه الدم

فجعل الفضل محمد بن منصور بن زياد خليفته بباب الرشيد ، ومضى نحو الديلم ، وواصل كتبه الى يحيى بن عبد الله ورسله ، بالرفق والاستمالة والتحذير ، والترغيب ، والترهيب ، وبسط الامل ، الى ان أجاب يحيى الى الصلح والخروج ، على أمان أخذه له بخط الرشيد انفذ نسخته الى الفضل ، فكتب بذلك الى الرشيد ، فسره ، وحسن موقعه منه ، وكتب الامان ليحيى ، واشهد على نفسه القضاة ، وانفذه الى الفضل ، وقدم عليه بيحيى بن عبد الله ، فقدم به الى الرشيد معه ، فلقيه بكل ما احب ، واسنى جائزته ، واكثر بره وعطاءه ، وأنزله منزلا سريا ، وابر الفضل بن يحيى ، وشكر فعله.

ثم ولى الرشيد جعفرا المغرب كله ، من الانبار الى افريقية ، في سنة ست وسبعين ومئة ، وقلد الفضل المشرق كله ، من النهروان الى اقصى بلاد الترك ، فأقام جعفر بحضرة الرشيد ، وشخص الفضل الى عمله في سنة ثمان وسبعين ومئة ، وودعه الرشيد والاشراف والوجوه ، وساروا معه ، فوصل واعطى وافضل .

ومدحه مروان بن أبي حفصة يوم سار فقال :

اذا أم طفل راعها جوع طفلها	غذته بذكر الفضل فاستعصم الطفل
ليحيا بك الاسلام انك عزه	وانك من قوم صغيرهم كهل

فوصله بمئة الف درهم ، وحمله وكساه ، ووهب له جارية يقال لها : « طيفور » كاسية حالية ، فقيل انه حصل له سبع مئة الف درهم ما بين ورق وعروض .

وجدت بخط أبي عبد الله محمد بن داود : حدثني غسان بن ذكوان : قال حدثني رجل رأيته عند قبيصة المهلبي في سنة اربعين ومئة ، قال :

أنشدني اسحاق بن ابراهيم الموصلي لنفسه ، في الفضل بن يحيى ؛ وأخبرني انه قال هذا الشعر ، وعمل فيه لحنا ، وغناه به ، وانه امر له بشيء ذهب عني مبلغه :

وقائل قال لي لما رأى زمني ... يبري عظامي بري القدح بالسفن
هل كان بينكما فيما مضى ثرة ... فصار يبغيك بالاوتار والاحن
لو كان بيني وبين الفضل معرفة ... فضل ابن يحيى لاعداني على الزمن
هو الفتى الماجد الميمون طائره ... والمشتري الحمد بالغالي من الثمن

ولما صار الفضل الى خراسان ازال سيرة الجور ، وبنى الحياض والمساجد والرباطات ، وأحرق دفاتر البقايا ، وزاد الجند والقواد ، ووصل الزوار والكتاب في سنةتسعوسبعين ومئة بعشرة الاف الف درهم، وامر بهدم البيت المعروف بالنوبهار ، فلم يقدر على هدمه لوثاقته ، وعظم المؤونة عليه، فهدم منه قطعة ، وبنى فيها مسجدا ، واستخلف عمر ابن جميل على خراسان ، وانصرف في آخر هذه السنة الى العراق ، فتلقاه الرشيد ببستان أبي جعفر لما ورد ، وجمع الناس وأكرمه غاية الاكرام ، وامر الرشيد الشعراء بمدحه ، والخطباء بذكر فضله ، فكثر المادحون له ، فأمر الفضل بن يحيى احمد بن سيار الجرجاني أن يميز اشعار الشعراء ويعطيهم على قدر استحقاقاتهم ، فمشى داود بن رزين ، ومسلم بن الوليد ، وابان اللاحقي ، واشجع السلمي ، وجماعة من الشعراء ، اليه ، فسألوه أن يضع من شعر أبي نواس ، ولا يلحقه بنظرائه منهم ، وتحملوا عليه بغالب بن السعدي ، وكان يتعشقه ، فلما عرض أبو نواس شعره على الجرجاني رمى به : وقال : هذا لا يستحق قائله درهمين ، فهجاه ابو نواس فقال :

بما اهجوك لا ادري ... لساني فيك لا يجري
اذا فكرت في قدرك ... أشفقت على شعري

واتصل الخبر بالفضل ، فوصل ابا نواس وأرضاه ، وصرف الجرجاني عن تمييز الشعر .

وكان شخص مع الفضل ابراهيم بن جبريل على شرطه ، فوجهه الى كابل ، فافتتحها وافاد مالا عظيما ، ثم ولاه سجستان ، فوصل اليه سبعة الاف الف درهم ، وحصل في يده من خراجها اربعة الاف الف درهم ، وانصرف الى العراق ، فلحق به ابراهيم بن جبريل ، وبنى داره في البغيين ، وسأل الفضل أن يزوره ليزيد نعمته عليه ، واعد له من كل صنف ، وأحضر الاربعة الالاف الف الدرهم ، فلما حضر الفضل وتغدى ، عرض عليه ما اعد له ، وذكر له حال المال ، فأبى أن يقبل منه شيئا ، وقال له : لم آتك لاسلبك ، فقال : أيها الامير ، نعمتك علي ظاهرة متظاهرة ، فقال له : ولك

عندي مزيد . ولم يزل يسأله أن يكرمه بقبول شيء منه ؛ فقبل سوطا سجزيا وقال هذا يصلح للفرسان ، فذكر له أمر المال ، فقال : اما لك بيت يسعه ! ووهبه له .

وكان ابو الهول الحميري هجا الفضل بن يحيى ، ثم أتاه فيما بعد راغبا ، فقال له الفضل : ويلك ! باي وجه تلقاني ؟ فقال له : بالوجه الذي ألقى به الله عز وجل وذنوبي اليه اكثر واعظم ، فضحك ووصله .

وكان محمد بن الرشيد في حجر جعفر بن محمد بن الاشعث ، وكان يكتب لمحمد علي الزمام محمد بن يحيى بن خالد ، ثم صرف الرشيد جعفر بن محمد ابن الاشعث ، وجعل محمدا في حجر الفضل بن يحيى ، وأسكنه معه في قصره المعروف بالخلد ، وضم اليه أعماله ودواوينه ، وشخص الى الرقة . وانفذ الفضل مع الرشيد محمد بن منصور بن زياد يخلفه بحضرة الرشيد .

وذكر محمد بن الحسن بن مصعب :

أن الفضل بن يحيى لما صار الى خراسان فرق فيهم — قد ذكرناها — واخذ البيعة لمحمد بالعهد بعد الرشيد وسماه الامين ، فبايع الناس له .

وفسدت نية جعفر بن محمد بن الاشعث ليحيى بن خالد ، واضب عداوته ، مع عظيم احسانه اليه .

وكان يحيى بن خالد يقول ابدا : ما أريد الدنيا الا لثلاثة : جعفر بن محمد بن الاشعث ، وعلي بن عيسى بن يزدانيروذ ، ومنصور بن زياد ، وكلهم انقلب عليه ، وأساء به ، فلقي يحيى وأسبابه منهم ما يكرهون .

ولوزير العروضي شعر يهجو به محمد بن الاشعث « مكلم الذئب » الخزاعي ، وهو :

تهتم علينا بأن الذئب كلمكم	فقد لعمري ابوكم كلم الذيبا
فكيف لو كلم الليث الهصور اذا	تركتم الناس مأكولا ومشروبا
هذا السويدي ما يسوى اتاوته	يكلم الفيل تصعيدا وتصويبا

ويروى : « هذا السيبدي ما تخشى معرته » فضربه محمد بن الاشعث ثلاث مئة سوط .

وكان لجعفر بن محمد بن الاشعث ابن يقال له العباس ، شاعر كاتب ظريف . وكان الحسن بن البحباح البلخي ، كاتب الفضل بن يحيى ، ويكنى ابا علي ، شاعرا أديبا ، وكان اخوه الفضل بن البحباح الحاجب ، وكان الحسن قد خدم المهدي وموسى ، وتقلد في أيام موسى مصر ، وخدم بعده الرشيد ، وفارق عند توسط أيام البرامكة السلطان ، وتخلى من الدنيا وجاور مكة ، فكتب اليه ابو يعقوب الخريمي قصيدته الطويلة ، التي يقول فيها :

الا بكرت لبنى عليــه تماتيــه — تحدثه طــورا وطورا تلاعبــه

واكب على سماع الحديث ، وكان لازم سفيان بن عيينة ، ولزم معه حاتم ، وحسين بن ثابت ، وخاقان ، واكثروا السماع منه ، حتى لم يكـن فيه للعامة فضل عنهم ، فقال محمد بن مناذر ، واسمع سفيان :

بعمرو وبالزهري والزمر الالى — بهم ثبتت رجلاك عند المقــاوم
جعلت طوال الدهر يوما لثابت — ويوما لخاقان ، ويوما لحــاتم
وللحسن البحباح يوما ، وبعده — خصصت حسينا دون اهل المواسم
نظرت وطال الفكر فيك فلم تكن — تدير الرحا الا لأخذ الدراهــم

فعدل سفيان عنهم الى العامة .

وكان الفضل لا يشرب النبيذ ويقول : لو علمت أن الماء ينقص مروءتي ما شربته أبدا .

وركب الفضل يوما من منزله بالخلد ، يريد منزله بالشماسية ، فتلقاه فتي من الابناء مملك ، ومعه جماعة من الناس ركبان ، قد تحملوا لاملاكه ، فلما رآه نزل فقبل يده ، ولم يكن يعرفه ، فسأله عن نسبه فعرفه ، فسأل عــن مبلغ الصداق ، فعرف انه اربعة الاف درهم ، فقال الفضل لقهرمانه : أعطه اربعة الاف درهم لزوجته ، واربعة الاف درهم ثمن منزل يسكنه ، واربعة الاف درهم للنفقة على وليمته ، واربعة الاف درهم يستعين بها على العقد الذي عقده على نفسه .

ومدح بعض الشعراء الفضل ، فقال :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى — ترك النــاس كلهم شعـــراء

فاستجيد البيت واستحســن ، وعيب بانه بيــت منفرد ، فقال ابو العذافر ورد بن سعد العمي :

علم المفحمين ان ينطقوا الاشعار منا والباخلين السخاء .

وكان ركب محمد بن ابراهيم الامام دين ، فركب الى الفضل ابن يحيى، ومعه حق فيه جوهر ، فقال له : قصرت بنا غلاتنا ، واغفل امرنا خليفتنا ، وتزايدت مئونتنا ، ولزمنا دين احتجنا لادائه الى الف الف درهم ، فكرهــت بذل وجهي للتجار ، واذالة عرضي بينهم ، ولك من يعطيك منهم ، ومعــي رهن ثقة بذلك ، فان رايت أن تأمر بعضهم بقبضه ، وحمل المال الينا ، فدعا الفضل بالحق ، فراى ما فيه ، وختمه بخاتم محمد بن ابراهيم ، ثم قال له : نجح الحاجة أن تقيم في منزلك عندنا اليوم ، فقال له : ان في المقــام علي مشقة ، فقال : ما يشق عليك من ذلك ، ان رايت أن تلبس شيئا من ثيابنـــا دعوت به ، والا امرت باحضار ثياب من منزلك ، فأقام ونهض الفضل ، فدعا بوكيله ، وامره ان يحمل المال ويسلمه الى خادم محمد بن ابراهيم ، وتسليــم

الحق الذي فيه الجوهر بخاتمه ؛ واخذ خطه بذلك ، ففعل الوكيل ذلك ، واقام محمد عنده الى المغرب . وليس عنده شيء من الخبر ؛ ثم انصرف الى منزله فرأى المال ؛ واحضره الخادم الحق ، فغدا على الفضل ليشكره ، فوجده قد سبقه بالركوب الى دار الرشيد ، فوقف منتظرا له ؛ فقيل : قد خرج من الباب الآخر ، فاتبعه فوجده قد دخل اليه ، فوقف ينتظره ، فقيل له : قد خرج من الباب الاخر قاصدا منزله ، فانصرف عنه ؛ فلما وصل منزله وجه الفضل اليه الف الف درهم اخر ، فغدا عليه فشكره واطال ، فأعلمه انه بات ليلته ، وقد طالت عليه غما بما شكاه ، الى ان لقي الرشيد فاعلمه حاله ، فامره بالتقدير له ، ولم يزل يماكسه الى ان تقرر الامر معه على الف الف درهم ، وانه ذكر انه لم يصلك بمثلها قط ، ولا زادك على عشرين الف دينار ، فشكرته وسألته أن يصك بها صحكا بخطه ، ويجعلني الرسول ؛ فقال له محمد : صدق امير المؤمنين ، انه لم يصلني قط بأكثر من عشرين الف دينار ، وهذا فانما تهيأ بك ؛ ولك ؛ وعلى يديك ، وما اقدر على شيء أقضي به حقك ، ولا على شكر اجازي به معروفك ، غير انه « علي وعلي » وحلف ايمانا مؤكدة ؛ ان وقفت على باب احد سواك ، ولا سألته حاجة ابدا ، ولو سففت التراب . فكان لا يركب الى غير الفضل ؛ الى أن حدث من أمرهم ما حدث ، فكان لا يركب الى غير دار الخليفة ، ويعود الى منزله ، فعوتب بعد تقضي ايامهم في ترك اتيان الفضل بن الربيع ، فقال : والله لو عمرت الف عام ، ثم مصصت الثماد ، ما وقفت بباب أحد بعد الفضل بن يحيى ، ولا سألته حاجة حتى القى الله جل وعز ، فلم يزل على ذلك حتى مات .

قال عبد الله بن ياسين ، حدثني ابي ، قال :

كنا عند الفضل بن يحيى ، فخضنا في الشعر ، فاذا هو من اروى الناس له ، واجودهم طبعا فيه ؛ فقلت له : اصلحك الله ! لو قلت شيئا من الشعر ، فانه يزيد في الذكر ، وينبه ، فقال : هيهات ! شيطان الشعر أخبث من أن اسلطه على عقلي .

وكان الفضل شديد الكبر ، فعوتب على ذلك ، فقال: هيهات ! هذا شيء حملت عليه نفسي ، لما رأيته من عمارة بن حمزة ، فان أبي كان تضمن فارس من المهدي ، فحل عليه الفا الف درهم ، فاخرج ذلك كاتب الديوان : فأمر المهدي ابا عون عبد الله بن يزيد بمطالبته ، فقال له : ان أدى يحيى المال قبل أن تغرب الشمس من يومنا هذا ، والا فأتني برأسه ، وكان متغضبا عليه ، وكانت حيلتنا لا تبلغ عشر المال ، فقال : يا بني ، ان كانت لنا حيلة ، فمن قبل عمارة بن حمزة ، والا فأنا ميت ، فامض اليه . فمضيت اليه ، فلم يعرني الطرف ، ثم تقدم من ساعته بحمل المال الينا ، فحمل ،

فلما مضى له شهران جمعنا المال ! فقال لي أبي : امض الى الشريف الحر الكريم ، فصرت به اليه ، فلما عرفته خبر المال غضب وقال : أكنت قسطارا لابيك ، فقلت : لا ، ولكنك احييته ومننت عليه ، وهذا المال قد استغنى عنه ، فقال: هو لك ، فعدت الى ابي ، فقال : لا ، والله ، ما تطيب نفسي لك به ، ولكن لك منه مئتا الف درهم ، فتشبهت به ، حتى صار خلقا لا تتهيأ لي مفارقته .

قال الواقدي :

دخل الفضل بن يحيى بن خالد على أبيه يتبختر في مشيته ، وانا عنده ، فكره ذلك منه ، فقال لي يحيى : يا ابا عبد الله ، أتدري ما بقي الحكيم في طرسه ؟ قلت : لا ، قال : بقي الحكيم في طرسه أن البخل والجهل مع التواضع أزين بالرجل من الكبر مع السخاء ، فيالها حسنة غطت على عيبين عظيمين ! ويا لها سيئة غطت على حسنتين كبيرتين ! ثم اومأ اليه بالجلوس .

قال ابو النجم القائد أحد الدعاة :

قلت لابراهيم الموصلي : صف لي ولد يحيى بن خالد ، فقال لي : أما الفضل فيرضيك بفعله ، واما جعفر فيرضيك بقوله ، واما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، واما موسى فيفعل ما لا يجد .

وكان يكتب ليحيى بن خالد عبد الله بن سوار بن ميمون ، قال : فدعاني يحيى يوما ، فقال لي : اجلس فاكتب ، فقلت : ليس معي دواة ، فقال لي : ارايت صاحب صناعة تفارقه آلته ، واغلظ لي في حرب اراد به حضي على الادب ، ثم دعا بدواة ، فكتبت بين يديه كتابا الى الفضل ، في شيء من اموره ، فظن أني متثاقل عن الكتاب بسبب تلك المخاطبة ، فاراد ازالة ذلك، فقال لي : اعليك دين ؟ قلت : نعم ، قال : كم ؟ قلت : ثلاث مئة الف درهم ، فأخذ الكتاب فوقع فيه بخطه :

وكلكم قد نال شبعا لبطنه وشبع الفتى لؤم اذا جاع صاحبه

ان عبد الله يذكر ان عليه دينا يخرجه منه ثلاث مئة الف درهم ، فقبل ان تضع كتابي من يدك ، فأتسمت عليك لما حملت ذلك الى منزله من أحضر مال قبلك ، ان شاء الله . قال فحملهما الفضل الي وما أعرف لها سببا غير تلك الكلمة .

وهذا الشعر لبشر بن المغيرة بن المهلب بن ابي صفرة ، كتبه الى عمه ، واوله :

جفاني الامير والمغيرة قد جفا وامسى يزيد لي قد ازور جانبه
وكلكم قد نال شبعا لبطنه وشبع الفتى لوم اذا جاع صاحبه

فياعم مهـلا واتخذنـي لنوبة　　تنوب ، فان الدهر جم نوائبـه
انا السيف الا ان للسيـف نبوة　　ومثلي لا تنبو عليـك مضاربه

ومما يشبه خبر عبد الله بن سوار هذا ، وما حدثني عبد الواحد ابن محمد الحصيني قال : حدثني عبد الله بن محمد بن أحمد بن المدبـر ، قال : سمعت جدي أحمد بن المدبر يقول :

كنت أتقلد مجلس الاسكدار في ديوان الخراج ، وكانت نفسي تنازعني على اشياء لم تكن تنالها ، وكنت ارفع نفسي عن التعرض لكسب الخسيس، فلما خرج المأمون الى بلاد الروم ، سألني جعفر الخياط الخـروج معه ، لاكتب بين يديه ، ففعلت على كره من أبي لذلك ، وجهد الا اخرج فلم اطعه ، فدفع الى بعض اخوانه الذين يثق بهم ، من حيث لا أعلم ، خمسة الاف درهم ، وقال له : تكون هذه الدراهم معك من حيث لا يعلم بها احد ، فان اختلست حاله ، او رايت به خصاصة ، عرضت عليه القرض ، وأسلفته حسب ما تراه صوابا ، على حسب ما تشاهد من حاله ، قال : فكنت يوما بين يـدي جعفر أعمل ، حتى دخلت عريب الكبيرة اليه ، وكنت قد اكتملت ، فنظـرت الي ، فأطالت النظر ، وكنت غلاما ، فقالت لجعفر : من أين لك هذا الطير المراري ؟ فاستحييت وخجلت ونهضت ، وخرجت عريب ، فدعاني جعفر ، فقال : لعل ما كلمتك به هذه العيارة قد غمك . وامر لي بعشرة الاف درهم، وما كنت رايتها مجتمعة قط في ملكي ، فخرجت وما أعقل فرحا ، فاستبدلت بدابتي ، واشتريت بغلا يركبه غلامي خلفي ، فلما كان بعد أيام لقيني ذلك الصديق ، الذي كان اودعه أبي الدراهم ، فسألني عن خبري وراى اثـر حسن حالي ، فشرحت له أمري ، فخبرني بخبر المال الذي دفعه اليه ابي ، وقال : ما لمكانه الان عندي وجه ، فوجه به الي ، فرايت حين جاءني اني في ذلك العسكر أجل من المأمون ، وكان ذلك اول مال اعتقدته ، ثم أتانا اللـه بما نحن فيه ، ولم يكن لذلك سبب غير كلمة عريب .

من كلام يحيى بن خالد وأفعاله : وكان يحيى بن خالد يقول : التعزية بعد ثلاث تجديد للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاث استخفاف بالمودة .

وكان يحيى يقول : الناس يكتبون احسـن ما يسمعون ، ويحفظـون احسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون .

وكان يحيى يقول : رسائل المرء في كتبه ادل على مقدار عقله ، واصدق شاهدا على عيبه لك ، ومعتقده فيـك ، من اضعاف ذلك على المشافهـة والمواجهة .

وكان يقـول : الكريم اذا تقـرا تواضع ، واللئيم اذا تقـرا تكبر ، والخسيس اذا أيسر تجبر .

وكان يقول : مطلك الغريم ، أحسن من مطلك الكريم ، لان الغريم لا يسلف الا من فضل ، والكريم لا يطلب الا من جهد .

وقيل ليحيى بن خالد : الا تؤدب غلمانك ؟ قال : هم امناؤنا على أنفسنا ، فاذا اخفناهم فكيف نامنهم ؟.

وكان يقول : البلاغة ان تكلم كل قوم بما يفهمون .

وكان يقول لكتابه : ان استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات اختصارا فافعلوا .

وكان يقول : لست ترى احدا تكبر في امارة الا وقد دل على ان الذي نال فوق قدره ، ولست ترى احدا تواضع في امارة الا وهو في نفسه أكبر مما نال في سلطانه .

وكان يحيى يقول : لا أرحام بين الملوك وبين أحد .

وكان يقول : لو كلف الله العباد الجزع دون الصبر ، كان قد كلفهم اشد المعنيين على القلوب . فجعل بعض الشعراء هذا في شعر ، فقال :

فلو جعل الاله الحزن فرضا ... كما افترض التصبر في الخطوب
لكان الحزن فيها غير شك ... أشد المعنيين على القلوب

وهذا خلاف قول القائل ، من انشاد الزبير بن بكار :

فقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا ... فقلت البكا أشفى اذا لغليلي

قال أبو القاسم بن المعتمر الزهري :

كنت اسير مع يحيى بن خالد وهو بين ابنيه الفضل وجعفر ، فاذا ابو الينبغي العباس بن طرخان واقف على الطريق ، فناداني : يا زهري ، يا زهري ، فاستشرفت له ، فقال :

صحبت البرامك عشرا ولا (١) ... وبيتي كراء وخبزي شرا

قال : فسمعه يحيى ، فالتفت الى الفضل وجعفر ، فقال : اف لهذا العقل ، ابو الينبغي ممن يحاسب . فلما كان ممن الغد جاءني ابو الينبغي ، فقلت له : ويحك ! ما هذا الذي عرضت له نفسك بالامس ؟ فقال : اسكت . ما هو الا ان انصرفت الى منزلي ، حتى جاءتني من قبل الفضل بدرة ، ومن قبل جعفر بدرة ، ووهب لي كل منهما دارا ، وأجرى لي من مطبخه ما يكفيني .

وكان يحيى بن خالد يقول : الدالة تفسد الحرمة القديمة ، وتضر بالمحبة المتأكدة .

وكان يقول : انا مخير في الاحسان الى من أ حسن ، ومرتهن بالاحسان

---

(١) ولا : متوالية .

الى من احسنت اليه ، لاني اذا لم استتم احسانا فقد أهدرته .

وكان يقول : ما وقع غبار موكبي على لحية رجل قط ، الا اوجبت لــه على نفسي حفظه ، والزمتها حقه .

وكان ليحيى قبل الوزارة حاجب ، يقال له سماعة ، فلما تقلد الوزارة رأى بعض اخوانه ان سماعة يقل عن حجابته ، فقال له : لو اتخذت حاجبا غيره ، فقال : كلا ! هذا يعرف اخواني القدماء .

ووقع يحيى الى رجل ظن به تغيرا عليه :

ينبغي أن نكون على يقين اني بك ضنين ، أريدك ما اردتني ، ان نبوت عني ما كان ذلك بي وبك جميلا ، فان وقعت المقادير بخلاف ذلك ، لم اعد ما يجب ، والذي هاجني على الكتاب اليك ان أبا نوح معـروف بن راشد سألني ان ابوح لك بما عندي ، والله يعلم اني ما تبدلت ، ولا حلت عن عهد ، جمعنا الله واياك على طاعته ، ومحبة خليفته ، بجوده وقدرته .

وقال يحيى لجعفر ابنه ، يا بني انتق من كل علم شيئا ، فانه من جهل شيئا عاداه ، وأنا أكره أن تكون عدوا لشيء من الادب .

وكان يحيى أنكر على ابراهيم بن شبابة الشاعر شيئا ، فكتب اليه رسالة طويلة مشهورة وكتب في آخرها :

اسرعت بي اليــك مني خطيئا   تي فجاءت بمذنــب ذي رجــاء

راهب راغــب الــيك يرجــي   منك عفوا عنــه وفضــل عطــاء

ولعمري ما مــن أصر ومــن تا   ب مقــرا بذنبــه بســواء

فعفا عن جرمه ورضي عنه .

وكان يحيى اذا رأى من الرشيد شيئا ينكره لم يستقبلــه بالانكار ، وضرب له أمثالا ، وحكى له عن الملوك والخلفاء ما يوجب مفارقة ما أنكره ، ويقول : في النهي اغراء ، وهو من الخلفاء أحرى ، فانك وان لــم تقصد اغراءه ، اذا نهيته أغريته .

قال عبد الصمد بن علي :

ما رأيت أكرم من يحيى نفسا ، ولا أحلم منه ، جعل على نفسه ان لا يكافىء أحدا بسوء ، فوفى ، فقال ابو الحجناء نصيب الاصغر :

عند الملوك مضــرة ومنــافع   وارى البرامك لا تضــر وتنفع

انالعروق اذا استسر بها الثرى   اشـر النبات بها ، وطاب المزرع

واذا جهلت من امرىء اعراقه   وقديمه فانظــر الى ما يصنــع

واخذ ابو الحجناء نصيب بيته الآخر من سلم الخاسر ، حيث يقول :

لا تســـأل المرء عن خلائقــه   في وجهــه شــاهد عن الخبر

قال الاصمعي :

سمعت يحيى بن خالد يقول : الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا بمن قبلنا اسوة ، وفينا لمن بعدنا عبرة .

وقائع واحداث : ودخل محمد بن زيدان على الفضل بن يحيى ، فقال له : من الذي يقول :

سأرسل بيتا قد وسمت جبينه ... يقطع أعناق البيوت الشوارد
أقام الندى والجود في كل منزل ... أقام به الفضل بن يحيى بن خالد؟

فقال له : سلم الخاسر ، فقال له : لا تسمه خاسرا ، وسمه سلما الرابح وامر له بألف دينار .

ثم غلب سلم على الفضل بن يحيى ، وكثرت فيه مدائحه ، وعظم احسان الفضل اليه ، حتى قال فيه أبو العتاهية :

انما الفضل لسلم وحده ... ليس فيه لسوى سلم درك

وكان الرشيد يسمى جعفرا أخي ، ويدخله معه في ثوبه ، وقلده بريد الآفاق ودور الضرب والطرز في جميع الكور .

وكان جعفر بليغا كاتبا ، وكان اذا وقع نسخت توقيعاته ، وتدورست بلاغاته . فحكى على بن عيسى بن يزدانيروذ انه جلس للمظالم ، فوقع في الف قصة ونيف ، ثم أخرجت فعرضت على العمال والقضاة والكتاب وكتاب الدواوين ، فما وجد فيها شيء مكرر ، ولا شيء يخالف الحق .

قال ثمامة بن اشرس :

كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدو والتمهل والجزالة والحلاوة ، وافهاما يغنيه عن الاعادة ، ولو كان في الارض ناطق يستغني بمنطقه عن الاشارة لاستغنى جعفر عن الاشارة ، كما استغنى عن الاعادة .

وفيه تقول عنان جارية الناطفي :

بديهته وفكرته سواء ... اذا التبست على الناس الامور
وصدر فيه للهم اتساع ... اذا ضاقت من الهم الصدور
واحزم ما يكون الدهر رأيا ... اذا عجز المشاور والمشير

ودفع رجل الى جعفر رقعة ذكر فيها قصده أياه بأمل طويل ، ورجاء فسيح ، فوقع على ظهرها :

هذا يمت بحرمة الامل ، وهي اقرب الوسائل ، واثبت الوصائل ، فليعجل له من ثمرة ذلك عشرون الف درهم ، والى حرمته حرمة ، وان قصر عن ذلك فعلينا معول ه، والينا موئله ، وفي ما لنا سعة له .

ورفع رجل الى جعفر قصة يسأله الاستعانة به ، وكان يعرفه ويخبره، فوقع :

قد رايناك فما اعجبتنا ... وبلوناك فلم نرض الخبر

وكان جعفر بن يحيى يقول : الخط سمط الحكمة ، به تفصل شذورها ، وينظم منثورها .

ووقع على كتاب لعلي بن عيسى بن ماهان ، وقد كتب اليه رقعة معتذرا من أشياء بلغته عنه :

كانا وقد كنا صديقــا مصافيــا تباعــد بيننا قــدام الى الحشر

ووقع على كتاب آخر لعلي بن عيسى :

حبب الينا الوفاء الذي أبغضته ، وبغض الغدر الذي أحببته ، فمــا جزاء الايام ان تحسن ظنك بها ، وقد رايت غدراتها ووقعاتها عيانا واخبارا ، والســلام .

ووقع على رقعة لمحبوس : العدوان أوبقه ، والتوبة تطلقه .

وكان الاصمعي يألف جعفر بن يحيى ويخص به ، وله فيه مديح كثير ، وحكايات توصف ، وتقريظ وتفضيل ، فمن شعره فيه :

اذا قيل : من للندى والعلــى من الناس ؟ قيل : الفتى جعفر

وما ان مدحــت فتى قبـــله ولكن بنـــو برمــك جوهــر

بخل وهجــاء : وقال يوما جعفر لخادم له :

احمل معنا الف دينار ، فاني اريد ان امر بالاصمعي ، فاذا حدثنــي واضحكني ، فضع الكيس في حجره ، ثم صار اليه ومعه انس بن أبي شيخ ، فحدثه الاصمعي بكل شيء ، فلم يضحك ، وانصرف ، فقال له أنس : انــه قد اضحك بجهده ، فلم تضحك ، وليس عادتك رد شيء قد أمرت باخراجه من بيت مالك . فقال له جعفر : ويلك ! قد وصلنا هذا بخمس مئة الف درهم، ولم ادخل له بيتا قبل هذه الدفعة ، ورايت حبه مكسورا ، وعليه برنكــان منجرد ، وتحته مصلى وسخ ، وكل ما عنده رث ، وانا أرى ان لسان النعمة انطق من لسانه ، وان ظهور الصنيعة امدح واهجى من مديحه وهجائه ، فعلام اعطيه الاموال ، اذا لم تظهر الصنيعة عنده ، ولم تنطق النعمة بالشكر عنه ، ثم انشد بيت نصيب :

فعاجوا فاثنوا بالذي انت اهله ولو سكتوا اثنت عليك الحقائب

وكان الاصمعي هجا البرامكة فيما بعد ، وكفر نعمتهم ، فقال عنــد نكبتهم :

اذا ذكـــر الشرك في مجلس اضاءت وجـــوه بني برمــك

ولـــو تليــت بينهـــم آية اتوا بالاحــــاديث عن مــزدك

وكان الرشيد قد احب الغزو ، وكان من رسمه أن يحج سنة ويغــزو سنة ، وكان يلبس دراعة قد كتب من خلفها حاج ، ومن قدامها غاز ، فطلب « نقفور » الهدنة على ان يؤدي اليه عــن كل حالم ممن عنده من الــروم

دينارا ، سواه وسوى ابنه ، فأبى الرشيد ذلك ، ثم تراضيا على الصلح ، واشار عليه يحيى بن خالد بقبوله اياه ، فصالحه وهادنه ، فانصرف عنه ، ولما صار بالرقة نكث « نقفور » وغدر ، فكـره يحيى بن خالد أن يعـرف الرشيد ذلك فيغتم له ، ويرجع باللـوم عليه ، لما كان من مشورته عليـه بمصالحته ، فامر عبد الله بن محمد الشاعر المعروف بالمكي ، ان يقول في ذلك شعرا ، وينشده الرشيد ، فقال :

نقض الذي أعطيته « نقفور » فعليه دائـرة البـوار تـدور
أبشر أميـر المؤمنيـن فانـه فتـح اتـاك بـه الاله كبيـر

فقال الرشيد ليحيى ، قد علمت انك احتلت في اسماعي هذا الخبـر على لسان المكي ونهض نحو الروم ، فافتتح هرقلة .

الرشيد وجعفر : وأحب الرشيد تقليد جعفـر الخاتم ، وكان الـى الفضل ، فقال ليحيى ابن سليمان : اريد أن أوقع بهذا توقيعا لا يجري مجرى العزل للفضل ، فكتب عنه الى يحيى بن خالد : ان امير المؤمنين راى أن ينقل خاتم الخلافة من يمينك الى شمالك .

ورد الرشيد الى هرثمة بن اعين الحرس ، وكان الى جعفر ، فقال له جعفر : ما انتقلت عني نعمة صارت اليك .

وامر الرشيد جعفرا أن يتخذ خيلا يجريها في الحلبة ، فاجرى جعفـر يوما خيله بالرقة ، فسبقت خيل الرشيد ، فغضب الرشيد ، فقال العبـاس ابن محمد الهاشمي لجعفر : يا أبا الفضل ، ما احسن الشكـر ، وادعاه للمزيد ! من أين لك هذا الفـرس السابق ؟ فقال له : من خيلك . فقـال : والله لارضينك ، ثم اقبل على الرشيد ، فقال : كنت ، يا اميـر المؤمنين ، مع امير المؤمنين أبي العباس ، ونحن في المدائن ، وقد أرسلت الخيل فبينا نحن ننظر طلع فرس سابق ، قد حصل في الغبار ، فما ترى علامته ، فقال عيسى بن علي : لي ، وقال غيره : لي ، ثم طلع آخر على تلك الصفة ، ثم طلع ثالث على تلك الصفة ، فنظروا فاذا هي لخالد بن برمك ، وقد أخـذ قصبات السبق ، فقال خالد : يا أمير المؤمنين ، من يقبضها ؟ فقال : هي لنا عندك ، فانك عدة من عددنا ، فسري عن الرشيد ، وزال الغضب عنه .

جعفر والعصبية بالشام : وهاجت بالشام عصبية في سنة ثمانين ومئة فقال الرشيد لجعفر : اما أن تخرج أنت اليها ، واما أن اخرج انا . قـال : فشخص جعفر من الرقة ، يريد الشام ، يشيعه الرشيد ، وخرج معه جميع من بحضرته من الوجوه والاشراف ، وفيهم عبد الملك بن صالح ، فلما ودعه قال له جعفر : اذكر حاجتك ، فقال له : حاجتي ـــ أعـز الله الامير ـــ أن تكون لي كما قال الشـاعر :

وكوني على الواشين لداء شغبة　　كما انا للواشي الد شغوب

فقال جعفر : بل اكون فما قال الآخر :

واذا الواشي اتى يسعى بها　　نفع الواشي بما جاء يضر

ثم سار جعفر الى الشام فاصلحها ، وظفر بجماعة ممن سعى بالفساد وشرد اخرين ، حتى استقامت امورها أحسن استقامة . وله خطبة خطبها وهي :

الحمد لله الذي لم يمنعه غناه عن الخلق من العائدة عليهم ، ولم تمنعه اساءتهم من الرحمة لهم ، دعاهم من طاعته لما ينجيهم ، وذادهم من معصيته عما يرديهم ، كلفهم من العمل دون طاقتهم ، وأعطاهم من النعم فوق كفايتهم، فهم فيما حملوا مخفف عنهم ، وفيما خولوا موسع عليهم ، وصلى الله على محمد نبي الرحمة ، والمبعوث الى كافة الامة ، وعلى اهل بيته الطاهرين ، وسلم تسليما .

أما بعد ، فاني اوصيكم بالالفة ، وأحذركم الفرقة ، وآمركم بالاجتماع ، وانهاكم عن الاختلاف ، قال الله جل وعز : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »فأمر بالجماعة في اول الآية ، ثم لم ينقص حتى نهى فيها عن الفرقة ، توكيدا للحجة ، وقطعا للمعذرة . ان الفرقة تنشىء بينكم احنا ، يطلب بها بعضكم بعضا ، وان الجماعة : تعقد بينكم ذمما ، يحمي بها بعضكم بعضا ، حتى يكون المكاثر لواحدكم كالمكاثر لجماعتكم ، فمتى يطمع عدو فيكم اذا كانت النائبة تعمكم ؟ ان غفل بعضكم حرسه بقيتكم ، وان غربت طائفة منكم منعها تالفكم . انه لم يجتمع ضعفاء قط الا قووا حتى يمتنعوا ، ولم يفترق اقوياء قط الا ضعفوا حتى يخضعوا ، واجتماع الضعيفين قوة ، وافتراق القويين مهانة تمكن منهما ، غافل الجماعة لا تضره غفلته ، لكثرة من يحفظه ، ومتيقظ الفرقة لا ينفعه تيقظه ، لكثرة من يطلبه ، وصاحب الجماعة يدرك أرشه في الخدش والشجة ، وصاحب الفرقة يذهب حقه في النفس والحرمة .

وفي جعفر يقول مسلم بن الوليد ، في قصيدة طويلة :

استفسد الدهر اقواما فأصلحهم　　محمل نكبات الدهر محتمل

به تعارفت الاحياء وائتلفت　　اذ الفتهم الى معروفه السبل

كأنه قمر او ضيغم هصر　　او حية ذكر او عارض هطل

قال الجاحظ :

دخل أبو قابوس النصراني الحيري ، وكان منقطعا الى البرامكة ، على جعفر بن يحيى في يوم بارد ، فتبين عليه جعفر اثر البرد ، فألقى اليه مطرف خز ، كان شراه جملة كبيرة ، وانصرف أبو قابوس ، فحضره عيد

لهم ، فالتمس في ثيابه ما يشاكل ذلك المطرف فلم يجده ، فقالت له ابنته : لو كتبت الى جعفر فعرفته حالك ، لوجه اليك ما تلبسه مع هذا ، فكتب اليه :

ابا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا	رايت مباهاة لنا في الكنائس
فلو كان هذا المطرف الخزجية	لباهيت اصحابي به في المجالس
فلا بد لي من جبة من جبابكم	ومن طيلسان من جياد الطيالس
ومن ثوب قوهي وثوب غلالة	ولا بأس لو اتبعت ذاك بخامس
اذا تمت الاثواب في العيد خمسة	كفتك فلم تحتج الى لبس سادس
لعمرك ما أفرطت فيما سالته	ولا كنت لو أفرطت فيه بيائس
وذاك لأن الشعر يزداد جدة	اذا ما البلى ابلى جديد الملابس

فوجه الى ابي قابوس من كل صنف ذكره عشر قطع .

ولم تزل كتب الملوك والرؤساء تجري في التوقيعات على ان يوقع الرئيس في القصة بما يجب فيها ، ويذكر المعاني التي يأمر بها ، ولم يكن للكتاب في ذلك الامر شيء اكثر من أن يكتبوا تلك الجملة من التوقيع الفاظا تشرحها ، ويقرب من العامة فهمها ، ولا تخرجها عن معنى قصد الرئيس ، الى ايام الرشيد ، فان المتظلمين كثروا على باب جعفر ، وتأخر جلوسه اياما ، ثم جلس ، وكانت القصص قد كثرت ، فنفض اكثرها ، وجاءه رسول الرشيد يأمره بالمصير اليه ، فقال للرسول : قل له : يا سيدي ، الساعة أجيء ، ونظر فيما بقي ، فجاءه الرسول ثانية يستحثه ، وكان في القصص قصة طويلة ، دقيقة الخط رديئته ، فوافاه الرسول وهي في يده ، واعجله ان يستتمها ، وكان يحتاج في فهمها الى مدة ، وكره ، وقد نظر اليها في يده ، أن تطرح فيما لم ينظر فيه ، فوقع على ظهرها : « يعمل في ذلك بما يعمل في مثله على سنن الحق وقصده ، وجهة الانصاف وسبيله ان شاء الله » . فورد على الكتاب من ذلك ما لم يرد مثله ، وامتثلوه ، ثم صار ذلك رسما للرؤساء .

سعي جعفر في اخذ العهد للمامون بعد الامين ووقائع اخرى : وكان المأمون في حجر محمد بن خالد بن برمك ، فنقله الرشيد الى حجر جعفر ، فأشار على الرشيد ببيعته للعهد بعد محمد ، وقام بالامر حتى عقده له ، وشخص به معه من الرقة الى مدينة السلام ، حتى اكد البيعة له ، واخذ الايمان على بني هاشم والوجوه بها ، وكاتب العمال في جميع النواحي بذلك، ثم انصرف الى الرقة .

وصنع ابان بن عبد الحميد بن لاحق ، مولى الرقاشيين ، كتاب كليلة ودمنة شعرا ، واهداه الى جعفر ، فوهب له مئة الف درهم ، وقد ذكر محمد

بن داود في طبقات الشعراء : ان يحيى بن خالد اشتهى حفظ كتــاب كليلة ودمنة ، فقلبه له ابان شعرا ، ليسهل عليه حفظه ، وذكر أنه اربعة عشــر الف بيــت .

وكان ابان خاصا بجعفر وبيحيى بن خالد ، وكان يحيى قلده ديــوان الشعر ، فكان الشعراء يرفعون اليه اشعارهم في البرامكــة ، فيسقط ما يرى اسقاطه ، ويعرض ما يرى عرضه ، فأسقط مرة شعر ابي نواس فيما أسقط ، فقال فيه :

صحفت أمك اذ سمتك في المهد أبانا
قد علمنا ما ارادت لم ترد الا اتــانا
صيرت باء مكان التــاء والله أعــانا
قطع الله وشيكا من مسميك اللسانا

وذكر اسحاق الموصلي :

أن جعفر بن يحيى استبطأه في زيارته ، وشكاه الى يحيى والده ، وكان شديد الحجاب ، قال : فاعتذرت اليه وقلت : اني ما أخل بحضور دارك ، ولكن نافذا خادمك يحجبني ، فقال لي وهو يمازحني : اذا حجبك فنكه ، قال : فقصدته يوما بعد ذلك ، فعاود نافذ حجابتي ، فكتبت اليه :

جعلت فـــداءك من كل سوء | الى حسن رايــك اشكو اناسا
يحولون بينــي وبين الســلام | فما ان اسلـــم الا اختلاسا
وانفــذت رايــك في نافـــذ | فمـــا زاده ذاك الا شماسا

فلما وصلت رقعتي اليه ضحك ، وأمر بازالة الحجاب عني ، وكثرت عنــده .

وذكر اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : قال لي ابراهيم بن المهدي :

خلا جعفر بن يحيى في منزله يوما ، وحضر ندماؤه ، وكنــت فيهم ، فتضمخ بالخلوق ، ولبس الحرير ، وفعل بنا مثل ذلك ، وتقدم الى الحاجــب بحفظ الباب الا من عبد الملك بن نجــران كاتبه ، فوقع في أذن الحــاجب « عبد الملك » ، ومضى صدر من النهار ، وبلغ عبد الملك بن صـالح مقام جعفر في منزله ، فركب اليه ، فوجه الحاجب الى جعفر : قد حضر عبــد الملك ، فقال : يؤذن له ، وهو يظنه ابن نجران ، فدخل عبد الملك بن صالح في سواده ورصافيته ، فلما رآه جعفر اسود وجهه ، ورآنا على حالنا ، وكان عبد الملك لا يشرب النبيذ ، وكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه ، لانه كان يلتمس ندامه فيأبى عليه ، فوقف عبد المــلك على ما رأى من جعفر ، فدعــا غلامه ، فناوله سواده وقلنسوته ، واقبل حتى وقف على باب المجلس الذي نحن فيه ، فسلم وقال : افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم ، فدنا منــه خادم ،

فألبسه حريرة ، وجاء فجلس ، ودعا بطعام فأكل ، ودعا بنبيذ ، فأتــوه برطل فشربه ، وقال لجعفر : والله ما شربته قبل اليوم ، فليخفف عني ، فدعا له برطلية جعلت بين يديه ، وجعل كلما فعل من ذلك شيئا سري عن جعفر ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : سل حاجتك ، فما تحيط مقدرتي بمكافأة ما كان منك ؟ فقال : ان في قلب أمير المؤمنين هنة ، فتساله الرضــا عني ، فقال : قد رضي عنك أمير المؤمنين ، قال وعلي أربعة الاف الف درهم تقضى عني ، قال : انها لعندي حاضــرة ، ولكن اجعلهــا من مال اميــر المؤمنين ، فانها انبل لك ، واحب اليك ، قال : وابراهيم ابني احب ان اشــد ظهره بصهر من أولاد الخلافة ، قال : قد زوجه أمير المؤمنين الغالية ، قال : واحب ان يخفق لواء على راسه ، قال : قد ولاه مصر . وانصرف عبد الملك ونحن نتعجب من اقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان ، وقلنا : لعله ان يجاب الى ما سأل من الحوائج ، فكيف بالتزويج ! هل يطلق لجعفر أن يقره ؟ فلما كان من الغد ، وقفنا على باب الرشيد ، ودخل جعفر ، فلم يلبث أن دعى بابي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن ، وابراهيم بن عبــد الملك ، وخرج ابراهيم وقد خلع عليه وزوج ، وحملت البدر الى منزل عبد الملك ، وخرج جعفر ، فأشار الينا باتباعه الى منزله ، فلما صرنا اليه ، قال: نعلقت قلوبكم بأول الحديث من امر عبد الملك ، فاحببتم علم آخره ، واني لما دخلت على امير المؤمنين ، فقمت بين يديه ، ابتدأت القصة كيف كانــت ، من أولها الى آخرها ، فجعل يقول : احسن والله ! حتى اذا أتممت خبره ، قال : ماصنعت به ؟ فأخبرته بما سأل ، فجعل يقول في ذلك : احسنــت ! احسنــت !

قال مخــارق :

غدوت يوما على ابراهيم بن ميمون الموصلي ، وكان يوم دجن طيب ، فأصبت بين يديه قدورا تفرغر ، وأباريق تزهر ، وهــو كالمهموم ، فسألته عن حاله ، فقال : لي ضيعة ، والى جانبها ضيعــة يبلغ ثمنها مئتي الــف درهم ، وان دخلتها يد غيري افسد علي ضيعتي ، وما اقول ان ثمنها ليس يمكنني ، ولكني لست اسمح باخراج كل ما في يدي . قال : فأمسكت عنه ، واستتممت يومي عنده ، وغدوت على يحيى بن خالد فلقيته ، فسألنــي عن خبر يومي أمس يومي ، فخبرته الخبر فاضحكه . قال مخارق : فانصرفــت الى ابراهيم لاعرفه الخبر ، فوجدت المال قد سبق اليه ، فقلت له : اشتــر الان الضيعة ، فقال : لكل جديد لذة ، وهــذا مال جديد ، ولست احــب اخراجه ، قال : فحدثت جعفرا بالخبر كله فأضحكه ، وبعث بالمــال اليه . قال : فصرت اليه ، فقلت له : اشتر الآن الضيعة ، فقال : العجلة من عمل

الشيطان ، دعني استمتع بهذا المال مدة . وصرت الى الفضل بن يحيى ، فحدثته ، فابتاع الضيعة ، ووزن ثمنها ، ووجه اليه بمثل الثمن ، ووجه اليه بالصك .

وكان جعفر طويل العنق ، وهو أول من عرض الجربانات ، وحشاها بالقطن ، وما زال الناس ينسبونها الى ابن برمك ، يقولون : جربانات برمكية ، وفيه يقول ابو نواس :

ذاك الوزير الذي طالت علاوته كأنه ناظر في السيف بالطول

وأول هذه الابيات :

قالوا امتدحت فماذا اعتضت قلت لهم خرق النعال واخلا قالسراويل
قالوا : فسم لنا هذا ، فقلت لهم وصفي له يعدل التفسير في القيل
ذاك الوزير الذي طالت علاوته كأنه ناظر في السيف بالطول

وله فيه :

لقد غرني من جعفر حسن بابه ولم ادر أن اللوم حشو اهابه
ولست وان بالغت في مدح جعفر بأول انسان خرى في ثيابه

وفي جعفر يقول اشجع السلمي يمدحه :

يحب الملوك ندى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
وليس بأوسعهم في الغنى ولكن معروفه أوسع
وكيف ينالون غاياته وهم يجمعون ولا يجمع

وحكي أن المأمون قال يوما لمحمد بن عباد المهلبي :

بلغني أن فيك سرفا ؟ فقال : يأمير المؤمنين ، البخل مع الوجود سوء ظن بالله عز وجل ، واني لاهم بالامساك ، فأذكر قول اشجع في جعفر بن يحيى ، وذكر هذه الابيات ، فأمر له بمئة الف دينار ، فقال له : استعن بها على مروءتك .

ما جرى بين الرشيد وجعفر : وحكي ان الرشيد قام عن مجلسه يريد الدخول الى بعض حجر قصره ، وان جعفرا اسرع فرفع له الستر ، وان الرشيد جعل يتأمل عنقه تأملا شديدا ، فرآه جعفر وهو يتأمل ، فقال له : ما متأمل امير المؤمنين ؟ قال : حسن عنقك ، وحسن موقع الجربان منه ، فقال له : لا والله ، ما تأملت الا موضع سيفك فيه ، فقال له : اعيذك بالله من هذا القول ، واعتنقه وقبله ، ثم قال للفضل بن الربيع : قاتل الله جعفرا ! وذكر له هذا الخبر ، وقال : ما تأملت عنقه الا لموضع السيف منها .

وتنازع الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى يوما بحضرة الرشيد ، فقال جعفر للفضل : يا لقيط ، فقال له : اشهد يا امير المؤمنين ، فقال جعفر للرشيد : تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهدا يأمير المؤمنين ، وانت

حاكم الحكام !

قال اسحاق بن سعد القطربلي : اخبرنا عمر بن فرج ، قال :

انصرفت مع عمرو بن مسعدة يوما من الشماسية ؛ والمامون بها في زلال لعمرو بن مسعدة ؛ فلما صرنا بازاء قصر جعفر ؛ قال عمرو : يا ابا حفص ، سرت أنا وجعفر يوما كمسيرنا هذا ، فلما نظر الى البناء قال لي : يا أبا الفضل ، والله اني لاعلم انه ليس من بناء مثلي ، ولكن قلت : ان بقي لي فهو قصر جعفر ، وان شره السلطان وقت من الاوقات فهو قصر جعفر ، وان مضت عليه الايام فهو قصر جعفر ؛ ويبقى اسمه وذكره ، ولعله أن يمر به بعض من لنا عنده احسان فيترحم علينا . قال عمرو : فوالله لكأن جعفرا كان ينظر الى ما آلت اليه الحال فيه .

سبب بناء قصر جعفر : وحكي ان السبب كان في بناء هذا القصر ان متظلما من اهل أصبهان تظلم الى يحيى بن خالد من عامله بها ، فقال له : انه ظلمني واساء معاملتي ، واخذ ما لا يجب له مني ، وهدم شرفي ، فقال يحيى: قد عرفت جيع ما تظلمت خلا قولك « هدم شرفي » ففسر لي ذلك ، فقال له المتظلم : أنا من بني رجل كان بنى القصر المهدوم ، وكان ينسب اليه ، وكان الرائي اذا رأى القصر وجلالته ، وعلم اني من ولد الباني له ، عرف بذلك قديم نعمتي ، وجلالة أولي ، فاستحسن ذلك يحيى منه ، وقال للفضل وجعفر : لا شيء أبقى ذكرا من البناء ، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكرا ، فاتخذ جعفر قصره ، وكذلك الفضل ، وأمر يحيى بانفاذ مستحث مع المتظلم ؛ يطالب العامل باعادة بناء قصره ، وانصافه من ظلامته .

وحكي أن جعفرا لما عزم على الانتقال الى قصره هذا ، جمع المنجمين لاختيار وقت لينتقل فيه اليه ، فاختاروا له وقتا من الليل ، فلما حضر الوقت خرج على حمار من الموضع الذي كان ينزله الى قصره ، والطرق خالية ، والناس ساكنون ، فلما سار الى سوق يحيى رأى رجلا قائما وهو يقول :

تدبر بالنجوم وليس يدري ورب النجم يفعل ما يريد

فاستوحش ووقف ، ودعا بالرجل ، فقال له : أعد ما قلت ، فأعاده ، فقال له : ما اردت بهذا ؟ قال والله ما اردت به معنى من المعاني ، ولكنه شيء عرض لي ، وجاء على لساني في هذا الوقت . فامر له بدنانير ، ومضى وقد تنغص عليه سروره .

تظلم أهل مصر : وكان موسى بن عيسى الهاشمي يتقلد للرشيد مصر ، وكثر التظلم منه ، واتصلت السعايات به ، وقيل انه قد استكثر من العبيد والعدة ، فقال الرشيد ليحيى : أطلب لي رجلا كاتبا عفيفا ، يكمل لمصر ،

ويستر خبره ، فلا يعلم موسى بن عيسى به حتى يفجأه ؛ قال : قد وجدته، قال من هو ؟ قال عمر بن مهران — وكان عمر يكتب للخيزران ؛ ولم يكتب لغيرها قط ، وكان رجلا أحول من عينيه ، مشوه الخلق ، خسيس اللباس — فامر باحضاره ؛ قال عمر بن مهران : فلقيت يحيى بن خالد ، فعرفني ما جرى ، وراح بي الى دار الرشيد ، فلما صلى المغرب دعاني ؛ فوصلت اليه وهو خال ، وبين يديه يحيى بن خالد ، فاستدناني ، ونحى الغلمان ، واعلمني ما ندبني اليه ، وأمرني ان استر خبري ، حتى أفاجىء موسى ابن عيسى ، فأتسلم العمل منه ؛ فاعلمته انه لا يقرأ لي ذكرا في كتب أصحاب الاخبار حتى أوافي مصر . ثم كتب لي كتابا بخطه الى موسى ابن عيسى بالتسليم ؛ وودعت يحيى ، وعدت الى منزلي ، فخرجت منه من غد بكرا على بغلة ، معي غلام أسود ، يقال له ابو دزة ، على بغل استأجرته ، معه خرج فيه قميص ومبطنة وطيلسان وشاشية وخف ومفرش صغير ، وأكتريت لثلاثة من أصحابي أثق بهم ، ثلاثة ابغل مياومة ، واظهرت انني وجهت ناظرا في امور بعض العمال ، حتى بلغت الانبار ، ثم تجاوزتها بلدا بلدا ، كلما وردت بلدا توهم من معي اني قصدته ؛ وليس يعرف خبري احد من اهل البلدان التي امر بها في نزولي ونفوذي ؛ حتى وافيت الفسطاط ، فنزلت جنانا ، وخرجت منه وحدي في زي متظلم او تاجر ، فدخلت دار الامارة وديوان البلد وبيت المال ؛ وسألت وبحثت عن الاخبار ؛ وجلست مع المتظلمين وغيرهم ، فمكثت ثلاثة ايام أفعل ذلك ، حتى عرفت جميع ما احتجت اليه . فلما نام الناس في ليلة اليوم الرابع دعوت أصحابي ، فقلت للذي اردت استكتابه على الديوان قد رايت مصر ، وقد استكتبتك على الديوان ، فبكر اليه ، فاجلس فيه ، فاذا سمعت الحركة فاقبض على الكاتب ووكل به وبالكتاب والاعمال ؛ ولا يخرج من الديوان أحد حتى أوافيك ، ودعوت بآخر ، فقلدته بيت المال ، وامرته بمثل ذلك ؛ وكان بيت المال في دار الامارة ، وقلدت الآخر عملا من الاعمال بالحضرة ، وامرتهم ان يبكروا ، ولا يظهروا أنفسهم حتى يسمعوا الحركة ، وبكرت فلبست ثيابي ، ووضعت الشاشية على رأسي ، ومضيت الى دار الامارة ، فأذن موسى للناس اذنا عاما ، فدخلت فيمن دخل ، فاذا موسى على فرش ، والقواد وقوف عن يمينه وشماله ، والناس يدخلون فيسلمون ويخرجون ، وانا جالس بحيث يراني ، وحاجبه ساعة بساعة يقيمني ويقول لي : تكلم بحاجتك ، فاعتل عليه ، حتى خف الناس ، فدنوت منه ، واخرجت اليه كتاب الرشيد ، فقبله ، ووضعه على عينه ، ثم قرأه ، فامتقع لونه ، وقال : السمع والطاعة ، تقرىء أبا حفص السلام ، وتقول له : ينبغي ان تقيم بموضعك ، حتى نعد لك منزلا

يشيعك ، ويخرج غدا اصحابنا يستقبلونك ، فتدخل مدخل مثلك ، قال : فقلت له : انا أعزك الله عمر بن مهران ، وقد أمرني امير المؤمنين باقامتك للناس ، وانصاف المظلوم منك ، وانا فاعل ذلك ، فمن أوضح ظلامته ، ووجب له عليك حق ، غرمته عنك من مالي ، ومن وجدته كاذبا عاملته بحسب ما يستحقه ، فقال لي موسى : أنت عمر بن مهران ؟ قلت : نعم ، فقال : لعن الله فرعون حيث يقول : « اليس لي ملك مصر ! » واضطرب الصوت في الدار ، فقبض كاتبي على الديوان ، وصاحبي الآخر على بيت المال ، وختما عليهما ، ووردت عليه رقاع اصحاب اخباره بذلك ، فنزل عن فرشه ، وقال : لا اله الا الله ، هكذا تقوم الساعة ! ما ظننت أن أحدا بلغ من الحزم والحيلة ما بلغت ، قد تسلمت الاعمال وأنت في مجلسي ! ثم نهضت الى الديوان ، فنظمت امور المتظلمين منه ، وازلت ظلاماتهم وقطعتها ، وأحسنت الى موسى ابن عيسى ، وانصرفت من مصر على بغلتي التي دخلتها عليها ، ومعي غلامي الاسود ، ولم ازد على ذلك شيئا ، وكان ذلك في سنة ست وسبعين ومئة .

أداء الخراج : وكان بمصر قوم يدافعون بالخراج ، ويكسرون بعضه ، فأحضر عمر اشدهم مدافعة ، والطاطا ، فطالبه ، فاستمهله مدة فأمهله ، ثم طالبه ثانية ، فاستمهله ، فأمهله مدة ، ثم فعل ذلك في الثالثة ، فلما حل الاجل دافعه ايضا ، فحلف بأيمان موكدة انه لا يستأديه الا في بيت المال بمدينة السلام ، ثم اشخصه الى الرشيد ، وكتب اليه بخبره ، فبذل له الرجل اداء المال ، فابى عليه أن يقبضه منه ، واقام على الا يؤديه الا في بيت المال ، فخاف الناس جميعا منه مثل ذلك ، وسارعوا الى الاداء ، فلم ينكسر له ، ولا تخلف درهم واحد .

وقائع واقوال : وحكي انه قال لغلامه أبي درة . وقد اهدى له اهل مصر هدايا كثيرة ، لا تقبل منها الا ما يدخل في جراب ، لا تقبل حيوانا ، فقبل من هدايا الناس الثياب والطيب والعين والورق ، وجعل يعزل كل هدية على حدتها ، ويكتب عليها اسم صاحبها ، وجد في استخراج مال مصر ، فزجا منه نجمان ، وتأخر النجم الثالث ، وتلج اصحابه ، فجمعهم وقال لهم : اني قد حفظت عليكم ما أهديتموه الي ، وأمر باحضاره واحضار الجهبذ ، فما كان من عين او ورق أجزاه عمن أهداه اليه ، وما كان من ثوب أو غيره باعه واخذ ثمنه ، حتى استغرق الهدايا كلها ، ونظر فيما بقي بعد ذلك . فطالب به ، فسارع الناس الى الاداء ، فيقال انه عقد جماعة مصر من غير أن يبقى فيها درهم ، ولم يعهد ذلك من قبله .

وكتب عمر بن مهران الى الخيزران بما كان منه ، واكثر الاعتداد ،

فكتبت اليه : قد وصل كتابك تذكر وتذكر ، ولا تستكثرن شيئا يكون منك ، واستدم احسن ما انت عليه يدم أحسن ما عندي لك ، واعلم انه كل شيء لم يزد الا نقص . والنقصان يمحق الكثير ، كما ينمي على الزيادة القليل .

وكان عمر بن مهران ، وهو يكتب للخيزران ، في ديوانها في بعض الايام، فحضر الهيثم بن مطهر الفأفاء الشاعر بابها ، فوقف على دابته ينتظر الاذن ، فبعث اليه عمر : أنزل عن دابتك ، فقد جاء في الحديث الكراهة لهذا ، فقال : أنا رجل أعرج ، وان خرج من انظره خفت أن يفوتني ولا أدركه ، فبعث اليه: ان نزلت والا انزلناك ، فقال : هو حبس في سبيل الله ان اقضمته شعيرا شهرا ان انزلتني عنه ، فأيما خير له : كد ساعة ، أو جوع شهر ؟ فقال : هذا شيطان ، وكف عنه .

وكان عمر بن مهران يأمر الوكلاء والعمال الذين يعملون معه ان يكتبوا على الرشوم التي يرشمون بها الطعام : اللهم احفظه ممن يحفظه .

ثم حج الرشيد ، وحج معه ابناه محمد وعبد الله ، وحج معـــه يحيى والفضل وجعفر ، فلما صار بالمدينـــة جلس ومعه يحيـــى ، فأعطى أهلها العطاء ، ثم جلس محمد بعده ومعه الفضل بن يحيى ، فأعطاهم العطاء ، ثم جلس بعده عبد الله ومعه جعفر ، فأعطاهم العطاء ، فأعطوا في تلك السنة ثلاثة أعطية ، فكان أهل المدينة يسمون ذلك العام عام الثلاثة الاعطية ، ولم يروا مثل ذلك قط الا في ايام البرامكة .

النصرة والبيعة لابن الرشيد : وكان جعفر بن يحيى طالب محمدا لما حلف المأمون في البيت الحرام ان يقول : خذلني الله ان خذلته ، فقال ذلك ثلاث مرات . فحكى الفضل ابن الربيع ، فيما حدث ميمون بن هـــارون أن محمدا قال في ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله : يا ابا العباس ، هو ذا اجد من نفسي أن أمري لا يتم ، فقال له : ولم ذاك أعز الله الامير ؟ قال : لاني كنت أحلف وانا أنوي الغدر ، فقلت له : سبحان الله ! افي هذا الموضع! فقال لي : هو ما قلت لك .

وفرغ الرشيد من توكيد ما قصد له من بيعة ابنيه ، واخذ الايمان لكـــل واحد منهما على صاحبه ، وعلى الناس لهما .

قال موسى بن يحيى : فخرج أبي الى الطواف وانا معه من بين ولده ، فجعل يتعلق بأستار الكعبة ، ويردد هذا الدعاء : اللهم ان ذنوبي جمـــة لا يحصيها غيرك ، ولا يعرفها سواك ، اللهم ان كنت معاقبي فاجعل عقوبتي في هذه الدنيا ، وان أحاط ذاك بسمعي وبصري ، ومالي وولدي ، حتى تبلغ مني رضاك .

وعلق الرشيد الكتب في البيت الحرام ، وانصرفت ، فنزل الانبار ، ودعا

الرشيد صالحا صاحب المصلى حين تنكر للبرامكة ، فقال له : اخرج الى منصور بن زياد فقل له : قد صححت عليك عشرة الاف الف درهم ، فاحملها الي في يومك هذا ، فان هو دفعها اليك كاملة قبل مغيب الشمس من يومك هذا ، والا فاحمل راسه الي ، واياك ومراجعتي في شيء من امره . قال صالح : فخرجت الى منصور ، وهو في الدار ، فعرفته الخبر ، فقال : انا لله وانا اليه راجعون ! ذهبت والله نفسي ! ثم حلف انه لا يعرف موضع ثلاث مئة الف درهم ، فكيف عشرة الاف الف درهم ، فقال له صالح : خذ في عملك ، فقال له : امض بي الى منزلي ، حتى اوصي واتقدم في امري . فمضى ، فما هو الا ان دخل ، حتى ارتفع الصراخ من منازله وحجر نسائه، فاوصى وخرج وما فيه لحم ولا دم ، فقال لصالح امض بنا الى ابي علي يحيى بن خالد ، لعل الله ان يأتينا بفرج من جهته ، فمضى معه ، فدخل على يحيى وهو يبكي ، فقال يحيى : ما وراءك ؟ فقص عليه القصة ، فقلق يحيى بأمره ، واطرق مفكرا ، ثم دعا خازنه ، فقال له : كم عندك من المال ، قال : خمسة آلاف الف درهم ، قال : أحضرني مفاتيحها ، فأحضرها ، ثم وجه الى الفضل : انك أعلمتني ان عندك ، فداك أبواك ، الفي الف درهم ، قدرت ان تشتري بها ضيعة ، وقد أصبت لك ضيعة يبقى ذكرها وشكرها ، وتحمد ثمرتها ، فوجه الينا بالمال ، فوجه به . ثم قال للرسول : امض الى جعفر ، فقل له : ابعث الي ، فداك أبوك ، ألف ألف درهم ، لحق لزمني ، فوجه اليه ، فقال لصالح : هذه ثمانية الاف الف درهم ، ثم أطرق اطراقة لانه لم يكن بقي عنده شيء ، ثم رفع راسه الى خادم على راسه ، وقال : امض الى دنانير ، فقل لها : وجهي الي بالعقد الذي كان امير المؤمنين وهبك اياه . فجاء به ، فاذا عقد كعظم الذراع . فقال لصالح : اشتريت هذا لامير المؤمنين بمئة الف وعشرين الف دينار ، فوهبه لدنانير ، وقد حسبناه عليك بالفي الف درهم ، وهذا تمام المال ، فانصرف وخل عن صاحبنا . قال صالح : فاخذت ، ذلك ورددت منصورا معي ، فلما صرنا بالباب أنشد منصور متمثلا :

فما بقيا علي تركتماني ولكن خفتما صرد النبال

فقال صالح : ما على ظهر الارض كلها رجل هو أنبل من رجل خرجنا من عنده ، ولا سمعت بمثله فيمن مضى ، ولا يكون مثله فيمن بقي ، ولا على ظهر الارض رجل اخبث سريرة ، ولا اردأ طبعا من هذا النبطي ، اذ لم يشكر من أحياه . قال : وصرت الى الرشيد فقصصت عليه قصة المال ، وطويت عنه ما قال منصور بن زياد ، لاني خفت ان سمعه أن يقتله ، فقال لي الرشيد اما أني قد علمت انه ان نجا لم ينج الا باهل هذا البيت . وقال : اقبض

المال ؛ واردد العقد على دنانير ، فاني لم أكن لاهب هبة وترجع الي . قال صالح : فلم اطب نفسا بترك تعريف يحيى ما قاله منصور ؛ فقلت لما رأيته ، بعد ان اطنبت في شكره ؛ ووصف ما كان منه : ولقد أعمت على غير شاكر، قابل أكرم فعل بألأم قول ، قال : وكيف ذاك ؟ فأخبرته بما قال وما كان منه ، فجعل والله يطلب له المعاذير ، ويقول : يا أبا علي ، ان المنخوب القلب ربما سبقه لسان بما ليس في ضميره ، وقد كان الرجل في حال عظيم ، فقلت: والله ما ادري من اي امريك اعجب ؛ أمن الاول أم من الثاني ؟ ولكني أعلم ان الدهر لا يخلف مثلك ابدا .

هجاء وتخوف ومدح : وكان ابو الشمقمق صار الى منصور بن زياد يسأله ان يبره . وكان منصور ضيقا بخيلاً ، فوهب له عشرة الدراهم ، وبلغ الخبر محمد بن منصور ، فأرسل اليه محمد بمئة درهم ، وأمره بالعودة اليه ليبره ؛ فاخذها وقام وهو يقول :

لولا ابن منصور وافضاله سلحت في لحية منصور

فبلغ ذلك محمدا فقال : انما خفنا هذا ، وما أفلتنا منه .

وكان جعفر يساعد الرشيد على كل شيء ، وكان يحيى يعتب على جعفر من دخوله مع الرشيد فيما يدخله فيه ، ويتخوف عليه من عاقبته ، فذكر ان يحيى كتب الى جعفر يوما في شيء عتب عليه منه من هذا الجنس : « اني انما اهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك ، وان كنت أخشى أن تكون التي لا شروى لها » .

وقال يحيى لهارون غير مرة :

يا أمير المؤمنين ؛ اني اكره مداخل جعفر ، ولست آمن أن ترجع العاقبة علي في ذلك منك ، فلو أعفيته ، واقتصرت على ما يتولاه من جسيم اعمالك، لكان أحب الي ، واولى بتفضلك ؛ وآمن عليه عندي ، فقال له الرشيد : ليس بك هذا ، ولكن بك أن تقدم عليه الفضل . وكان الفضل لا يشرب النبيذ ؛ فظن الرشيد ان يتيه عليه ، فكان يعتب عليه .

حدثني ابو الفرج محمد بن جعفر بن حفص ، قال : حدثني أبي ، قال حدثني بختيشوع بن جبريل ، قال : حدثني أبي ، وكان صنيعة البرامكة :

انه دخل على الرشيد يوما وهو جالس على بساط ، على مشرعة باب خراسان ، فيما بين الخلد (١) والفرات ، وأم جعفر من وراء ستر ، فقال لي : قد وجدت ام جعفر شيئا ، فأشر عليها بما تعمل به ، قال : فبينا أنا أنظر في ذلك ارتفعت صيحة عظيمة ، فسأل عنها ، فقيل له : يحيى ابن

---

(١) الخلد : قصر للمنصور .

خالد ينظر في امور المتظلمين ، فقال : بارك الله عليه ، وأحســن جزاءه ، فقد خفف عني ، وحمل الثقل دوني ، وناب منابي ، وذكره بجميل ، ففعلت مثل ذلك أم جعفر ، ولم تدع شيئا يذكــره أحد من جميل الا ذكرتــه به . فامتلأت سرورا ، وقلت في ذلك ما أمكنني ، وخرجت مبادرا الى يحيى بن خالد ، فخبرته بذلك ، فسر به . ومضت مدة ، ثم جاءني رسول الرشيــد يوما ، فصرت اليه ، فوجدته جالسا في ذلك المجلس بعينه ، وام جعفر من وراء الستر ايضا ، والفضل بن الربيع بين يديه ، وقد وجــدت أم جعفر شيئا ، فأمرني بتأمل علتها ، والمشورة بما أراه عليها ، فاني لفي ذلــك اذ ارتفعت ضجة شديدة ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ فقيل : يحيى بن خالد ينظر في امور المتظلمين ، فقال : فعل الله به وفعــل ! يذمه ويسبه ، استبــد بالامور دوني ، وامضاها على غير رايي ، وعمل بما أحبــه دون محبتي ، وتكلمت أم جعفر بنحو من كلامه ، وثلبته اكثر ما يثلب به احد . فورد علي من ذلك ما اقام واقعد ، ثم اقبل علي الرشيد ، فقال لي : يا جبريل ، انــه لم يسمع كلامي غيرك وغير الفضل ، وليس الفضل ممن يحكــي شيئا منه ، وعلي وعلي لئن تجاوزك لاتلفن نفسك ، قال : فتبرأت عنــده من ذكره ، واكبرت الاقدام على حكاية شيء منه ، ومما يجري في مجلسه ، وانصرفت ، فلم اصبر ، وقلت : والله ان تلفت نفسي في الوفاء لم أبال ، وصرت الــى يحيى ، فعرفته ما جرى ، فقال لي : اتذكر وقد جئتني في يوم كذا من شهــر كذا ، وانا في هذا الموضع ، فحكيت لي عن أمير المؤمنين الاحمــاد والثناء ، والشكر والدعاء ، وعن ام جعفر مثل ذلك ؟ فقلت : نعم ، وعجبت من حفظه الوقت ، فقال لي : انه لم يكن مني في هذه الحال التي ذمني فيها شيء لم يكن مني في ذلك الوقت الذي أحمدني فيه ، ولكن المدة ، اذا آذنت بالانقضــاء جعلت المحاسن مساوىء ، ومن أراد ان يتجنى قدر ، نسأله حسن الاختيار .

وكان جبريل بن بختيشوع صنيعة البرامكة ، وكان يقول للمامون كثيرا : هذه النعمة لم افدها منك ولا من ابيك ، هذه افدتهــا من يحيى ابن خالــد وولــده .

الرشيد والفضل ويحيى : وصرف الرشيد الفضل بن يحيى عن الاعمال التي كان يتقلدها أولا أولا ، ثم ظهر في الرشيد في سنة ثلاث وثمانين ومئة سخط على الفضل ابن يحيى ، فشخص اليه الى الرقة ، ومعه أمه زبيــدة بنت منير ، فرضي عنه ، وأقره الامين لحضانته ، ولم يرد اليه شيئا مــن أعمــاله .

احس يحيى اعراض الرشيد عنه فشاور صديقا له : ولما أحس يحيى من الرشيد بالتغير ، ركب الى صديق له من الهاشميين فشــاوره في أمره ،

فقال : ان امير المؤمنين قد احب جمع المال ، وقد كثر ولـده ، فأحب أن يعتقد لهم الضياع ، وقد كثر على اصحابك عنده ، فلو نظرت الى ما في ايديهم من ضياع واموال ، فجعلتها لولد امير المؤمنين ، وتقربت بها اليه ، رجوت لك السلامة ولهم في ذلك من مكروهه ، فقال يحيى : يا اخي ، جعلني الله فداك ، لان تزول عني النعمـة احب الي من ان أزيلها عن قوم كنت سببا لهم .

انصرف يحيى عن باب الرشيد بعد ما هم بالدخول عليه فعاتبه فتمثل بكلام لعلي : ودخل يحيى على الرشيد لما ابتدات حاله في الفساد وهو خال ، فرجع ، فعرف خبره ، فقال لبعض الخدم : الحق يحيى فقل له : خنتني فاتهمتني ، فقال للرسول : تقول له : يا امير المؤمنين ، اذا انقضت المدة كان الحتف في الحيلة ، ووالله ما انصرفت عن خلوتك الا تخفيفا عنك .

وهذا كلام لعلي بن ابي طالب ، كرم الله مثواه : اذا انقضت المدة كان الهلاك في العدة . وسرق هذا المعنى ابن الرومي فقال :

غلط الطبيب علي غلطـة مورد عجزت محالته عن الاصـدار
والناس يلحون الطبيـب وانما غلط الطبيـب اصابة المقـدار

وكان الرشيد بعد صرف الفضل بن يحيى عن خراسان قلد علي بـن عيسى ابن ماهان ، لتكثير وقع عنده على الفضل في الاقوال ، فقتل علي بن عيسى وجوه اهل خراسان وملوكها ، وجمع أموالا جليلة ، فحمل الى الرشيد الف بدرة معمولة من الوان الحرير ، وفيها عشرة الاف الف درهم ، فلما وصلت اليه سر بها ، وأحضر يحيى بن خالد ، فقال له : يا أبه ، اين كـان الفضل عن هذا ؟ فقال : يا امير المؤمنين ، ان خراسان سبيلهـا أن تحمل اليها الاموال ، ولا تحمل منها ، والفضل اصلح نيات رؤسائها ، واستجلب طاعتهم ، وعلي بن عيسى قتل صناديد اهل خراسان وطراخنتها (١) ، وحمل أموالهم ، ولو قصدت لدرب من دروب الصيارف بالكرخ ، لوجدت فيه اضعاف هذه ، وسينفق امير المؤمنين مكان كل درهم منها عشرة ، فثقل هذا القـول منه على الرشيد ، فلما انتقض أمر خراسـان ، وخـرج رافع ابن الليث ، واحتاج الى النهوض اليها بنفسه ، حتى صار الى طوس جعـل يتذكر هذا الحديث ، ويقول : صدقني والله يحيى ونصح لي فلم اقبل منه . والله لقد انفقت مئة الف الف وما بلغت شيئا .

مثل من حسن سياسة خالد ايام عبد الملك : وذكرت بهذا الحديث ما حكي عن عبد الملك بن مروان في أمر الحجاج :

---

(١) الطراخنة : جمع طرخان ـ بالفتح ـ ، وهو اسم للرئيس الشريف .

وذلك انه كان الحجاج حمل الى عبد الملك هدية ومالا عظيما كثيرا ، وهو بحمص ، فأبرز سريره وجمع الناس ، وكان فيمن حضر خالد وامية ، ابنا عبد الله بن أسيد ، فلما نظر الى الهدية والمال قال : هذه والله الامانة والحزم والنصيحة ، ثم اشار الى خالد بن عبد الله بن خالد ابن اسيد ، فقال : اني استعملت هذا على البصرة ، فاستعمل كل فاسق ، فجبى عشرة واختان تسعة ، ورفع الي هذا درهما ، فدفع الي هذا من الدرهم سدسا ، واستعملت هذا — يعني اخاه — على خراسان وسجستان ، فبعث الي بمفتاح من ذهب ، زعم انه مفتاح مدينة ، وفيل وبر ذونين حطمين ، واستعملت الحجاج ، ففعل كذا ، فاذا استعملتكم ضيعتهم ، واذا عزلتكم قلتم : قطع أرحامنا ، قال : فأراح خالد اراحة الفرس ، ثم قال : استعملتني على البصرة واهلها رجلان : مطيع مناصح ، ومخالف مشايح ، فاما المطيع فاني جزيته بطاعته ، فازداد رغبة ، واما المخالف فاني داويت عداوته ، واستللت ضغينته ، وحشوت صدره ودا ، وعلمت اني متى اصلح الرجال اجبي الاموال ، واستعملت الحجاج فجبى لك المال ، وكنز العداوة في قلوب الرجال ، فكأنك بالعداوة التي كنزها قد ثارت وانفقت الاموال ، ولا مال ولا رجال ، فسكت عبد الملك . فلما كان هيج الجماجم جلس عبد الملك على باب ذي الاكارع ومعه خالد يندب الناس الى الفريضة ، ويتأمل خالدا ويذكر قوله ويضحك .

يحيى ينهي الرشيد عن هدم ايوان كسرى : وأمر الرشيد يحيى بن خالد بالتقدم في هدم ايوان كسرى ، فقال : لا تهدم بناء دل على فخامة شأن بانيه الذي غلبته وأخذت ملكه ، قال : هذا من ميلك الى المجوس ، لا بد من هدمه . فقدر للنفقة على هدمه شيء استكثره الرشيد ، وأمر بترك هدمه ، فقال له يحيى : لم يكن ينبغي لك أن تأمر بهدمه ، واذ قد امرت فليس يحسن بك أن تظهر عجزا عن هدم بناء بناه عدوك ، فلم يقبل قوله ولم يهدمه .

وكان الفضل بن سهل بن زاذانفروخ من قرية من السيب الاعلى ، تعرف بصابر نيتا ، وكان له عم يدعى يزيد بن زاذانفروخ ، فتوكل يزيد بجارية لعاصم بن صبيح ، مولى داود بن علي بالسيب ، وكان ليزيد ولاهله بالسيب ضيعة وبيت ، فأحسن القيام بهما ، وبما توكل فيه ، ووفر ماله ، وحظي عند صاحبته حظوة شديدة ، فاتهمه عاصم لما راى من افراط حظوته، فدعا به وهو سكران ، فضربه ضربة بالسيف مات منها ، ووكل بضيعته ومنزله . فصار سهل بن زاذانفروخ أخوه الى باب يحيى بن خالد متظلما من عاصم بن صبيح في أمر ضيعته ومنزله ، ومطالبا بدم أخيه ، وهو مجوسي

بعد ؛ فاتصل بسلام بن الفرج ، مولى يحيى ابن خالد . معتصما به ، ومستعينا بيده على ظلامته ، فحماه وأنفذ معه مولى له ، يقال له مرشد الديلمي في جماعة ؛ حتى انتزع الضيعة والمنزل من يدي وكيل عاصم ، واقر ذلك في يدي سهل ؛ وحاط ولده واسبابه ، وأسلم سهل ابن زاذانفروخ على يدي سلام وتظلم عاصم بن صبيح الى يحيى بن خالد من سلام ، فدعا به ، وانكر عليه ؛ فاقتص عليه القصة ، واحضره سهلا حتى قام بحجته ، فتبين ان الحق له ؛ فعاونه عليه ، وكف عاصما عنه . ولم يزل سلام يذب عنه ، ويقوم بأمر ضيعته ، وسهل يخدمه ويلزمه ، حتى خالط اسباب البرامكة . فأحضر ابنيه الفضل والحسن ؛ فاتصل الفضل ابن سهل بالفضل بن جعفر وتقلد قهرمته ، واتصل الحسن بن سهل بالعباس بن الفضل بن يحيى وخدماهما ؛ وعرفهما يحيى بن خالد ؛ ورعى لهما ولايتهما ، وكان يحافظ على يسير الخدمة ؛ فنقل الفضل بن سهل ليحيى كتابا من الفارسية الى العربية ، فأعجب بفهمه ؛ وبجودة عبارته ، فقال له : انى أراك ذكيا ، وستبلغ مبلغا رفيعا ، فأسلم حتى أجد السبيل الى ادخالك في امورنا ؛ والاحسان اليك ، فقال : نعم ، أصلح الله الوزير ، اسلم على يديك ، فقال له يحيى : لا ، ولكن اضعك موضعا تنال به حظا من دنيانا ، ودعا بسلام مولاه ، فقال : خذ بيد هذا الفتى ، وامض به الى جعفر ، وقل له يدخله الى المأمون ، وكان في حجر جعفر ، حتى يسلم على يديه ، فادخله جعفر الى المأمون ، فأسلم على يديه ، فوصله واحسن اليه ، وأجرى عليه رزقا مع حشمه ، ولم يزل ملازما للفضل بن جعفر حتى اصيب البرامكة ، فلزم المأمون .

ووجدت بخط ابي علي أحمد بن اسماعيل نطاحة :

أن جعفر بن يحيى لما عزم على استخدام الفضل بن سهل للمأمون ، قرظه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد ، فقال له الرشيد : أوصله الي ، فلما وصل اليه أدركته حيرة فسكت ، فنظر الرشيد الى يحيى نظرة منكر لاختياره، فقال له الفضل : يا أمير المؤمنين ، ان اعدل الشواهد على فراهة المملوك ان تملك قلبه هيبة سيده ، فقال له الرشيد : لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام ؛ لقد أحسنت ، ولئن كان بديهة لهو احسن واحسن . ولم يسأله بعد ذلك عن شيء الا أجابه بما يصدق تقريظ يحيى له .

وذكر الفضل بن مروان انه كان بالبردان ، وكان معه اسحاق ابن سورين ، قال : فمر بنا الفضل بن جعفر بن يحيى بن خالد على فرس عرى ، وعليه جبة وشي ، وهو بغير سراويل ، ولا خف ، وبيده سيف مشهر ، وخلفه مجوسي طويل العنق ، فوقف المجوسي علينا ، فاستسقى ماء ، فأتي

بماء في كوز خزف أخضر ، فقال المجوسي انكارا للكوز الخزف : أوشك ان تذهب الدهقنة حتى لا يبقى لشيء منها أثر ! أين الفضة ؟ فقال له اسحاق : حظرها الاسلام ، قال : فأين الزجاج ؟ قال : منع منه غلظ الهواء ، فاخذ الكوز ، فشربه ، ثم قال له اسحاق : أما ترى الى صاحبكم هذا ما يصنع بنفسه ؟ فقال : اجتمع له سكر الشباب ، وسكر الشراب ، وسكر السلطان وسكر الجدة ، وسكر السخاء ، ومضى يتبعه ، فسألنا عنه ، فقيل : هذا الفضل بن سهل كاتبه .

وقد حكي مثل هذا الكلام عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في آل مروان ، حدث علي بن عيسى ، قال :

كنا بالشراة (١) ، وكنا نرى ما فيه آل مروان من دنياهم ، فنذكر ذلك لاخينا محمد بن علي ،فيعزينا عنه ، ويقول : اذا اجتمع سكر الشباب وسكر السلطان وسكر المال لم يبق من القلب شيء .

وذكر أبو العلاء المذاري (٢) انه سمع الفضل بن سهل يقول :

قال لي يحيى بن خالد : في كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة ، وانت عندي منهم .

وكان عمر بن مساور الكاتب في ناحية البرامكة ، وكان في ناحية الفضل بن الربيع أولا ، وكان يتقلد بعض أعمال اهواز ، فقال فيه أبو الشمقمق :

انا بالاهواز جار لعمر لعظيم زعموا ضخم الخطر
لا يرى منه علينا اثر لا يكون الجود الا باثر
ان تكن ورقك عنا عجزت يا أبا حفص فجد لي بحجر
يكسر الجوز به صبياننا واذا ما حضر اللوز كسر

الفضل والرشيد ووقائع تاريخية : وصرف الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن حجابته ، وقلدها الفضل ابن الربيع ، في سنة تسع وسبعين ومئة.

وكان يحيى ولى رجلا بعض أعمال الخراج ، فدخل به الى الرشيد ليراه ويوصيه ، فقال ليحيى بن خالد ولجعفر ولده : أوصياء . قال له يحيى : وفر واعمر ، وقال له جعفر : أنصف وانتصف ، وقال له الرشيد :

---

(١) الشراة : صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول صلى الله عليه واله وسلم ،

(٢) المذارى :نسبة الى مذار ، قصبة ميسان .

اعدل وأحسن .

حدثني عبد الواحد بن محمد ، قال :

كان العتابي يقول بالاعتزال ، فاتصل ذلك بالرشيد ، وكثر عليه في امره ، فامر فيه بأمر عظيم ، فهرب الى اليمن ، فكان مقيما بها ، فاحتال يحيى بن خالد الى ان أسمع الرشيد شيئا من رسائله وخطبه ، فاستحسن الرشيد ذلك ، وسأل عن الكلام لمن هو ؟ فقال : هذا للعتابي ، ولو حضر حتى يسمع منه الامين والمأمون هذا الكلام ، ويصنع لهما خطبا ، لكان ذلك أصلح ، فأمر باحضاره ، فاخذ الامان له . فاتصل الخبر بالعتابي ، فقال :

ما زلت في سكرات الموت مطرحا قد غاب عني وجوه الامر من حيلي

فلم تزل دائبا تسعى لتنقذني حتى استللت حياتي من يدي أجلي

وكان منصور النمري الشاعر مدح الرشيد بقصيدة طويلة ، قال فيها :

ان اخلف القطر لم تخلف مخايله او ضاق أمر ذكرناه فيتسع

وكان شكا قبل انشاده هذا البيت الى كلثوم بن عمرو العتابي عسر الولادة على زوجته ، فلما انشد هذا البيت قال له العتابي : اكتب على فرج زوجتك — هارون — فذكر هذا النمري للرشيد ، فأمر بضرب عنق العتابي، حتى شفع فيه يحيى بن خالد ، واستوهب دمه ، فصفح له عنه .

وذكر ابو الفضل بن عبد الحميد :

أن الرشيد امر لحمدونة باقطاع غلته مئة الف درهم ، والف الف درهم صلة ، فصار كاتبها بالتوقيع الى ديوان الضياع . ففارقهم على بر دافعهم عنه ، ولم يف لهم بحمله ، فزاد بعضهم في التوقيع عند موضع الواو من « والف الف درهم » الفا ، فصارت « آوالف الف درهم » ، فذكر الكاتب ذلك لحمدونة ، فشكته الى الرشيد ، فقال لها : احسب أن كاتبك هذا الجاهل لم يبر الكتاب ، واعاد التوقيع ، وامرها أن تبر الكتاب بما يرضيهم.

مقتل جعفر ابن يحيى ونتائجه : ولم يزل جعفر بن يحيى مع الرشيد في حاله في الانس والانبساط ، الى ان ركب في يوم جمعة مستهل صفر سنة سبع وثمانين ومئة الى الصيد ، وجعفر يسايره خاليا ، وانصرف ممسيا الى القصر الذي كان ينزله بالانبار ، وهو معه ، فضمه اليه ، وقال له : لولا اني اريد الجلوس الليلة مع النساء لم افارقك ، فصار جعفر الى منزله ، وواصل الرشيد الرسل اليه بالالطاف الى وجه السحر ، ثم هجم عليه مسرور الخادم ومعه سالم وابن عصمة ، فحمل وضربت عنقه ، واتى الرشيد

براسه ، وكانت سنه سبعا وثلاثين سنة ، وانفذ الرشيد جثته الى مدينة السلام ، مع هرثمة بن اعين ومسرور وسلام الخادمين ، فقطعت بنصفين ، وصلبتا على الجسرين ، ونصب راسه بمدينة السلام ، وحبس الفضل ومحمد وموسى بنو يحيى ، ووكل سلام الابرش بباب يحيى ، ولم يعرض الرشيد لمحمد بن خالد ، ولا لاحد من أسبابه .

وذكر أن مسرورا لما هجم على جعفر بن يحيى ، وعرفه ما أمر به في أمره ، قال له : يا أبا هاشم : الحرمة والمودة ، فقال : مالي في امرك حيلة ، فقال جعفر : هذه خمسون الف دينار اقبضها ، واحملني معك غير مقتول ، واعلم امير المؤمنين انك قد امتثلت ما امرك به ، فان امسك عنك تركتني حتى يسألك عني ، فتعلمه انك أشفقت من قتلي خوفا من أن يكون أمر به من عمل النبيذ ، أو بادرة يندم عليها ، فاستظهرت بتركي ، وتمضي بعد ذلك ما يامرك به ، وان تكن الاخرى فأنت من المال في حل وسعة ، ففعل ذلك مسرور ، وحمله الى مضرب الرشيد بالعمر (١) ، فوكل به فيه ، واستظهر بأن قيده، ثم دخل الى الرشيد وهو جالس على كرسي ينتظره ، فلما رآه قال : ما فعلت ؟ قال : امتثلت ما أمر به أمير المؤمنين ، قال : فأين راسه يابن الفاعلة؟ فرجع مسرور يعدو حتى أخذ راسه في بريكة قبائه ، فالقاه بين يديه ، وحملت جثته والقيد فيها ، وصلب وهو في رجليه .

قال سلام الابرش :

لما دخلت على يحيى في ذلك الوقت ، وهتكت الستور ، وجمعت المتاع، قال لي غير متغير ولا مضطرب : يا ابا سلمة ، هكذا تقوم الساعة ! ثم بلغه قتل جعفر ، فقال : الحمد لله ، فاني بفضل ربي واثق ، وبالخيرة منه عالم ولا يؤاخذ الله العباد الا بذنوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد ، وما يغفر الله اكثر ولله الحمد على كل حال .

ما فعله الرشيد بالبرامكة : وانفذ الرشيد مسرورا والحسن الخادمين، وأبا صالح يحيى بن عبد الرحمن الكاتب ، وابراهيم بن حميد الكاتب ، فقبض مالهم وعقاراتهم وضياعهم بالعراق ، وكانت مدتهم في الوزارة سبع عشرة سنة .

وذكر مسرور :

انه دخل على جعفر في الليلة التي قتله فيها ، وبين يديه أبو زكار الاعمى

---

(١) العمر : بناحية الانبار .

المغني وهو يغني :

عداني أن أزورك غير بغض | مقامك بين مصفحة شداد
فلا تبعد فكل فتى سياتي | عليه الموت يطرق أو يغادى

فقلت له : ياابا الفضل ، الذي جئت له والله من ذاك ، قد والله طرقك فأجب أمير المؤمنين ، قال : فدعني حتى أوصي ، فتركته حتى أوصى بما أراد واعتق مماليكه ، وأتتني رسل أمير المؤمنين تستحثني لحمله .

فقال الرقاشي :

الآن استرحنا واستراحت ركابنا | وامسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد امنت من السرى | وقطع الفيافي فد فدا بعد فد فد
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر | ولن تظفري من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تعطلي | وقل للرزايا كل يوم تجددي
ودونك سيفا برمكيا مهندا | اصيب بسيف هاشمي مهند

وقال فيه ايضا :

أما والله لولا خوف واش | وعين للخليفة لا تنام
لطفنا حول جذعك واستلمنا | كما للناس بالحجر استلام
وما ابصرت قبلك يابن يحيى | حساما قده السيف الحسام
على المعروف والدنيا جميعا | بدولة آل برمك السلام

وقال الآخر :

يا بني برمك واها لكم | ولأيامكم المقتبلة
كانت الدنيا عروسا بكم | فهي الآن ثكول أرملة

ويروى : « اليوم » .

وحكي أن الرشيد قال للسندي بن شاهك ، وكان يلي الجسرين ببغداد ، اذا كان بعد سنة من يومك هذا ، فوكل بدور البرامكة وأسبابهم سرا . قال السندي : فلما كان في ذلك الوقت ، وكان الرشيد بعمر الانبار ، ومعه جعفر ، وكلت بدورهم سرا ، على خوف مني ووجل ، أن يبدو للرشيد في الراي ، وأن يتصل خبر توكيلي بهم ، فيكون سبب هلاكي ، فظللت يومي مهموما ، فلما امسيت اقمت ليلتي في المجلس بالجسر في الجانب الشرقي ، اتوقع خبرا يرد علي من الرشيد ، ووكلت من يراعي رسولا أو كتابا يرد من الرشيد ، فلما كان في السحر وافى فرانق (١) ينعر (٢) على بغل ، تحته

---

(١) الفرانق : دليل صاحب البريد .

(٢) ينعر : يصرخ ويصيح .

خرج فيه جثة جعفر مقطوعة نصفين ، وكتاب الرشيد الي بصلب كل نصف على احد انجسرين ، ففعلت ذلك .

فلما كان بعد سنة من ذلك ، خرج الرشيد فجلس في مجلس الجسر الشرقي ، واحرق جثة جعفر ، وكان قد قدم من اليمن بالهيضم ، وكان قد خرج بها ، وبأسراء معه ، فقدمهم فضرب أعناقهم بين يديه ، وكان اخرهم عديلا للهيضم ، فلما تقدم السياف لضرب عنقه قال : قل لامير المؤمنين : ان عندي نصيحة ، قال السندي : فوقف السياف عن ضرب عنقه ، واخبرني بما قال : فاتيته وقلت : ما نصيحتك ؟ قال اعلم امير المؤمنين اني الحفصي – وهو ابو عبد الله الذي كان يغني للمتوكل – واني احذق الناس بغناء المعزفة وضربها ، ولم تكن المعزفة عرفت بالعراق قبل ذلك . قال السندي : فاعلمت الرشيد . قال : فامره بالامساك عنه واستبقائه ، ثم دعا به من يومه وقد جلس للشرب ، فغناه فاطربه ، فوهب له ثلاثين الف درهم ، وصيره في جملة المغنين الذين يحضرون مجلسه .

وحكي عن الاصمعي قال :

لما قتل الرشيد جعفر بن يحيى ارسل الي ليلا ، فراعني ، واعجلني الرسل ، فزادوا في وجلي ، فصرت اليه ، فلما مثلت بين يديه أوما الي بالجلوس ، فجلست ، ثم قال :

لو ان جعفر خاف اسباب الردى	لنجا بمهجته طمر ملجم
ولكان من حذر المنون بحيث لا	يرجو اللحاق به العقاب القشعم
لكنه لما تقارب يومه	لم يدفع الحدثان عنه منجم

ثم قال لي : الحق بأهلك ، فنهضت ولم احر جوابا ، وفكرت فلم اعرف لما كان منه معنى ، الا انه اراد ان يسمعني شعره فأحكيه .

الحرباني وانس وسعيد بن وهب : قال ميمون : حدثني عبيد الله بن سليمان بن وهب ، قال : حدثني اسحاق بن منصور قال : قال لي محمد بن الحصين الاهوازي :

كنا مع جعفر بن يحيى بالرقة فنحن بين يديه ، وهو يأمر وينهي ، اذ خلا بأنس بن أبي شيخ ناحية ، ونحن نراه ، فأدخل صاحب الشرطة رجلا من اهل الذمة ، فوقفه من بعيد ، ودنا من جعفر ، فقال له : قد احضرت الرجل الذي أمرت باحضاره ، قال : فقطع ما كان فيه مع أنس ، والتفت ينظر اليه . قال : وكان الرشيد قد امر أهل الذمة بتغيير اللباس والركوب، ثم قال له وهو رافع صوته : ما اسمك ؟ قال : فلان بن فلان ، قال : ابو من؟ قال : أبو فلان ، قال : انت الحرباني ؟ قال : نعم ، قال : الرقعة التي رفعتها رقعتك ؟ قال : نعم ، قال : وما فيها عنك وانت تقوله ؟ قال : نعم ،

قال : فاطرق جعفر ساعة ثم التفت الى صاحب الشرطة ، فقال له : خذه اليك ، فان أمير المؤمنين امرك بقتله ويصلبه . فارتعنا لذلك القول ، ولم نعرف الرجل ، ولا الذي في رقعته . قال : فاخذ صاحب الشرطة بيده ، فقال له انس بن ابي شيخ : اصلبه على اطول عود بالرقة ، قال : فالتفت اليه الحرباني فقال : ان شاء على اطول عود ، وان شاء على أقصره ، ليس والله يركبه بعدي غيرك . قال : فعجبنا من صرامته ، ومن ذلك القول ، وذهب به فقتل وصلب . قال : فانتقلنا من موضع الى موضع ، ومن بلد الى بلد ، وكان بين هذا القول وبين الحادث على البرامكة ثلاث سنين او نحوها ، فقتل جعفر بن يحيى بالانبار ، وحملت جثته الى بغداد ، فصلبت على الجسرين قطعتين : فلما دخل الرشيد الرقة قال لهم : ما فعل الحرباني الذي كان قال لجعفر ما قال ، وما فعلت خشبته ؟ فقيل له : الخشبة على حالها ، وجسم الحرباني على حاله ، الا انه قد بلي وبقي منه العظام ، فقال : انزلوه من الخشبة واصلبوا جثة انس عليها . فرايت انسا على تلك الخشبة ولم تعرف قصة الحرباني ولا ما كان من أمره ، وعجبنا من انتهاء الخبر في ذلك الى الرشيد ، وما قال الحرباني لجعفر ، وصحة قوله .

حدثنا محمد بن يحيى المروزي ، قال : حدثنا ابو عثمان عمرو بن بحر ، قال :

كان انس بن ابي شيخ يكتب لجعفر بن يحيى ، وكان زكيا فهما ، نقي الالفاظ ، جيد المعاني ، حسن البلاغة ، فقتل مع جعفر بن يحيى .

حدثنا محمد بن سعد عن ابيه قال : حدثني الخزيمي ، قال :

كنت يوما عند الفضل بن يحيى ، فدخل انس فتحدث ، وأنشد ، وتملح ، واندر ، فأحسن في جميع ذلك ، والفضل ينظر اليه ما ينبض منه عرق ، فأمسكت لامساكه ، فلما قام قلت : من هذا ، جعلت فداك ؟ فقال : هذا انس عشيق صديقك ابي الفضل ، وما أدرى ما أعجبه منه الا القدر المتيح ذلك . ثم كنت بعد ذلك عند جعفر بن يحيى ، فدخل سعيد ابن وهب الشاعر ، فتحدث ، وانشد ، وتملح ، وروى ، وأتى بكل شيء حسن ، وجعفر ينظر اليه ما ينبض له عرق ، فلما قام قلت : جعلت فداك ، من هذا ، قال عشيق صديقك ابي العباس ، هذا سعيد بن وهب ، فما ادري ما أعجبه منه لولا القدر الذي اتاح له ذلك ، وكنت أعرف الناس بانس وبسعيد ولكني تجاهلت .

وذكر الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين » :

ان رجلا دخل على انس بن ابي شيخ ، وراسه على مرفقة ، والحجام يأخذ من شعره ، قال : فقلت له : ما يحملك على هذا ؟ فقال لي : الكسل ، قال : فقلت له : ان لقمان قال لابيه : اياك والكسل ، اياك والضجر ، قال :

ذاك والله لانه لم يعرف لذة الكسل والفسولة .

ومما حفظ من كلام انس : ان الله جل ثناؤه جعل الدنيا دار بلوى ، والآخرة دار عقبى ، فجعل بلوى الدنيا عوضا ، فياخذ ما يأخذ مما يعطي ، ويبتلي ما يبتلي به ليجزي .

واقيم لولد يحيى ما يحتاجون اليه من مطعم ومشرب وملبس ، ولم يقيد احد منهم ، وقيد جميع كتابهم وقهارمتهم وحاشيتهم واسبابهم ، ولم يحبس يحيى ، وبقي في منزله موكلا به ، ثم وجه اليه الرشيد يخبره : اي موضع شئت فاقم به ، فوجه اليه : ان كنت راضيا عني فأحب المواضع الي ان أقيم فيه مكة أو بعض الثغور ، وان لم ترض عني فلست ابرح من موضعي أو ترضى عني .

وكان الرشيد كتب ليحيى كتابا بخطه ، يحلف له فيه بأيمان مغلظة : ان لا يبداه بسوء . ولا ينالهٍ بمكروه في نفسه ، ولا في شيء من ماله وحاله ، واشهد بذلك على نفسه جميع أهله ، ووجوه قواده واصحابه ، فدفع يحيى الكتاب الى الفضل ولده ، وامره بحفظه ، فكان عنده الى ان اخذ من خزائنه، ولم يوجد ليحيى بن خالد الا خمسة الاف دينار ، وللفضل الا اربعين الف درهم ، ولم يوجد لموسى شيء ، ولا لجعفر شيء ، ووجد لمحمد بن يحيى سبع مئة الف درهم .

وقد ذكر الحارث بن ابي اسامة في كتاب اخبار الخلفاء :

انه وجد لجعفر بن يحيى بركة في داره التي في سويقة جعفر ، فيها أربعة آلاف دينار ، وزن كل دينار مئة دينار ودينار ، وعلى كل دينار من احد جانبيه :

واصفر من ضرب دار الملوك   يلوح على وجهه جعفر

ومن الجانب الآخر :

يزيد على مئة واحدا   اذا ناله معسر ييسر

ورات دنانير ، جارية يحيى بن خالد ، بعد تقضي الامر عنهم ، وتقضي ايامهم ، جماعة من اصاغر أولادهم يلاعبون صبيان العامة ، وقد خالطوهم فقالت :

كانهم وبنو الغوغاء حولهم   در ومشخلب في الارض منثور

قال ميمون بن هارون :

قيل لعتابة ام جعفر بن يحيى ، بعد نكبتهم ، وهي بالكوفة في يوم اضحى ما اعجب ما رايت ؟ فقالت : لقد رايتني في مثل هذا اليوم وعلى راسي مئة وصيفة ، لبوس كل واحدة منهن وحليها خلاف لبوس الاخرى وحليها ، وأنا في يومي هذا اشتهي لحما ، فما اقدر عليه .

شعر في البخل : وكان محمد بن يحيى بخيلا ، فصحبه المختم الراسي الشاعر ، بعد أن كان يصحبب محمد بن منصور بن زياد ، الذي كان يلقبه الرشيد « فتى العسكر » ؛ وكان كريما ، فافاد معه مئة الف درهم ، فلما مات اتصل بمحمد بن يحيى بن خالد ، فانفقها معه ، ولم يتعوض منها شيئا ، فقال :

أمحمد لولا النبي محمد	وشرائع الاسلام والايمان
ما كان فيك لغاسل من مغسل	يا طاهرا في السر والاعلان
شتان بين محمد ومحمد	حي امات وميت احياني
فصحبت حيا في عطايا ميت	وبقيت مشتملا على الخسران

وكان محمد بن يحيى قبيح البخل ، فدخل يوما أبو الحارث جمير على يحيى ابن خالد ، وكان يألف محمدا ، فقال له يحيى ، يا أبا الحارث ، صف لي مائدة محمد ، قال : هي فتر في فتر ، وصحافه منقورة من حب الخشخاش وبين نديمه وبين الرغيف نقدة (١) جوزة ، قال : فمن يحضره ؟ قال : الكرام الكاتبون ، قال : فمن يأكل معه ؟ قال : الذباب . فقال : سوء له ، انت خاص به وثوبك مخرق ! قال : والله ما أقدر على ابرة اخيطه بها ، ولو ملك محمد بيتا من بغداد الى النوبة مملوءا ابرا ، ثم جاءه جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي يضمنان له عنه ابرة ، ويسألانه اعارته اياها ، ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر ، ما فعل .

الرشيد يستفسر : قال الفضل بن مروان حدثني مسرور الكبير ، قال : دخلت على الرشيد بعد أن قتل جعفر بن يحيى ، وقد خرج من مرقده وهو يريد الخلاء ، فلما رآني أمر بكرسي فطرح له ، وجلس عليه ، ثم قال : اني سائلك عن امر ، فلا تطول علي ، فاني أريد التطهر ، ولست أبرح او تخبرني بما أسألك عنه ، فقلت له : يسأل أمير المؤمنين عما أحب ، فقال : أخبرني عما وجدته للبرامكة من المال والجوهر ، فقلت له : ما وجدت لهم شيئا من ذلك ، قال : وكيف وقد نهبوا مالي ، وذهبوا بخزائني ! فقلت : انفقوا في المكارم ، واصبت لهم جوهرا لا يشبه امثالهم ، قال لي : فما يقول الناس فينا وفيهم ؟ فقلت : الله الله في أمري ، فقال لي : مالك ؟! فقلت : الصدق يغضبك ، وكان استحلفني ورشيدا والحسين الخادمين ان نصدقه عن كل شيء يسألنا عنه ، فخفت ان أصدقه فلا يعجبه ، لاني كنت صدقته عن شيء من امر الحرم ، فغضب علي ، وحجبني اربعين يوما ، فانكرته

---

(١) نقدة جوزة : يقصد مسافة طويلة .

بذلك ، فقال : كان ذلك مني غلطا ، ولن أعود لمثلها — فقلت له : يقــول الناس : انك لم تف لهم ، وانك طمعت في اموالهم ، قال : فاي شيء حصلت منها ؟ فقلت : ضياعهم ، هي مال ، قال : البس سيفك واحضرني يحيى بن خالد ، فأقمه وراء الستر . فأحضرته ، ثم خرج الرشيد من الخلاء ، فقال لي: اخرج اليه ، فقل له : ما حملك علي ان حملت الى يحيى بن عبد الله بالديلم مئتي الف دينار ؟ فقلت له ذلك ، فقال : قل له : أليس قد صفحت عن هذا ؟ فقال لي : أو يصفح الانسان عن دمه ؟ فقلت له ذاك ، فقــال : اردت ان تقوى شوكة يحيى بن عبد الله ، فيظفر به الفضل بعد قوته ، فيكون أحظى له عندك ، فقال : قل له : فما يؤمنك أن تقوى شوكته ، فيقتل الفضل ويقتلني؟ وما حملك على ان انفذت الى احمد بن عيسى بن زيد بالبصرة مع غلامك رياح سبعين الف دينار ؟ فقلت له ذاك ، ثم قال : قل له : انت تعلم موقع عيالــي مني ، فطلب منك وانا بالبصرة الا فالف درهم ، وقد كان ورد من مال فارس ستة آلاف الف درهم ، فقلت لي : ان اخذت منها درهما واحدا لهذا الشأن ذهبت هيبتك ، فأمسكت ، فأخذت انت منها الف الف وخمس ومئة الف درهم ففرقتها في عمالك ، فاحتلت أنا بقرض تولاه يونس ، ما فرقته فيهم ، ثم قال : قل له كذا ، حتى عدد اربعة عشر شيئا ، ثم أمرني برده الى محبسه ، وقال : يا مسرور : يقول الناس : اني ما وفيت ! فقلت : يا امير المؤمنين : ما أحسب ان تستجهلني ، قال : وكيف ؟ قلت : كيف لي بأن يعلم الناس مثل علمــي ! لبودي انهم علموا ذاك ، على اني أعلم انه لو نودي فيهم دهرا من الدهور ، ما قبلــوه .

الفضل ويحيى في الحبس : ووجه الرشيد في طلب الاموال ، وضيق على البرامكة جميعا ، وأساء اليهم ، وضرب الفضل بن يحيى مئتــي سوط ، تولاها مسرور الخادم ، فقال له الفضل : أنت تعلم يا ابا هاشم اني كنت اقي عرضي بمالي ، فكيف اقي مالي بنفسي في هذا الوقت ؟ والله ما عندي شيء ، ولو كان عندي ما سترته ، ولا وريت (١) عنه . فلم يوجد عندهم شيء غيــر ما اخذ . واشفي الفضل من ضرب السوط على أمر عظيم ، فأمر يحيى بعض اسبابه أن يطلب من يعالجه ، فالتمس رجلا ممن قد حبس وعوقب من الشطار فوجد رجلا منهم ، فجاء به وقد غير زيه ، كأنه بعض حاشيتهم ، ثــم ابتدأ يعالجه ، فلقي مكروها شديدا من الم العلاج ، ثم صلح وعوفي ، فقال الفضل بن يحيى لقرمانه : ما عندنا شيء نكافىء هذا الرجل ، فصر الى يحيى بن معاذ ، فسله عشرة آلاف درهم ، فادفعها اليه ، فصار قهرمانه الى يحيى ،

---

(١) يقال : ورى عن الشيء : اذا أخفى ما يضمر .

فأعطاه المال ، وصار به الى الرجل ، فلما رآه انتهره وصاح به ، وقال له : أنا في هذا الحد ! فرجع الى الفضل فأخبره ، فظن انه أستقلها ، فأمره ان يستزيد يحيى عشرة آلاف درهم ، ففعل ، وصار بالمال الى الفتى ، فأعاد انتهاره ، ثم قال : لو جئتني بما يملكه الخليفة ما قبلته منك ، أنا ممن يأخذ على معروف أجرا ! ثم شخص الرشيد الى الرقة ، وشخص يحيى ابن خالد معه وهو مطلق ، وحمل ولده جميعا ، موكلا بهم ابراهيم بن حميد المروزي ، فلما وصلوا الى الرقة ، وجه الرشيد الى يحيى : اقم حيث أحببت ، فوجه اليه : اني احب ان اقيم مع ولدي ، فوجه اليه : اترضى بالحبس ؟ فذكر له أنه يرضى ، فحبسه معهم ، ووسع عليهم ، واطلق لهم وصول ولدهم وحرمهم اليهم ، ووصل أم الفضل بن يحيى بثلاث مئة الف درهم ، ووجه اليها ثيابا مرتفعة ، وكان احيانا يوسع عليهم ، واحيانا يضيق عليهم ، على حسب ما يرقي اليه اعداؤهم ، ويمسكون عنهم .

وحكي ان ابنة ليحيى بن خالد دخلت عليه الحبس ، فقالت له : عندي مويل (١) قد سلم ، فأي شيء ترى أن أصنع به ؟ فقال لها : شاوري مقبل الامر من كان ، ثم أعملي برأيه ، فاني مدبر ، والمدبر مدبر الراي ، ولن أشير عليك بشيء ، فتعرفي فيه خيرا .

وحكي أن يحيى بن خالد أشتهى في وقت من الاوقات في محبسه وهو مضيق عليه ، سكباجة ، فلم يطلق له اتخاذها الا بمشقة ، فلما فرغ منها سقطت القدر من يدي المتخذ لها ، فانكسرت ، فقال يحيى يخاطب الدنيا :

قطعت منك حبائل الآمال	وأرحت من حل ومن ترحال
ووجدت برد اليأس بين جوانحي	فحططت عن ظهر المطي رحالي
فالآن يا دنيا عرفتك فاذهبي	يا دار كل تشتت وزيال
والآن صار لي الزمان مؤدبا	فغدا وراح عليّ بالامثال

وذكر أحمد بن خلاد ، قال : حدثني غزوان بن اسماعيل ، قال :

لما حبس يحيى بن خالد مع الفضل ولده ، وضيق عليهما ، ومنعا من الناس ، ومنع الناس منهما ، كتب الموكل بهما في بعض الاوقات : انني سمعتهما يضحكان ضحكا مفرطا جدا ، فوجه الرشيد مسرورا يستعلم ذلك ، ومم هو ؟ فأتاهما مسرور وقال : ما هذا الضحك المفرط الذي بلغ أمير المؤمنين ، فأحفظه وقال : ما هذا الا استخفاف بغضبي ، فازداد ضحكا ، فقال مسرور : ليس هذا بصواب ، لاني أتخوف عليكما من عاقبته أعظم مما أنتم فيه ، فما القصة والسبب الذي حدا كما على ما انتهى الى أمير

---

(١) مويل ، أي قليل من المال .

المؤمنين عنكما ؟ وما الذي ارى منكما ؟ فقالا : اشتهينا سكباجا ، فاحتلنا في شري اللحم ، ثم احتلنا في القدر والخل ، حتى اذا وصل جميــع ذلك لنا ، وفرغنا من طبخها واحكمناها ، ذهب الفضل لينزلها ، فسقط اسفلها ، فوقع علينا ، الضحك والتعجب مما كنا فيه ، ومما صرنا اليه ، فذهب مســـرور الخادم الى الرشيد ، فأعلمه بالقصة ، فبكى وقال : احمل اليهما مائدة في كل يوم ، وأذن لرجل ممن يأنسان به أن يدخل عليهما ، فيحدثهما ، فقال لهمـــا مسرور ذلك ، وسألهما عمن يختارانه ، فاختارا سعيد بن وهب الشاعر ، وكان لهما خادما ، فاذن له في الدخول عليهما . فكان يصير اليهما في كل يوم ، فيتغدى معهما ، ويحدثهما ويتصرف .

ثم ان الرشيد بعث مسرورا يوما ، فقال له : انظر ما يصنعان ، فدخل مسرور بغتة ، فوجد يحيى قاعدا ، والفضل ساجدا ، فقال له : يا أخي ، يا حبيبي ، فلم يجبه ، فدنا منه ، فاذا هو نائم يغط ، فرجع الى الــرشيد فأخبره ، فقال : اي شيء كان عليه ؟ قال : كان عليه طمر قد سمل ، قال : خذ ذاك الدواج السمور ، فاطرحــه عليه ولا تنبهه ، ففعل مسرور ذلـــك وانصرف ، فلما احس الفضل بالدفء انتبه ، فقال لأبيه : يا ابت ، ما هـــذا الدواج ؟ قال : يا بني ، جاء مسرور وهتف بك ، فلم تجبه ، وراى ما عليك ، فذهب الى الرشيد فأخبره بذلك ، فرق قلبه لك ، فوجه معه بهذا الدواج ، واني لأرجو أن يكون سبب الرضا عنا ، والفرج لنا . وصار اليهما سعيـد بن وهب ، فسأل عن خبر الدواج ، فاعلماه ، فسر وقال : ارجو ان يكــون سبب الرضا . فبينا سعيد يحادثهما ، سمع الفضل هاتفا يذكر خشفا معه ليبيعه ، فذكر بذلك بعض من كان يحظيه ، فاظهر اغتماما وقلقـــا وجزعا شديدا ، ففطن سعيد بحاله ، وسأله ، فاعرض عن اخباره ، وقال له : ما تحفظ مما يشبه ما تراه من الاحاديث وآلاخبار والاشعار التي رويت ؟ فقال : فقال : قول مجنون بني عامر :

وداع دعا اذ نحن بالخيف من منا   فهيج اطراب الفـؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلــى غيرها فكـــأنما   اطار بليلي طائرا كـان في صدري

فقال : احسنت ، خذ الدواج فهو لك ، فأبى أن يفعل ذلك ، وطالبــه الفضل بأخذه ، فقال : ما اصنع به اذا اخذته والسجان لا يدعني اخرجه ؟ فأرسل الى السجان يسأله اطلاق اخراجه له ، فقال : لا بد لي من اعـــلان مسرور بذلك ، لأني لا آمن ان يتأدى اليه ، وكتب اليه الخبر ، وكتب بالخبر الى مسرور ، فأنهى ذلك الى الرشيد ، ففكر مليا ، ثم قال : ما وهبناه له ونحن نريد أن نرتجعه منه ، فليهبه لمن شاء ، فأخــذ سعيد الدواج ، ثــم نهض ، فقال له الفضل : بقي عليه ما لا آمنه ، قال : وما هو ؟ قال : الخوف

ان يسأل عن السبب الذي له اعطيتك الدواج ، فان ذكرت القصة على جهتها ، كان في ذلك ما لا آمن مكروهه ، ولكن سبب لذلك سببا من بعض اشعارك واخبارك وملحك ، وادر ذلك بيني وبينك ، فاينا سئل عن السبب خبر به ، فلم يختلف الخبران ، قلت : والله ما ادري ما احدثك به ، قال : ملت : كان لي باب صغير الى داري لا يدخل منه الا المرد ، وكان لي خادم موكل بذلك الباب ، فأتاني يوما ، فزعم أن انسانا الحى بالباب يستأذن ، فقلت : يا هذا ، امرتك بالاستئذان لمثل هذا ؟ فقال : اني عرفته السنة ، فأبى الا الاستئذان له ، وزعم انه ممن كان يدخل من هذا الباب ، فقمت فاطلعت ، فاذا هو حريف كان لي قد غاب غيبة ، فاتصلت لحيته فيها ، وجاء لعادته ، فرجعت الى مجلسي ، وكتبت اليه :

قل لمن رام بجهل مدخل الظبي الغرير
بعد ما علق في خد يه مخلاة الشعير
ليته يدخل ان جا ء من الباب الكبير

ووجهت بالرقعة اليه ، فلما قراها ضحك ، وجاء الى الباب الكبير ، فاستأذن ، فأذنت له ، فقال الفضل : أحسنت والله وملحت ، وقام فكتب الابيات على الحائط ، وخرج سعيد ، فعرض له رسل الرشيد ، فاخذوه ، فأدخلوه عليه ، فلما سلم قال له : يا سعيد ، باي شيء حدثت الفضل ، واي شيء أنشدته حتى اعطاك الدواج ؟ قلت : أو تعفيني يا امير المؤمنين ، فانه شيء كان في الحداثة ؟ قال : لا بد ان تخبرني ، قلت : فيؤمنني أمير المؤمنين، فاني والله ما انا على ذلك اليوم ، ولقد وقرتني السن ، ونزهتني عنه ، قال : لك الامان . فحدثته الحديث ، وانشدته الشعر ، فضحك حتى بدت نواجذه ، وامر لي بثلاثين الف درهم .

وكتب يحيى بن خالد الى صديق له وهو في السجن ، وقد كتب اليه يسأله عن حاله ، فوقع في كتابه : افضل الناس حالا في النعمة من استدام مقيمها بالشكر ، واسترجع فائتها بالصبر .

وكتب ايضا الى اخيه محمد من الحبس : انكرت صديقي ، وعرفت عدوي .

واحتاج يحيى الى شيء ، فقيل له : لو كتبت الى صديقك فلان ؟ قال : دعوه يكن صديقا .

قال اسماعيل بن صبيح :

كنا يوما بين يدي يحيى بن خالد ، فدخل عليه جعفر ، فلما رآه اشاح بوجهه عنه ، وتكره رؤيته ، فلما انصرف قلت له : أطال الله بقاؤك ! تفعل هذا بابنك وحاله عند الرشيد حاله ، لا يقدم عليه ولدا ولا وليا ! فقال : اليك

عني أيها الرجل ، قال : فوالله لا يكون هلاك اهل هذا البيت الا بسببه . فلما كان بعد مدة من ذلك دخل عليه أيضا جعفر وانا بحضرته ، ففعل به مثل فعله الاول ، فأعدت عليه القول ، فقال لي : ادن مني الدواة ، فادنيتها ، فكتب كلمات يسيرة في رقعة ، وختمها ودفعها الي ، وقال لي : لتكن عندك ، فاذا دخلت سنة سبع وثمانين ومضى المحرم ، فانظر فيها ، فلما كان في صفر اوقع الرشيد بهم ، فنظرت فيها ، فكان الوقت الذي ذكره .

قال اسماعيل بن صبيح :

وكان يحيى بن خالد أعلم الناس بالنجوم .

سعي ابن الربيع بالبرامكة لدى الرشيد : ومما حكي من سعي الفضل بن الربيع على البرامكة ، ما حكاه محمد بن داود بن الجراح في كتابه المسمى كتاب الوزراء ، عن محمد بن ابراهيم مولى خديجة بنت الرشيد ، عن ابيه ، وذكر انه حضر ذلك ، قال :

نادم الفضل بن الربيع الرشيد ، وخص به ، فقال لجعفر : تقلد الفضل بريد ناحية يأخذ رزقها ، ويستعين به على خدمتي ، فقال له جعفر ، بسلاسة خلقه : اختر ، فقال الموصل وديار ربيعة ، فامر ان تكتب كتبه عليها ، فراح بها الى ابيه ، فلما عرضها عليه ، وعرفه حال الفضل وخصوصيته ، غضب يحيى وقال : هذه ناحية الى اخيك ، وقد صرفناه عن ارمينية ونصرفه عن هذه ! وكان ولي خراج ارمينية وحربها وصرف عنها ، فقال : ما كنت لأفعل! فقال : فالموصل ، فقال : لا والله ، فكره جعفر اغضاب ابيه ، ودافع الفضل ، وقرب عليه المواعيد . وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه له من المال للحوادث ، سوى نفقاته وما يحتاج اليه هو وعياله ، فعزم على الفصد ، فقال لجعفر : يأخي انا على الفصد ، واريد التشاغل بالنساء ، فكم تبعث الي لما أهيئه لهن ؟ قال : ما شاء امير المؤمنين ، قال : عشرة آلاف درهم ، قال : وأين المال ؟ ولكن خمسة آلاف درهم ، قال : فهاتها ، فبعث بها اليه ، ثم قال لجلسائه وقد افتصد : أي شيء تهدون الي ؟ فقال كل واحد منهم : قد اعددت كذا وكذا ، واحتال الفضل بن الربيع في التخلص الى منزله ، فرهن حقه من قطيعة الربيع ، وهو العشر ، على مائة الف درهم عند عون الجوهري الحري ، فقال : اني اريد أن اهديها الى الخليفة ، فصيرها جددا ضربا ، في عشرين بدرة ديباج ، مختمة بفضة وكان عون يحفظ للربيع يدا ، فقال للفضل : اطابت نفسك عن جميع نعمتك في هدية اليوم ؟ فأعلمه ان له عند الرشيد مواعيد ، فقال له عون : فان عندي

خادمين مملوكين روميين ، احدهما ناقد ، والآخر وزان ، جميلي الصورة مراهقين وقد وهبتهما لك ، واحضره تابوت آبنوس محلى بالفضة ، فصير البدور فيه مع الطيارات (١) والموازين والصنجات ، واقفله بقفل فضة ، وغشاه بديباج ، وكسى الغلامين الديباج ، والبسهما المناطق والمناديل المصرية ، ووجه بهما وبالتابوت مع من يحمله الى دار الندماء ، فلما ثنى الرشيد الدم قال : اعرضوا علي هداياكم ، فقدمت هدية يحيى وجعفر والفضل بن يحيى ، من فاكهة ومشام ، وما اشبه ذلك ، وعرض عيسى بن جعفر وغيره هداياهم ، فقال للفضل بن الربيع : اين هديتك يا عباسي ؟ وبذلك كان يدعوه ، قال : احضرها يا امير المؤمنين ، فقال : تجده قد ابتاع هدية بخمسين درهما ، فقال للفراشين : احملوها ، فحملوا شيئا راع الرشيد لما رآه ، وكشفوا عن التابوت فاستحسنه ، ثم حضر الغلامان ، ففتح احدهما القفل ، فاخرج الموازين والاوزان ، واخرج الآخر البدور ، ففتح بدرة بدرة ، واستوفى وزنها وختمها ، فلم يدر الرشيد ما يستحسن ، من جلالة الهدية ، واستطير فرحا ، وأمر بحمل المال ، وادخال الغلامين الى دار النساء ، ليفرقا المال على ما يأمرهما به ، وقال للفضل : ويلك يا عباسي! من اين لك هذا ؟ قال : سيعرفه امير المؤمنين ، قال : لتقولن ، قال : بعث حقي من قطيعة الربيع لأسرتك ، لما رايتك قد فصدت وانت مغموم ، قال : والله لأسرنك ، وقام فدخل . وأنصرف جعفر يجر رجليه الى أبيه ، فحدثه الحديث ، فكتب كتب الفضل على بريد الموصل وديار ربيعة وديار مضر وختمها ، وبعث بها اليه فردها ، وقال : لا حاجة بي اليها ، ولم يزل يحمل الرشيد عليهم ، حتى أوقع بهم .

ابن الربيع : وحكي عن الفضل بن الربيع انه قال : صرت الى يحيى بن خالد فسألته حاجة ، فتقاعد علي فيها ، فقمت وأنا اقول :

عسى وعسى يثني الزمان عنانه ... بتصريف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائك ... وتحدث من بعد الامور امور

قال : فقال : نعم يحدث الله من بعد الامور امورا ، اقسمت عليك يا ابا العباس لترجعن ، وهذه الحاجة علي في مالي الى ان اكلم الخليفة . قال : فما بت حتى وافتني .

وحكي عن الفضل بن الربيع انه مشى على مسناة (١) جعفر بن يحيى ، التي كان يبنيها بباب الشماسية ، ومعه انسان يأنس به ، فركل

---

(١) طيارات : جمع طيار وهو ميزان يوزن به الذهب .

(١) المسناة : سد يعترض به الوادي ليرد الماء .

آجرة برجله ، فرمى بها الى دجلة ، ثم قال لصاحبه : كيف رأيت ؟ فقال له الرجل : واي شيء في هذا من الضرر حتى تفعله ؟ فقال له الفضل : افترى فيه منفعة له يا حبيبي ؟.

ابن سلمة وابن المدبر : وذكرت بهذا الفعل والقول حكايتين متضادتين عن رجلين ليسا من أهل عصر الفضل بن الربيع ، ولكن الشيء يذكر بمثله : فأما احداها ، فان محمد بن احمد بن حبيش ، كاتب ابن بسطام قال : حدثني ابي قال :

كنت اساير نجاح بن سلمة والى جانبه رجل من نظرائه كان يعاديه ، قال : فوصلنا الى وحل في الطريق ، فتأخر نجاح ، حتى تقدمه الرجل ، ثم اسرع السير في الوحل ، حتى ملأ دراعته ، ثم اقبل علي فقال : كيف رأيته ؟ فقلت : يا سيدي ، واي شيء في هذا حتى تسر به ؟ فقال : اذا كان لك عدو فلا تستقل له قليل الشيء ، ولا تستكثر له كثيره .

والاخرى : فانه كان بين احمد بن المدبر وبين علي بن عيسى ابن يزدانيروذ عداوة مشهورة ، وكانت لعلي مقاطعة يكتب له بها من الدواوين في كل سنة ، فلما حضر وقت الكتاب ، وأحمد يتقلد الديوان ، قال علي بن عيسى لصاحبه : ادخل الديوان سرا ، واغرم غرما ، حتى تأخذ الكتاب بالمقاطعة ، ولا يراك احمد فيبطلها ، ففعل ذلك صاحبه واجتهد في ستر الامر ، وانتهى الخبر الى احمد بن مدبر قبل فراغه ، فدعا به ، وانكر عليه مساترته له ، ودعا بالكتاب ، حتى انتسخوا الكتاب بحضرته ، وعلموا عليه ، ودفعه اليه ، فأفاض الرجل في شكره وكثر ، وقال له : تقول له : اظننت أرضى فيك بالمحقرات ، واقتصر على أن أعترض عليك في مقاطعتك ؟ هيهات ! الامر بيني وبينك اعظم من ذلك ، ليس بيني وبينك الا الدم .

سبب نكبة البرامكة : وقال عبد الله بن سليمان :

اذا أراد الله عز وجل هلاك قوم وزوال نعمتهم ، جعل لذلك اسبابا ، فمن أسباب زوال امر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع ، وقصدهم محمد ابن جميل .

ولما نكب يحيى كتب الى الرشيد :

ان كان الذنب يا أمير المؤمنين خاصا ، فلا تعم بالعقوبة ، فان لي سلامة البريء ، ومودة الولي . فوقع في حاشية كتابه : قضي الامر الذي فيه تستفتيان .

وقال موسى بن نصير الوصيف : حدثني ابي قال :

غدوت على يحيى بن خالد في آخر امرهم ، أريد عيادته من علة كان يشكوها ، فوجدت في دهليزه بغلا مسرجا ، فدخلت اليه وكان يأنس بي ،

ويفضي الي بسره . فوجدته مفكرا مهموما ، ورايته متشاغلا بحساب النجوم وهو ينظر فيه ، قال : فقلت له : اني لما رايت البغل مسرجا سرني ، لاني قدرت انصراف العلة ، وان عزمك الركوب ، فقد غمني ما اراه من همك . قال : فقال لي : لهذا البغل قصة ، وذاك اني رايت البارحة في النوم كأنني راكبه ، حتى وافيت راس الجسر من الجانب الشرقي ، فوقفت ، فاذا انا بصائح يصيح من الجانب الآخر :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر

قال : فضربت بيدي فوق قربوس السرج وقلت :

بلى نحن كنا اهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

قال : فانتبهت ، فلم اشك انا اردنا بذلك المعنى ، فلجأت الى اخذ الطالع ، فاخذته ، وضربت الامر ظهرا لبطن ، فوقفت على انه لا بد من انقضاء مدتنا ، وزوال امرنا . قال : فما كاد يفرغ من كلامه حتى دخل مسرور الخادم ومعه جؤنة مغطاة ، وفيها راس جعفر ، وقال له : يقول لك أمير المؤمنين : كيف رأيت نقمة الله من الفاجر ؟ فقال يحيى : قل له يا أمير المؤمنين ، أرى انك افسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك دينك .

وقال محمد بن اسحاق :

لما قتل جعفر قيل ليحيى : قتل الرشيد ابنك ، فقال : كذلك يقتل ابنه ، قد امر بتخريب ديارك ، فقال : كذلك تخرّب دياره .

وحكي أن هذا القول من يحيى اتصل بالرشيد ، فسأل عنه مسرورا ، فجحده اياه ، الى ان اقسم عليه ، فحكاه له ، فقال له : قد والله خفت قوله ، لانه ما قال لي شيئا قط الا رأيته .

وقال عبيد الله بن يحيى بن خاقان :

سألت مسرورا الكبير في أيام المتوكل ، وكان قد عمر اليها ، ومات فيها ، عن سبب قتل الرشيد لجعفر ، وايقاعه بالبرامكة ، فقال : كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من امر المراة ، وأمر المجامر التي اتخذها للبخور في الكعبة ؟ فقلت له : ما أردت غيره ، فقال : لا والله ، ما لشيء من هذا اصل ، ولكنه من ملل موالينا وحسدهم .

ولما نكب الرشيد البرامكة قال : أريد ان استعمل قوما لم يعملوا معهم؟ فقيل له : لا تجد احدا لم يكن يخدمهم . فاختار اشفة (١) من وقع في نفسه من عيون اصحابهم ، فقلد محمد بن ابان خراج الاهواز وضياعها ، وقلد علي بن عيسى بن يزدانيروذ خراج فارس وضياعها ، وولي الفيض ابن أبي

---

(١) اشفة : الفضل .

الفيض الكسكري خراج كسكر وضياعها ، وولي الخصيب ابن عبد الحميد مصر وضياعها .

وفي الخصيب يقول ابو نواس الحسن بن هانيء :

أنت الخصيب وهذه مصر ... فتدفقا فكلاكما بحر
لا تقعدا بي عن مدى أملي ... شيئا فما لكما به عذر
ويحق لي اذ صرت بينكما ... الا يحل بساحتي ضرّ

ويروى : فقر .

وذكر محمد بن العباس اليزيدي ان ابن اخي الينبغي حدثه قال :

كتب الخصيب الى ابي نواس يستزيره ، وكان خاصا به ، فخرج اليه ، وخرج في وقت خروجه جماعة من الشعراء لامتداح الخصيب ، ولم يعرفوا خبر خروج أبي نواس ، حتى اجتمعوا بالرقة ، فقال بعضهم لبعض : هذا أبو نواس يمضي الى الخصيب ، ولا فضل فيه لأحد معه ، فارجعوا عن قرب ، وبلغ أبا نواس ما عملوا عليه من الرجوع ، فصار اليهم مسلما ، ثم قال لهم : قد بلغني ما عزمتم عليه من الرجوع ، فلا تفعلوا وامضوا حتى نصطحب ، فاني والله لا أبدأ الا بكم ، فشكروه ، وسكنوا الى قوله ، ومضوا حتى قدموا . واتصل خبر ابي نواس بالخصيب ، فجلس له جلوسا عاما في مجلس جليل ، ودخل اليه والشعراء في دهليزه ، فسلم عليه ، وقال :

يأيهذا الملك المؤمل ... قد استزرت عصبة فاقبلوا
وعصبة لم تستزرهم طفلوا ... رجوك في تطفيلهم واملوا
وللرجاء حرمة لا تجهل ... فافعل كما كنت قديما تفعل

فاستحسن الخصيب قوله وكل من حضره ، وقال له الخصيب : من شريكك ؟ فعرفه أبو نواس خبر الشعراء ، فقال : أجلس فقدر لهم صلاتهم ، على حسب مقاديرهم في نفسك ، فقدر ابو نواس لهم صلاتهم ، وعرضها عليه ، فوقع باطلاقها ، فأطلقت من وقتها ، وقال له : اخرج ففرقها عليهم من يومك ، واصرفهم ، ففعل ذلك ، وعاد اليه .

وله فيه :

يا ابنتي أبشري بميرة مصر ... وتمني واسرفي في الاماني
أنا في ذمة الخصيب مقيم ... حيث لا تهتدي صروف الزمان
قد علقنا من الخصيب حبالا ... أمنتنا طوارق الحدثان
لا تخافي على غول الليالي ... فمكاني من الخصيب مكاني

كاتبان ووقائع : وكان يكتب للخصيب أبو عبد الحميد بن داود

البلاذري (١) ، المؤلف لكتاب البلدان وغيره من الكتب ، وله أشعار حسان .
وقلد الرشيد ابا صالح بن عبد الرحمن ديوان الخراج بمدينة السلام .
قال أبو العباس بن الفرات : حدثنا هارون بن مسلم ، قال :
دخل الرشيد على ام جعفر ، فقال لها : قد تهتك كاتبك سعدان فاعزليه
قالت : وبأي شيء تهتك ؟ قال : بالمرافق والرشا ، حتى قال فيه الشاعر :

صب في قنديل سعدا ن مسع التسليم زيتنا
وقناديل بنيه قبل ان تحفى الكميتا

فقالت له : وقد قال الشاعر في كاتبك ابي صالح يحيى بن عبد الرحمن:
أشنع من هذا ، فقال : وما قال ؟ قالت : قال :

قنديل سعدان على ضوئه فرج لقنديل ابي صالح
تراه في مجلسه اخوصا من لمحه للدرهم اللائح

فقال لها : كذب على كاتبي وكاتبك .
قال هارون بن مسلم : بلغني أنها قالت هذا الشعر في تلك الساعة .
ولما صرف سليمان بن عمران عبد الله بن عبدة عن ديوان الخراج ،
واتصل خبره بعبد الله ، امر ببغلته فشدت . وأخذ قلما من دواته ،
فصيره على اذنه ، فلما قيل له : ان سليمان قد صرفك عن الديوان ، رمى
بالقلم وقام . فسئل عن سبب ما فعله ، فقال : احببت ان يكون هذا سنة في
ولاة الدواوين : اذا صرفوا لم يكن عليهم الا وضع القلم فقط .

وقال الرشيد يوما للفضل بن الربيع في كلام جرى : كذبت ، فقال له :
وجه الكذوب لا يقابلك ، ولسانه لا يخاطبك .
ووجه اسماعيل بن صبيح الى سعيد بن هزيم برذونا ، وكتب اليه :
لين المرفوع ، وطيء الموضوع ، حسن المجموع .
وقلد الرشيد اسماعيل بن صبيح ديوان الخراج ، ثم ديوان الرسائل.
قال سليمان بن ابي شيخ : حدثني يحيى بن المغيرة ، عن اسماعيل بن
أبي بكر بن عياش ، قال :
قدم هارون الرشيد الكوفة فأرسل الي ان احدث المامون ، فحدثته نيفا
واربعين حديثا ، فلما فرغت منها قال لي رجل كان بحضرته : اتحب يا ابا بكر
ان اعيد عليك ما حدثت به ؟ قلت : نعم ، فأعاد جميعه ، ما اسقط حرفا ،
فقال له ابو بكر : من انت ؟ فقال المامون : هذا اسماعيل بن صبيح ، قال :

---

(١) البلاذري : مؤلف كتاب فتوح البلدان .

فقلت لاسماعيل بن صبيح : القوم كانوا اعلم بك حيث وضعوك هذا الموضع.

ثم ندم الرشيد على ما كان منه في امر البرامكة ، وتحسر على ما فرط منه في أمرهم ، وخاطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء النية منهم لاعادهم الى حالهم . وكان كثيرا ما يقول : حملونا على نصحائنا وكفاتنا ، واوهمونا انهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا الى ما ارادوا منا ، لم يغنوا عنا شيئا ، وينشد :

اقلوا علينا لا ابا لأبيكم من اللوم أوسدوا المكان الذي سدوا

مواقف وشعر : وكان الحسن بن عيسى يكتب لعمرو بن مسعدة ، ولما حمل البرامكة الى الرقة ، استقبل الحسن بن عيسى يحيى بن خالد وهو يسير ، وكان لهم عنده معروف . قال الحسن : فلما بصرت به وتأملني ، قلت : لا يراني الله امنعه من نفسي في هذا الوقت شيئا كنت ابذله له قبل ذلك اليوم ، فنزلت عن دابتي مترجلا له ، فصاح بي : اياك اياك ، فلم التفت الى زجره ، ودنوت منه ، فسلمت عليه ، فقال لي : اسمع مني ، وافهم عني : ان هذا الامر لو بقي فيمن كان قبلنا لم يصل الينا ، ولو بقي فينا لم يصل الى من بعدنا ، ولا بد للاعمال من تصرف ، وللامور من تنقل ، وقد كنا قبل اليوم دواء ، فاصبحنا داء ، فلا تعد . قال : فكنت اراه بعد ذلك كثيرا من سفره ، فلا افعل ما أنكره علي .

وذكر الكرماني :

أن الفضل بن يحيى نقل من محبس كان فيه الى محبس آخر ، فوقف له بعض العامة ، فدعا عليه ، وانه اضطرب من ذلك اضطرابا لم ير مضطربا قبله مثله في شيء من حوادث النكبة ، وانه قال لبعض من كان معه : احب أن تلقى هذا الرجل ، وتسأله عما دعاه الى ما كان منه ؟ وهل لحقه من بعض أسبابنا ، على غير علم منا ، ظلم فنتلافى ما خلا ؟ فصار رسوله اليه ، وساله عما دعاه الى ما كان منه ، وهل لحقه ما يوجبه ؟ قال : فقال : لا والله ، ما لحقني ما أوجب ذلك ، ولكن قيل لي : ان هؤلاء كلهم زنادقة . فلما عاد الرسول اليه بذلك قال : قد والله سريت عني ، وفرجت ما بي ، وازلت ما لحقني ، ثم أنشد :

غير ما طالبين ذحلا ولكن مال دهر على أناس فمالوا[1]

وهذا البيت من قصيدة لأبي زبيد الطائي يمدح بها الوليد بن عقبة ، عامل عثمان على الكوفة ، أولها :

من يرى العير لابن أروى (١) على ظهر المروري (٢) حداتهن عجال
وفيها يقول :

اصبح البيت قد تبدل بالحي وجوها كأنها الاقتبال
غير ما طالبين ذحلا ونكن مال دهر على أناس فمالوا
من يخنك الصفاء او يتبدل أو يزل مثل ما تزول الظلال
فاعلمن انني اخوك اخو الصدق عنى العهد او تزول الجبال
لست ما عشت ذاخرا عنك شيئا أبدا ما اقل نعلا قبال

فلعمر الاله لو كان للسيف مصال او للسان مقال
ما تناسيتك الصفاء ولا الود ولا حال دونك الاشغال
فلك النصر باللسان وبالكف اذا كان لليدين مجال

وذكر احمد بن داود بن بسطام عن أبيه ، وكان يخلف الفضل ابن الربيع :

انه نقل الفضل بن يحيى من محبسه الى محبس ، فأصاب في ثنى مصلاه رقعة فيها :

ان العزاء على ما ناب صاحبه في راحة من عناء النفس والتعب
والصبر خير معين يستعان به على الزمان ومن ذا فيه لم يصب
لو لم تكن هذه الدنيا لها دول بين البرية بالآفات والعطب
اذا صفت لأناس قبلنا وبهم كانت تطيق ذوي الاخطار والحسب
ولم تنلها وفيها قد ذكرت أسى وعبرة لذوي الالباب والادب
الستم مثل من قد كان قبلكم فارضوا وان اسخطتكم نوبة العقب
نضو الحوادث نضو ليس ينفعه شيء سوى الصبر من كد ومن تعب
والله ما أسفي الا لواحدة الا اكون تقدمت المنون أبي
فكان يؤجر في ثكلي ويتبعني دعاؤه لي دعاء الوالد الحدب

---

(١) ابن أوري : هو الوليد بن عقبة ، وأورى : أمه وأم عثمان بن عفان .
(٢) المروري : جمع مروراة ، وهي الصحراء .

قال : فسألت السجان عنها ؟ فقال : قالها البارحة لما اتيته بالمصباح .

وذكر عيسى بن يزدانيروذ ، وكان احد كتابه ، قال :

دعاني الرشيد واخلاني وادناني جدا جدا ، ثم سألني عن حال جعفر ، وهل وقفت على انه اراد غدرا به ، او حيلة لقتله ؟ قال : فحلفت له ايمانا اكررها اني ما عرفت هذا منه قط ، ولا وجدته حائدا عن طاعة ، ولا مقصرا في موالاة ، ولا تاركا معاداة من ظن به انحرافا عنه ، وموالاة من وثق بموالاته ، قال : فاستعادني اليمين ثلاثا ، فلما كررتها بكى وقال : يا أسفي عليك يا جعفر ! قال : ثم امر برد مالي علي ، وتقليدي ما كنت اتقلده ايام جعفر ، وهو الطراز ، وقال لي : قد جعلت الفضل بن الربيع بيني وبينك ، فالقه .

الشاشية : وكان عيسى بن بزدانيروذ اول من لبس شاشية من الكتاب ، وكان سبب ذلك انه احتاج الى لبس القباء والسيف ، من اجل ما يتقلده من نفقات الخاصة ، فلبس شاشية .

وفاة ابن خالد والفضل : ثم توفي يحيى بن خالد حتف انفه في الحبس بالرقة ، بعد انصراف الرشيد من الري بثلاثة ايام ، في المحرم سنة تسعين ومئة ، وسنه اربع وستون سنة ، فجأة من غير علة تقدمت ، وصلى عليه ولده ، فاغتم الرشيد غما شديدا ، وقال : اليوم مات أعقل الناس واكملهم ، ثم وجه الى ولده : هل أوصى بشيء ، او تقدم في شيء ؟ فقالوا : ما عرفنا شيئا من ذلك ، بلى ، وجدنا كتابا كتبه وختمه ووضعه تحت راسه ، فوجه الرشيد بمن أخذه ، وصار به اليه ، فكان فيه : قد تقدم الخصم ، والمدعى عليه في الاثر ، والحاكم لا يحتاج الى بينة .

ودفن بالرافقة (١) على شاطىء الفرات ، وبني على قبره بناء عال .

ثم توفي الفضل بن يحيى من علة نالته من رطوبة في شقه ولسانه ، ثم تزايدت عليه الى أن مات في يوم السبت لخمس خلون من المحرم ، سنة ثلاث وتسعين ومئة ، قبل وفاة الرشيد بخمسة اشهر ، وكانت سنه خمسا وأربعين سنة ، وصلى عليه اكثر الناس ، واشتد الجزع من الخاصة والعامة عليه ، واغتم عليه جميع من عرفه ، وكثر التضاغط والتزاحم في جنازته ، ودفن الى جنب قبر ابيه ، فقال بعض الشعراء :

ليس نبكي عليكم يا بني بر ... مك أن زال ملككم فتقضى

---

(١) الرافقة : بلد على الفرات ، وتعرف اليوم بالرقة .

بل نبكيكم لنا ولأنفسنا　　لم نر الخير بعدكم حل ارضا

وقائع واحداث : وحضر الفضل بن الربيع بعد نكبتهم جنازة حمدون بن علي ، فذكر البرامكة ، فأطراهم وقرظهم ووصفهم ، ثم قال : كنا نعتب عليهم فقد صرنا نتمناهم ، ونبكي عليهم . ثم انشد متمثلا :

عتبت على سلم فلما فقدته　　وجربت اقواما بكيت على سلم

وهذا الشعر لحنظلة بن عرادة ، وكان صاحب سلم بن زياد الى خراسان ، في أيام يزيد بن معاوية ، فعتب عليه في شيء ، فاعتبه منه ، ثم لقي ما كره ممن قام مقامه ، لما انصرف سلم عن خراسان ، فقال هذا الشعر.

وكان كلثوم بن عمرو العتابي الشاعر متصلا بالبرامكة ، فلقي الرشيد بعد قتل جعفر ، فقال له : ما احدثت بعدي يا عتابي ؟ فارتجل ابياتا ، وانشده اياها ، وهي :

تلوم على تركي الغنى باهلية　　زوي الدهر عنها كل طرف وتالد

رأت حولها النسوان يرفلن في　　الكسى مقلدة اجيادها بالقلائد

وفيها يقول :

اسرك اني نلت ما نال جعفر　　من المال او ما نال يحيى بن خالد

وان امير المؤمنين اغصني　　مغصهما بالباترات البوارد

دعيني تجئني ميتتي مطمئنة　　ولم اتجشم هول تلك الموارد

فان رفيعات الامور مشوبة　　بمستودعات في بطون الاساود

وكان يكتب لعبد الله بن صالح قمامة بن ابي يزيد ، مولى سليمان ابن علي ، وكان يكتب لأبيه صالح بن علي قبله ، ولقمامة رسائل مشهورة ، وبلاغة مذكورة ، وتقدم في الدولة ، وكان جده أحد من اتبع من صار من الحميمة الى الكوفة من بني هاشم ، من أول الدولة ، فسعى قمامة بعبد الملك ابن صالح الى الرشيد ، واعلمه انه على أن يمكر به ، وافتر عبد الرحمن ابن عبد الملك ، حتى شهد معه على ابيه بذلك ، فأحضر الرشيد عبد الملك، فخاطبه في ذلك ، واعلمه شهادة ابنه عليه بما شهد به ، وكان عبد الملك فصيحا بليغا راجحا ذا هيئة ، فقال له : أعطاك ما ليس في عقده ، فلعله لا يبهتني بما لم يعرفه مني . فأمر الرشيد باحضاره ، فلما حضر قال له : تكلم غير هائب ولا خائف ، فقال له : اقول : انه عازم على الخلاف عليك ، والغدر بك ، فقال له عبد الملك : وكيف لا يكذب علي بظهر الغيب من يبهتني في وجهي ، ويكابرني ! فقال له الرشيد : هذا ابنك عبد الرحمن يشهد عليك، فقال له عبد الملك : هو بين أن يكون مأمورا ، او عاقا مجنونا ، فان كان

مأمورا فهو معذور ، وان كان عاقا فهو فاجر كافر ، خبر الله بعداوته ، وحذر من فتنته ، فاغلظ له الرشيد ، وقال له : ما أنت منا .

وكانت ام عبد الملك بن صالح لمروان بن محمد . فلما قتل مروان بمصر اخذ صالح بن علي جاريته ام عبد الملك ، فولدته منه ، فبعض الناس يقول : انها كانت حاملا من مروان ، فأراد الرشيد بقوله : « لست منا » هذا ، فقال عبد الملك : ما ابالي لأي الفحلين كنت : الصالح بن علي ام لمروان بن محمد ؟ فحبسه ؟ فلم يزل في حبسه الى ان مات الرشيد ، فاطلقه محمد ، واحسن اليه .

قال اسحاق بن سعد : حدثني عبد الله بن مخلد — وكان مخلد بواب ديوان الخراج ببغداد الى أن مات ، وكان يتزيا بزي الكتاب ، وكان يقف على رأس موسى بن عبد الملك اذا جلس للمظالم ، فذكر ميمون ابن هارون :

انه كان ينادي : من له حاجة ؟ ويرفع بذلك صوته ، ثم يخفضه ويقول خفيا : لا تقضى ، وانه حدث بذلك موسى وهو يمازحه ويضاحكه ، فأحضره وضربه ثلاثين مقرعة .

قـــال مخلد :

كان انسان يقال له : صلت ، منقطعا الى منصور بن بسام ، وكان يحسن اليه ، وينظر له ، وطالت أيامه في خدمته الى ان استبطأ منصورا في وقت من الاوقات ، كان منصور فيه مضيقا ، لم يمكنه بره ، فاحتال صلت بقوم من أعداء منصور ، حتى اوصلوه الى الرشيد ، فأعلمه ان منصورا واصحابه اخذوا من أمواله عشرين الف الف درهم ، وانها في منازلهم ، فقال له الرشيد: ان كنت صادقا احسنا اليك ، وان كنت كاذبا صلبناك حيا ثلاثة ايام ، فشرط ذلك على نفسه ، ووجه الرشيد سرا برشيد الخادم واخشيد ومسرور وعدة من الخدم ، الى منازل آل بسام جميعا ببغداد ، وأمر حين وجه الخدم الى منازلهم بحبس منصور بن بسام ، ونصر بن منصور ، والحسن بن بسام ، المعروف بأبي الحسين ، وفرق بينهم . وصار الخدم الى منازلهم ففتشوها ، فلم يجدوا فيها مالا ، وكان لأبي الحسين عند امرأته خمسة آلاف دينار في قمقم ، فلما هجم الخدم عليهم رمت به جاريتها في بئر ماء ، فلما اراد الخــدم الانصراف سألت المرأة جاريتها عن القمقم ، فأعلمتها انها طرحته في البئر ، فخافت أن يكون زوجها قد أقر بالمال ، فاذا لم يوجد توهم انهم احتالوا لستر سائر أموالهم ، فأرسلت الى الخادم ، فأخبرته بما فعلت الجارية ، فاستخرج القمقم من البئر ، وحمله معه ، فلما صار الخدم الى الرشيد أخبروه أنهم لم يجدوا مالا ، ووصف له أحدهم خبر المــرأة والجارية والقمقم ، وقد كـــان استحلف منصورا ونصرا وابا الحسين على أموالهم ، فحلفـــوا أنه لا مال

عندهم ، غير أبي الحسين ، فانه ذكر له ان عند امرأته خمسة آلاف دينار ، فأمر لمنصور عند رجوع الخدم بخمسين الف درهم ، ولابي الحسين بثلاثين الف درهم ، ولنصر بعشرين الف درهم ، ورد القمقم على أبـــي الحسين ؛ وصلب صلتا بباب الجسر ثلاثة ايام ، ينزل به في كل وقت صلاة ، ويـــرد الى الخشبة .

وامر الرشيد في سنة ثمان وثمانين ومئة ، بعد نكبة البرامكـــة بسنة ، اسماعيل بن صبيح أن يكتب الى جميع العمال بما عقد بين ولده : محمـــد وعبد الله والقاسم من العهد ، واخذه عليهم من الايمان ؛ فكتب في ذلك كتابا مشهورا قال في آخره : وكتب اسماعيل بن صبيح يوم السبت لسبع ليـــال بقين من المحرم سنة ثمان وثمانين ومئة .

وكان يكتب للقاسم بن الرشيد قمامة بن ابي يزيد ، كاتب عبد الملـــك ابن صـــالح .

وتوفي عمرو بن مطرف بمكة ، وصلى عليه الرشيد ، وقال : يرحمـــك الله ، فوالله ما عرض لك أمران : احدهما لله ، والآخر لك ، الا اختـــرت ما هو لله على ما هو لك .

ولما انقضى امر البرامكة ، وحصل التدبيـــر في ايام الرشيد على مـــا بيناه ، اختلت الامور ، وقصد الفضل بن الربيع لحفظ خدمة الرشيد فـــي حضرته ، واضاع ما وراء بابه .

وذكر الفضل بن مروان : أن امـــور البريد والاخبار في ايام الرشيـــد كانت مهملة ، وأن مسرورا الخادم كان يتقلـــد البريد والخرائط ! ويخلفـــه عليه ثابت الخادم . قال : فحدثني ثابت : أن الرشيد توفي وعندهم أربعـــة آلاف خريطة لم تفض .

وكان للرشيد خادم ، يقال له : سعيد الخفتاني ، وكان خادما جليلا ، وكان من خاصته بالرشيد ومحله منه ، انه امر العمال ان يتبلـــوا كتبـــه ، وينفذوا امره في مئة الف درهم .

الرشيد والمأمون في خراسان : ولما شخص الرشيد الى خراســان ، لانتفاضها برافع بن الليث بن نصر ابن سيار ، خلف محمدا ببغداد ، وجعـــل معه يحيى بن سليم الكاتب ، يكتب له ويدبر اموره ، وشخص معه اسماعيل بن صبيح ، وكان يتقلد ديوان الرسائل ، وديوان الصوافي ، وديوان السر ، وشخص معه أيوب بن أبي سمير يعرض عليه ، وكان الفضل بن الربيع ايضا يعرض عليه ، وكان يكتب للفضل عبد الله ابن نعيم الكاتب ، واشخص معه

المأمون ، وعلى كتابته وامره كله الفضل ابن سهل ، وكان الرشيد قلده خراسان وجرجان وطبرستان والري وما يضاف اليها ، وكان الرشيد قد عزم على تخليفه ، وان لا يشخص معه ، فقال الفضل بن سهل للمأمون : لا تقبل ، وسله ان يشخصك معه ، فانه عليل وغير مأمون ان يحدث عليه حادث ان يثب عليك اخوك فيخلعك ، وامه زبيدة ، واخواله من هاشم : فساله اشخاصه معه ، فابى عليه ، فقال له : اني اريد خدمتك في هذه العلة ، ولست اسال حاجة ، ولا احملك مئونة ، واذن له ، فسار معه .

زواج وشعر : وذكر مخلد بن ابان قال :

كنت اكتب لمنصور بن زياد ، فشخص منصور مع الرشيد ، واستخلف بالحضرة ابنه محمد بن منصور ، وكان محمد سخيا سريا ، وكان الرشيد يسميه « فتى العسكر » . قال : فأمراني بحفظ الاموال ، والمقام معه على السواد ، بحضرة محمد الامين ببغداد ، فكتب مع محمد بن منصور ، وعمل على تزويج ابنه زياد بن محمد بن منصور ، فسأل محمدا الامين أن يزوره في أصحابه وقواده وكتابه ، من غير أن يقدم في هذا قولا الي ، فأجابه محمد الامين ، ثم دعاني لمخبرني الخبر ، فقلت له : هذا أمر علينا فيه غلظ ، ونحتاج الى مال جليل ، فقال : قد وقع هذا ولا حيلة في ابطاله ، وكان موضع بابه يضيق عن عشر دواب ، فقلت له :فان لم تنظر في المال والنفقة فمن أين لنا رحبة تقوم فيها دواب الناس ؟ فقال : لا ، والله ما أدري ، والتدبير والامر اليك ، ففكرت في احسانهم الى جيرانهم ، فخرجت الى مسجد على بابه ، فجمعتهم وأعلمتهم ما عزم عليه محمد بن منصور ، من امر ابنه واستزارته الامين محمدا، وانه لا رحبة له ، وسألتهم تفريغ منازلهم، واعارتنا اياها جمعة ، أو عشرة أيام ، حتى نهدمها ، ثم نبنيها اذا استغنينا عنها احسن بناء واحكمه . قال : فقلت هذا القول ، وأنا متخوف ان يجيبوني ما لا احب ، فقالوا جميعا بلسان واحد : نعم ، وكرامة ومسرة ، غدا نفرغها . فشكرت ذلك لهم ، وقاموا من حضرتي ، واخذوا في تفريغ منازلهم ، وكان اكثرها باللبن والاخصاص ، فهدمناها ، وجعلناها كأنها رحبة ، واتانا الامين فأنفقنا اموالا جليلة ، وكانت الغوالي في تيغارات فضة ، واكثر الشمع من عنبر في طساس ذهب ، ثم انقضى العرس ، فبنيت للجيران منازلهم بالجص والآجر .

بعض ما مدح به ابن منصور من الشعر : وفي محمد بن منصور يقول اشجع السلمي :

على بـاب ابـن منصـور	علامـات مـن النبـل
جماعـات وحسـب البـا	ب فضـلا كثـرة الاهـل

وفيه يقــول الخريمي :

زاد معروفــك عنــدي عظمــا | انــه عنــدك مستور يسيـر
تتناســـــاه كــــأن لم تأتــه | وهو عند النــاس مذكور كثيــر

مديح وحاجات : وقال محمد بن يوسف للخريمي : ما بال مديحك منصور بن زياد خيراً من مراثيه ؟ فقال الخريمي : لأن المدح للرجاء ، والمراثي للوفاء، وبينهما بون بعيد .

قال الفضل بن محمد بن منصور بن زياد :

اتيت عبد الله بن العباس العلوي في حـــاجة لبعض جيراننا ، بعــد وفاة أبي ، وكانت بينه وبيني مودة وثقت بها ، ثم قلت له : جئت في حاجة ان سهل قضاؤها أعظم الامير بها المنة ، وان تعذر فالامير معذور ، فقال لي : يا حبيبي ، اذا كنت معذورا فلم جئتني ؟ أحفظ عني : اذا أوجبت على نفسك ان تنهض لرجل في حاجة ، فاغضب بها وارض ، والا فالزم منزلك .

وكان عبد اللــه بن مالك ولي خــراج طساسيــج خرجان في ايــام الرشيد ، وكان يكتب له حماد بن يعقوب ، وكان لعمرو الاعجمي هناك ضيعة، فقال عمرو لليمان بن مسلمة كاتبه : لو صرت الى حماد بن يعقوب ، كاتــب عبد الله ابن مالك ، فسألته أن يكلم صاحبه في وضـع شيء من خراجنا عنا ، واديت اليه رسالة مني في ذلك ؟ فصار اليمان الى جاب حماد ، فقدم اليــه غلام اسود بغلة قد الجمها على رسنها ، فلما ركب قرعت سلسلة الرســن حديدة اللجام ، فآذاه صوته ، فقال : يا غلام ، أليس قد تقدمت اليــك الا تلجم البغلة على رسنها ، ثم عدل الى بعض المساجد فنزل ، وخلع الغـــلام الرسن ، وأعاد اللجام ، وحمل الرســـن معه ، فقلت في نفسي : ما عنــد هذا خير ؟ كم ترى هذا يسمح ان يتحمل لصاحبي من الخراج ؟ قال : ثم قلت اكلمه على كل حال اذ قد صرت اليه ، فكلمته ، فقطع علي الكلام ، وقــال : اذا استقر بنا المجلس ، فسل حاجتك ، ثم صار الى دار صاحبه ، ثم الى ديوانه ، فجلس على بارية (١) ، ونظر في أعماله ، ونفذ أموره الى نصــف النهار ، ثم ركب ، وأمرني بالركوب ، ففعلت ، فلما بلغنا باب منزله دقــه الغلام ، فخرجت جارية خلاسية (٢) ، ففتحته ، ودخل فأذن لي ، فدخلت ،

---

(١) البارية : الحصير المنسوجة .

(٢) الخلاسية : الجارية بين أبيض وسوداء أو بين أسود وبيضاء .

وهو في بيت مرشوش ، وفيه حصير ومساور جلود ، وجيء بماء فغسل يديه ، وامرني بغسل يدي ، ثم جاءته الجارية بمائدة ، عليها رغفان ، وبقل ، وخل ، وملح ، واتته سكباج ، فأكلنا منها ، حتى لم يبق منها شيء ، ثم قال : يا جارية ، هي طيبة فزيدينا منها ، فزادتنا ، ثم اتت بلون آخر ، فتناولنا منه، ثم رفعت المائدة ، وغسلنا أيدينا ، ثم قال : هات الآن حاجتك ، فأديت اليه رسالة صاحبي ، فقال : وكم خراجه ؟ فقلت : ثمانية عشر الف درهم ، فدعا بالدواة والقرطاس ، وكتب الى عامله بترك العرض للوكيل ، واعطاه روزابها للاحتساب بها في ارزاقه ، ثم قال : وكم خراجك انت في نفسك ؟ فقلت : قد حملت اصلحك الله على نفسك ، وما كنت لأكلفك شيئا لي ، قال : اذا لا أعطيك الكتاب في امر صاحبك ، فقلت له ، بعد أن حادثته ساعة : ثمانية آلاف درهم ، فكتب لي ايضا باحتمالها .

حج الرشيد : وكان الرشيد حج بعد نكبة البرامكة ، والمدبر الأمره الفضل ابن الربيع ، فلما صار بمكة رأى في الحجر رجلا له هيئة وسمت يصلي ، فقال للفضل : يا عباسي ، جئني بهذا الرجل ، فقصده الفضل وهو قائم في صلاته ، فانتظر انفتاله من الصلاة ، فأطالها ، فجذب ثوبه الفضل وقال له : اجب أمير المؤمنين ، فخفف الرجل صلاته ، وقال له : مالي ولأمير المؤمنين ! فقال : هو ما ترى وتسمع . فقام وهو يتهادى في مشيته من الكبر . قال : فلما أتيت به الرشيد عرفته خبره ، فدعا به لما فرغ من طوافه ، فلما رآه قال له : من الرجل ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، ان الانساب تمنع من الاكتساب ، فقال له : لتخبرني ، قال : فاذكر نسبي آمنا ؟ فأمنه ، فانتسب الى الحسين بن علي بن ابي طالب ، فتذفت له في قلب الرشيد رحمة ، ثم قال له : ان أمير المؤمنين قد قدر عندك ، لما رأى من سمتك ، اصابة الرأي، فما عندك فيما كان من أمير المؤمنين من العهد الذي عهده الى ولاة العهد ؟ فاستعفاه ن الجواب ، فلم يعفه ، وقال له : انت آمن ، فقل بكل لسانك كل ما عندك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، رأيتك قد اخذت ثلاثةأسياف مشحوذة فجعلتها في غمد واحد ، فانظر ما يكون بينها ، فأطرق الرشيد مليا ، ثم قال للفضل بن الربيع : يا فضل : اعطه ثلاث مئة دينار ، واجعلها عليه في كل شهر باقي عمر أمير المؤمنين .

وحضر ديوان الخراج في أيام الرشيد شيخ من قدماء الكتاب ، ومعه توقيع الرشيد بقضاء دين عليه ، فعني الكتاب به ، وزجوا كتابه ، فقال لهم: احفظوا عنا ثلاثا : الجوار نسب ، والمودة نسب ، والصناعة نسب .

وكان فرج الرخجي مملوكا لحمدونة بنت الرشيد ، وهي المعروفة بحمدونة بنت غصص ، ولحق ولاؤه بالرشيد ، وكان زياد أبوه من سبى معن

ابن زائدة ، وكان فرج سبى معه عند غزو معن الرخج .

قال : قال عمر بن فرج قال : حدثني ابي ، قال :

كنت مع ابي زياد في عسكر معن ، في جملة من سباه من الرخج ، وكان قد سبى شيئا كثيرا ، وغنم غنائم جليلة ، فنزل وعسكر وحطت الاثقال ، ونزعت السروج عن الدواب ، فبينا هم كذلك ابصروا غبـــارا ساطعا ، وظنوا انه الطلب ، فأمر معن بقتل الاسرى ، فقتلوا نحوا من اربعة آلاف ، قال : فأخذني ابي ، فجعلني تحت الاكف ، وقام في وجهي ، وقال : لعلك ان قتلت انا ان تسلم انت ، فنظروا ، فاذا هي حمير وحش ، والغبار لها ، وقد قتل بسببها أربعة آلاف .

ونظر اعرابي الى نبل قصر فرج الرخجي ، فقال :

لعمرك ما طـــول البنـــاء بنافع اذا كان فرع الوالديـــن قصيرا

وكان الرشيد قلد فرجا الرخجي الاهواز ، فكثر عليه عنده ، واتصلت السعايات به ، وتظلمت رعيته منه ، وادعي عليه انه قد اقتطع مالا كثيرا من مال البلد ، فصرفه بمخلد بن أبان الانباري ، في سنة اثنتين وتسعيـــن ومئة .

وحدث للرشيد سفر ، فشخص ، وأمر فرجا بالخروج معه ، فلما صار ببعض المنازل دعا به ، فقال مطهر بن سعيد كاتب فرج : فلما أمر باحضاره حضر وانا معه ، ولسنا نشك في ايقاعه به ، وازالته نعمته ، فوقفت ببـــاب مضرب الرشيد ، فدخل اليه ، فبينا انا أتوقع خروجه على حـــال يكرهها ، خرج وعليه الخلع ، فتضاعفت النعمة عندي ، واكثرت الشكر لله جل وعـــز علي السلام ، وسرت معه حتى وصلت الى منزله ، فلما خلا سألته عـــن خبره ؟ فقال : دخلت اليه ووجهه الى المغرب ، وظهره الي ، فلما أحس بي شتمني اقبح شتيمة ، وتوعدني اشد توعد ، وقال لي : يا بن الفـــاعلة ، رفعتك فوق قدرك ، وأتمنتك فخنتني ، وسرقت مالي ، وفعلـــت وفعلت : والله لافعلن بك ولافعلن ، فلما سكت قلت له : القول كما قال سيـــدي ، واكثر منه في انعامه علي ، وحلفت بأيمان البيعة اني قد نصحـــت وشكرت الصنيعة ووفرت ، وما سرقت ولا خنت ، ووالله لاصدقنك عن أمري : عمرت البلاد ، واستقصيت حقوقك من غير ظلم ، ووفرت أموالك ، وفعلت ما يفعله المناصح لسيده ، وكنت اذا كان وقت بيع الغلات جمعت التجار ، فاذا تقررت العطايا انفذت البيع ، وجعلت لي مع التجار فيه حصة ، فربمـــا ربحت ، وربما وضعت ، الى أن اجتمع لي من ذلك ومن غيره في عدة سنين عشـــرة

آلاف الف درهم ، فاتخذت ازجا (١) كبيرا ، عقد بالجص والآجر ، كأنه مجلس ، وجعلت بين يديه موضعا اقعد فيه ، وعبيت البدور شيئا بعد شيء في الازج ، ثم سددته ، وهو بحاله ، ما اشك أن العنكبوت قد نسجت على ما فيه ، فخذها ، وحول وجهك الى عبدك ، وكررت القول والحلف على صدقي ، فقال لي : بارك الله لك في مالك ! فارجع الى عملك ودار رعيتك .

عبد الله ابن عمر وسليمان بن راشد : حدثنا علي بن أبي عرن قال : حدثني الفضل بن مروان .

ان الرشيد صرف عبد الله بن عمر عن ديوان الخراج بسليمان بن راشد ، وأمره بالاستقصاء عليه . فجلس سليمان بن راشد في مجلسه ، ودعا بعبد الله ابن عمر ، فجلس بين يديه ، فقبل أن يناظره بشيء دخل الفضل بن يونس على سليمان ، فسلم عليه ، فأوسع له سليمان الى جانبه، فالتفت الفضل بن يونس الى سليمان بن راشد ، فقال له : يا ابا أيوب : اوسع مجلسك ، واومأ الى موضع عبد الله بن عمر ، فقال له سليمان : ما اردت بهذا ؟ فقال له : ان المجلس الذي جلس هذا فيه اليوم ، ستجلس أنت فيه غدا ، فمن ثم قلت : أوسع مجلسك ، فحلف سليمان انه لا يحاسب عبد الله بن عمر ، ولا ينظر له في أمر .

ولما صار الرشيد بطوس ، واشتدت علته ، اتصل خبره بمحمد الامين، فوجه ببكر بن المعتمر ، وجعل له في كل يوم الف دينار ، ودفع اليه كتبا الى الفضل بن الربيع ، واسماعيل بن صبيح وغيرهما ، يأمرهم بالقفول الى مدينة السلام ان حدثت بالرشيد حادثة ، وكان الرشيد قد جدد الشهادة للمأمون بجميع ما في عسكره ، من مال واثاث وخرثي ورقيق وكراع ، وامر باقرار الجميع معه ، وتسليمه اليه ، ان حدثت به حادثة . فلما ترك بكر بن المعتمر عسكر الرشيد ، وكانت معه كتب ظاهرة بعيادته ، وكتب باطنة الى القوم بالقفول ، والاحتياط على ما في العسكر ، واتصل خبر الكتب الباطنة بالرشيد ، وامر باحضاره ومطالبته بالكتب ، فجحدها .

قال عبد الله بن عبد الله بن طاهر : فحدثني محمد بن منصور بن زياد قال : حدثني أبي ، قال :

كنت مع الرشيد بطوس في علته التي مات فيها ، وقد ورد بكر ابن المعتمر بالكتب ، والمأمون حينئذ بمرو ، وقد ظفر بأخي رافع ابن الليث ، واحضر في ذلك اليوم ومعه قرابة له ، فحبسا ، فخلع الرشيد على بكر ، وصرفه الى منزله ، ثم أمر باحضاره ومطالبته بالكتب ، فجحدها ، ودافع

---

(١) الازج : بيت يبنى طولا .

عنها ؛ فامر بحبسه . قال : ثم جلس الرشيد جلوسا عاما في مضرب خــز أسود ، استدارته اربع مئة ذراع ، وفي أركانه اربع قباب مغشاة بخز اسود، وهو جالس في فازة (١) خز سوداء ، في وسط المضرب ، والعمد كلها سود ، وعليه جبة سوداء خز بغير قميص ، وعليها فنك (٢) قد استشعره ، لشدة ما هو فيه من البرد والعلة ، وفوقها دراعة خز سوداء مبطنة بفنــك ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة ، وعمامة خز ســوداء ، وطيلسان أسود ، وسيــف بحمائل ، وتحته أحد عشر فراشا خزا اسود ، والوسائد والمخاد وسائر ما يقرب منه خز اسود ، وهو لما به ، وخلف المسند خادم يمسكه بيده ، لئلا يميل ، والفضل بن الربيع جالس بين يديه ، فقال للفضل : مر بكرا باحضار ما معه من الكتب السرية ، فأنكرها وقال : وما معي الا الكتب التي أوصلتها، فقال الرشيد للفضل : توعده ، واعلمه انه ان لم يفعل بلغت منه غاية المكروه، فاقام بكر على الانكار والجحود ، فسمعته يقول للخادم بصوت خفي : قــل للفضل : قنبوه ، فنحي بكر ، وجيء بالقنب ، فقنب من قرنه الى قدمه ، قال بكر : فايقنت بالموت ، ويئست من نفسي ، وعملت على الاعتراف ، فانــي على ذلك حتى أمر باحضار مروان أخي رافع ، وقرابته الذي كان معه ، فاحضر ، فقال له الرشيد : ايتوهم رافع انه يغلبني ، والله الذي لا اله الا هو ، لو كان معه عدد نجوم السماء ، لتلقطتهم واحدا واحدا ، حتى اقتلهم عن آخرهم ، فقال مروان : الله الله فيّ يا امير المؤمنين ، فان الله اعلــم واهل خراسان جميعا اني ما زلت بريئا من أخي ، ومما هو عليه منذ عشرين سنة ، واني الأشير عليه بلزوم الطاعة ، وترك ما هو بسبيله ، فلا يقبل ، وانني لملازم لمسجدي وصلاتي ومنزلي ، فاتق الله فيّ ، وفي هذا الرجل ، فقال له قرابته : قطع الله لسانك ! انا والله كذا وكذا ندعــو بالشهادة ، فلما رزقناها على يدي شر خلقه ، اخذت في الاعتذار . فاغتاظ الرشيد من ذلك ، وقال : علي بجزارين ، فقال له قرابة مروان ، افعل ما شئت ، فانا نرجو أن يرزق الله الشهادة ، ونقف نحن وانت بين يدي الله عز وجل في اقرب مدة ، فتعلم كيف يكون حالك ، فنحيا ، وأمر القوم بتفصيلهم عضــوا عضوا : فوالله ما فرغ منهما حتى توفي الرشيد .

قال بكر : فأنا اتوقع خروج نفسي ، حتى أتاني غلام لابــي العتاهية قد بعث به الي مولاه ، وكتب في راحته شيئا ، فقرأته ، فاذا هو :

هــي الايــام والغيــر وامــر اللــه ينتظــر

---

(١) الفازة : خيمة بعودين .

(٢) الفنك : دابة يلبس جلدها فروا .

اتيـــأس ان تـرك فرجــــا   فايـــن اللــه والقــــدر

فوثقت بالله عز وجل ، ولم افهم معناه ، ثم سمعـــت ناعيـــة ، واذا بالفضل ابن الربيع قد اقبل يريدني ، فلما قرب مني قال : حلوا عن ابـــي خليدة ، فقلت : ليس هذا وقتا تكنيني فيه ، فدعا بخلع ، فخلعت علي ، ثم قال لي : اعظم الله اجرك في امير المؤمنين ، واخذ بيدي ، فأدخلني بيتا وهو مسجى فيه ، وكشف عن وجهه ، فلما رايته ميتا ، قال لي : هات الكتب التي معك ، فاحضرت صندوقا للمطبخ ، قد نقبت قوائمه ، وجعلت الكتب فيها ، وجعل الجلد فوقها ، فشق الجلد ، وكسرت القوائم ، وسلم بكر الكتـــب الى اصحابها ، واخذ الاجوبة وانصرف .

وكان فيما كتب به محمد الى المأمون ، في كتاب طويل ، فصل قال فيه:

كتاب الامين الى المامون بعد وفاة الرشيد : واضمم الى الميمون بـــن الميمون الفضل بن الربيع ولد امير المؤمنين رحمه الله وحرمه واهله ، وامـــره بالمسير معهم ، فيمن معه من رابطته وجنده .

وفي فصل آخر منه :

واياك ان تنفذ رايا ، او تبرم امرا ، الا براي شيخك ، وثقة آبائك ، الفضل بن الربيع ، واقر الخدم على ما في ايديهم من الامـــوال والخزائن والسلاح ، ولا تخرجن أحدا منهم عن ضمن ما يلي ، الى أن تقـــدم علي به ، وان أمرت لاهل عسكرك بعطاء او رزق ، فليكن الفضل بن الربيع المتولـــي لاعطائهم ، على دفاتر يتخذها لنفسه ، بمحضر من أصحـــاب الدواوين ، فان الفضل بن الربيع لم يزل يتقلد مثل ذلك عند مهمات الامور . وانفذ الي عند وصول كتابي هذا اسماعيل بن صبيح وبكر بن المعتمر ، على مركبهما من دواب البريد .

كتاب الرشيد وولاة امره : وتوفي الرشيد في جمادي الآخرة من سنـــة اثنتين وتسعين ومئة ، وعلى نفقاته وتدبير أموره الفضل بن الربيع ، وعلى ديوان الرسائل وديوان السر وديوان الضياع وديوان الصوافي اسماعيل بن صبيح ، وعلى ديوان الجند ابن الهذلي وعبد الله بن عبـــدة الطائي ، وعلى ديوان الخراج بالسواد ، سليمان بن عمران ، وعلى ديوان خـــراج الشام ومصر وافريقية والموصل وارمينية واذربيجان والمدينة ومكة واليمن ، علي بن صالح ، وعلى ديوان خراج الجزيرة محمد بن اسماعيل بن صبيح .

المامون والفضل ابن الربيع : وجد الفضـــل بن الربيع في المسيـــر بالعسكر بجميع ما فيه ، ولم يعرج على المأمون ، ولا التفت اليه . فلمـــا

اتصل الخبر بالمامون هم بان يلحقهم في الفي فارس خيل جريدة ، فقال له الفضل بن سهل : ان فعلت هذا لم آمن ان يقبضوا عليك ، ويجعلوك هدية الى محمد ، ولكن تقيم وتكتب اليهم كتابا ، وتوجه اليهم رسولا ، يذكرهم البيعة ، وتسالهم الوفاء ، وتحذرهم الغدر والحنث . فقبل ذلك المامون ، ووجه بسهل بن صاعد ، وكان على قهرمته ، وكان عاقلا حازما ، وبنوفل الخادم مولى الهادي ، وكتب معهما ، فلحقا الفضل بن الربيع والعسكر بنيسابور ، فلم يقبلوا منهما ، ولا التفتوا اليهما ، فانصرفا بالخبر الى المأمون ، فقال له الفضل بن سهل : هؤلاء اعداء قد استرحت منهم ، وبعدوا عنك ، ولكن افهم عني شيئا اقوله : ان هذه الدولة لم تكن اعز منها في ايام ابي جعفر ، فخرج عليه المقنع يطالب بدم ابي مسلم ، فتضعضع العسكر لخروجه ، ثم خرج بعده يوسف البرم وهو كافر ، فقامت عليه القيامة ، ثم خرج بعده استاذ سيس يدعو الى الكفر ، فشخص اليه المهدي من الري الى نيسابور ، ثم هذا بالامس كيف رأيت الناس لما ورد عليهم خلع رافع بن الليث ؟ فقال : رايتهم اضطربوا اضطرابا شديدا ، قال : فكيف بك وانت نازل في أخوالك وبيعتك في اعناقهم ، كيف يكون اضطراب اهل بغداد ؟ اصبر قليلا وانا اتضمن لك الخلافة ، فقال له المأمون : قد فعلت ، ووالله لأشكرنك .

ابن سهل والمامون : ولما اجمع المأمون على المقام بخراسان ، قال له الفضل بن سهل : ان هؤلاء الرؤساء كعبد الله بن مالك ويحيى بن معاذ وغيرهما انفع لك مني ، لما قد شهر وتقدم من رياستهم ، وما عندهم من القوة على الحرب ، فدعني اكن خادما لك ، حتى تصير لي محبتك ، وتجعل اليهم ظاهر الامر ، فقال له : افعل ما رأيت ، فلقيهم الفضل بن سهل في منازلهم ، وذكرهم البيعة ، وما يجب من الوفاء بها . قال : فكنت كأني آتيهم بجيفة على طبق لا يحل أكلها ، فيدفعني بعضهم ، ويقول بعضهم : ومن يدخل بين امير المؤمنين واخيه ؟ فعرف المامون ذلك ، فقال له : فقم انت بالامر ، فقال له الفضل : قد قرات القرآن ، وفهمت أمر الدين ، والراي ان تجمع الفقهاء ، وتدعوهم الى الحق ، والعمل به ، واحياء السنة ، وان تقعد على الملك ، وان تواصل النظر في المظالم ، وتكرم القواد والملوك ، وابناء الملوك ، ففعل ذلك ، وكان يقول للتميمي : نقيمك مقام موسى بن كعب ، ويقول للربعي : نقيمك مقام ابي داود ، ويقول لليماني : نقيمك مقام قحطبة ومالك بن الهيثم ، وحط على خراسان ربع الخراج ، فكانوا يقولون : ابن اختنا وابن عم رسول الله . ولما راى رافع بن الليث سيرة المامون انقاد له ، ودخل في طاعته ، في سنة اربع وتسعين ومئة ، فاعطاه الامان ، فصار

اليه ، فأكرمه ، وخص به .

ولما خص الفضل بن سهل بالمأمون ، وتبين نجابته ، ودلته النجوم على انه يلي الخلافة ، طالبه بأن يكتب له رقعة بخطه ، فكتب له رقعة نسختها :

جعلت لله على نفسي ان استرعاني امور المؤمنين ، وقلدني خلافته في خلقه ، العمل فيهم بكتابه وسنة رسوله ، محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا اسفك دما عمدا الا ما احلته حدودة ، وسفكته فروضه ، وان لا أنال من أحد من المخلوقين مالا ولا أثاثا غصبا ، ولا بحيلة تحرم على المسلمين ، ولا اعمل في شيء من الاحكام بهواي ، ولا بغضبي ، الا ما كان منهما في الله عز وجل وله ، وجعلت ذلك كله عهدا مؤكدا على أن افي به ، رغبة في زيادته اياي ، ورهبة من مساءلته لي عنه ، فانه جل وعز يقول : « واوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » ، فان حلت أو غيرت كنت للعن مستحقا ، وللنكال متعرضا : وأعوذ بالله من سخطه ، وأرغب اليه في المعونة لي على طاعته ، والحؤول بيني وبين معصيته ، في عافية لي ولجماعة المسلمين ، وان يسهل لي ما يحب ويرضى في جميع أموري ، انه قريب مجيب ، وعلى ما يشاء قدير .

وكتبت بخطي .

وكان يونس بن الربيع يحجب المأمون ، وهو ولي العهد ، فدعا يونس يوما أبا محمد اليزيدي ، فأقام عنده ، فصار اليه الفضل بن سهل ، فتحادثا وتفاوضا ، فقال له اليزيدي في بعض قوله : ان الامير جميل الرأي فيك ، مستخف لك ، حامد لخدمتك ، واني لأرجو ان يبلغك الله مبلغا تتمكن منه معه ، وتملك الف الف درهم . فاستشري الفضل غضبا ، ثم قال له : ما هذا الكلام ؟ أها هنا موجدة ؟ أها هنا حقد ! أها هنا حقد ! أها هنا ما يوجب هذا، فقال له : ما انكرت حتى أخرجك الى هذا ، مع مودتي لك ، وميلي اليك ؟ فقال له : تقول لي : تملك الف الف درهم ؟ قال : فما أنكرت ، وما الذي تريد ؟ قال : والله ما صحبت هذا الامير لأكسب معه مالا قل أو كثر ، وان همتي لتتجاوز كل ما يجوز أن يملك ، قال : فلما صحبته اخرج خاتمه من يده ، ثم قال : ليجوز طابع هذا في الشرق والغرب ، لهذا خدمته ، ولهذا صحبته . فما طالت المدة حتى بلغ الامل .

وكان الفضل والحسن ابنا سهل ، والمأمون ولي عهد ، عند بعض الخدم المتقلدين للاعمال في أيام الرشيد ، وانه دخل على الخادم فتى كان يلي له شيئا ، فلما رآه ضحك ، ثم قال له : هذه مشية تعلمتها بعدك ، فانظر : اهي أحسن أم ما كنت أمشي ، حتى انتقل عنها ؟ ثم غير مشيته ، وجاء

مجلس ، فاتى برعونات كثيرة ، فلم يزل الخادم يحتال له ، حتى خرج ، ثم قال لهما : ان بعض الناس يحب أن يظهر خاصية ليست له ، فلما خرجا من عنده ، قال الحسن للفضل : تعذب نفسك ثلاثين سنة من ذي قبل ، بالصيانة والمروءة وطلب الادب ، ومثل هذا يلي الاعمال ! فقال له الفضل : لو حمل هذا ، وضربت استه بالدرة ، خرج منه عون صدق . ان الناس جميعا لو حملوا على الصلاح صلحوا ، ولكنهم يموتون من قلة التفقد ، والترك بغير أدب .

وحكي ان الفضل بن سهل ولى انسانا شيئا ، فأساء فيه ، فأمر بحمله، فضرب استه بالدرة ، ثم قال له : قد ادبتك بهذا ، فان صلحت والا أطرحناك .

صورة لقائمة من قوائم الخراج أيام الرشيد : وجدت في كتاب عمله ابو الفضل محمد بن احمد بن عبد الحميد الكاتب - في اخبار خلفاء بني العباس ، بخط أبي الفضل ، يقول :

انفذ الي ابو القاسم جعفر بن محمد بن حفص رقعة ، انتسخها من دواوين الخراج : الكاتب ذكر فيها أن أبا الوزير عمر بن مطرف الكاتب من اهل مرو ، وانه كان يتقلد ديوان المشرق للمهدي ، وهو ولي عهد ، ثم كتب له في خلافته ، ولموسى ولهارون ، وانه عمل فيايام الرشيد تقديرا عرضه على يحيى بن خالد ، لما يحمل الى بيت المال بالحضرة من جميع النواحي ، من المال والامتعة ، نسخته :

١ ـ اثمان غلات السواد

ثمانون الف الف ، وسبع مئة الف ، وثمانون الف درهم .

٢ ـ أبواب المال بالسواد

اربعة عشر ألف الف ، وثماني مئة الف درهم .

الحلل النجرانية : مئتا حلة .

الطين للختم : مئتان وأربعون رطلا .

٣ ـ كسكر

أحد عشر الف ألف ، وست مئة الف درهم .

٤ ـ كور دجلة

عشرون الف الف ، وثماني مئة الف درهم .

٥ ـ حلوان

أربعة آلاف ألف ، وثماني مئة الف درهم .

٦ ـ الاهواز

خمسة وعشرون الف ألف درهم .

السكر : ثلاثون الف رطل .

٧ ــ فــارس

سبعة وعشرون الف الف درهم .

ماء الزبيب الاسود : عشرون الف رطل .

الرمان والسفرجل : مئتا الف وخمسون الفا .

ماء الورد : ثلاثون الف قارورة .

الانبجات (١) : خمسة عشر الف رطل .

الطين السيرافي : خمسون الف رطل .

الزبيب ــ بالكر الهاشمي ــ ثلاثة اكرار .

٨ ــ كــرمان

اربعة آلاف الف ومئتا الف درهم .

المتاع اليمني والخبيصي (٢) : خمس مئة ثوب .

التمر : عشرون الف رطل .

الكمون : مئة رطل .

٩ ــ مكـــران

اربع مئة الف درهم .

١٠ ــ السند وما يليها

احد عشر الف الف ، وخمس مئة الف درهم .

الطعام بالقفيز الكيرخ : الف الف قفيز .

الفيلة : ثلاثة فيلة .

الثياب الحشبشية : الفا ثوب .

الفوط : اربعة آلاف فوطة .

العود الهندي : مئة وخمسون منا .

ومن سائر أصناف العود : مئة وخمسون منا .

النعال : الفا زوج ، وذلك سوى القرنفل والجوزبوا .

١١ ــ سجستان

اربعة آلاف الف ، وست مئة الف درهم .

الثياب المعينة : ثلاث مئة ثوب .

الفانيذ (٣) : عشرون الف رطل .

---

(١) هي ما نسميه ـ المانجو ـ وكانوا يتخذون منها مربى .

(٢) خبيص : بلدة بكرمان .

(٣) في القاموس : الفانيذ ضرب من الحلواء .

١٢ — خراســـان

ثمانية وعشرون الف الف درهم .

نقر الفضة ، الامناء : الفا نقرة .

البراذين : اربعة آلاف برذون .

الرقيق : الف رأس .

المتاع : سبعة وعشرون الف ثوب .

الاهليلج : ثلاث مئة رطل .

١٣ — جرجــان

أثنا عشر الف الف درهم .

الابرسيم : ألف منا .

١٤ — قومس

ألف الف . وخمس مئة الف درهم .

نقر الفضة : الامناء : الف نقرة .

الاكسية : سبعون كساء .

الرمان : اربعون ألف رمانة .

١٥ — طبرستان ، والرويان ، ودنباوند

ستة آلاف الف ، وثلاث مئة ألف درهم .

الفرش الطبري : ست مئة قطعة .

الاكسية : مئتا كساء .

الثياب : خمس مئة ثوب .

المناديل : ثلاث مئة منديل .

الجامات : ست مئة جام .

١٦ — الــري

أثنا عشر ألف درهم .

الرمان : مئة الف الف رمانة .

الخوخ : الف رطل .

١٧ — اصفهــان

سوى خمتش ورساتيق عيسى راديس

احد عشر الف الف درهم .

العسل : عشرون الف رطل .

الشمع : عشرون الف رطل .

١٨ — همذان ودستبي

أحد عشر الف الف ، وثماني مئة الف درهم .

الرب والرمانين : الف منا .
العسل الاروندي : عشرون الف رطل .

١٩ ـ ما هي البصرة والكوفة

عشرون الف الف وسبع مئة الف درهم .

٢٠ ـ شهرزور وما يليها

اربعة وعشرون الف الف درهم .

٢١ ـ الموصل وما يليها

اربعة وعشرون الف الف درهم .
العسل الابيض : عشرون الف رطل .

٢٢ ـ الجزيرة ، والديارات ، والفرات

أربعة وثلاثون الف الف درهم .

٢٣ ـ اذربيجان

اربعة آلاف الف درهم .

٢٤ ـ موقان وكرخ

ثلاث مئة الف درهم .

٢٥ ـ جيلان

من الرقيق : مائة راس .
البز والطيلسان ...؟
من العسل : أثنا عشر زقا .
ومن البزاة : عشرة بزاة .
ومن الاكسية : عشرون كساء .

٢٦ ـ ارمينية

ثلاثة عشر الف الف درهم .
البسط المحفورة : عشرون بساطا .
الرقم : خمس مئة وثمانون قطعة .
المالح المنبوذ ماهي : عشرة الاف رطل .
الطريخ : عشرة آلاف رطل .
البزاة : ثلاثون بازيا .
البغال : مئتا بغل .

٢٧ ــ قنسرون والعواصم

اربع مئة ألف وتسعون الف دينار .

٢٨ ــ حمص

ثلاث مئة الف وعشرون ألف دينار .

الزبيب : ألف راحلة .

٢٩ ــ دمشــق

اربع مئة الف وعشرون الف دينار .

٣٠ ــ الاردن

ستة وتسعون الف دينار .

٣١ ــ فلسطين

ثلاث مئة الف وعشرون ألف دينار .

ومن جميع أجناد الشام من الزبيب : ثلاث مئة الف رطل .

٣٢ ــ مصــر

سوى تنيس ودمياط والاشمون ــ فان هذه وقفت للنفقات الف الف ، وتسع مئة وعشرون الف دينار .

٣٣ ــ بــرقة

الف ألف درهم .

٣٤ ــ افريقية

ثلاثة عشر الف الف درهم .

من البسط : مئة وعشرون بساطا .

٣٥ ــ اليمــن

سوى الثيــاب

ثماني مئة الف ، وسبعون الف دينار .

٣٦ ــ مكة والمدينة

ثلاث مئة الف دينار .

جملة التقدير : فذلك العين ، خمسة آلاف الف دينار ، قيمتها حســـاب اثنين وعشرين درهما بدينار : مئة الف الف ، وخمسة وعشرون الف الف ، وخمس مئة ، واثنان وثلاثون ألف درهم .

الورق : اربع مئة الف الف ، واربعة الاف الف ، وسبــع مئة الف ، وثمانية الاف درهم .

يكون الورق مع قيمة العين ــ خمس مئة الف الف ، وثلاثين الف الف ، وثلاث مئة الف ، واثني عشر الف درهم .

ايام محمد الامين

ولما افضى الامر الى محمد الامين قلد يحيى بن سليم ديوان الرسائل، وقلد العباس بن الفضل بن الربيع حجابته ، وقلد الفضل بن الربيع العرض عليه ، وقلد بكر بن المعتمر ديوان الخاتم .

وكان يكتب للفضل بن الربيع موسى بن عيسى بن يزدانيروذ ، وداود ابن بسطام ، وعبد الله بن ابي نعيم .

وكان الفضل ينزل في الشارع الاعظم ، بازاء درب السقائين ، وكان لما عزم على بناء منزله هذا وهب له الرشيد من مال الاهواز خمسة وثلاثين الف ألف درهم ، معونة له على بنائه .

ولما استقر أمر محمد الامين ، وحصل ما ورد به عليه الفضل بن الربيع من العسكر بما فيه ، كتب الى المأمون يسأله التجافي له عن بعض الاعمال بخراسان ، وأن يطلق له انفاذ رجل يتقلد البريد من قبله ، ليكاتبه بأخباره ، فشق ذلك على المأمون ، ودعا الفضل بن سهل فشاوره ، فقال له : ان لك من شيعتك واهل ولايتك بطانة ، وفي مشاورتهم تأنيس لهم ، وفي قطع الامر دونهم وحشة ، وظهور قلة ثقة بهم ، فشاورهم ، فأحضرهم ، فأشاروا عليه جميعا باجابته الى ما سأل ، فقال الحسن بن سهل : هل تعلمون أن محمدا تجاوز الى طلب ما ليس له بحق ؟ قالوا : نعم ، ونحتمل ذاك ، لما نخاف من ضرر منعه ؛ قال : وهل تثقون بكفه بعد اعطائه ذلك ، والا يتجاوز بالطلب الى غيره ؟ قالوا : لا ، ولكنا نرجو السلامة ، قال : فان تجاوز الى مسألة اخرى ، أليس قد تعجلنا الوهن بما أعطيناه . ووافق الفضل بن سهل الحسن في ذلك الرأي ، فقال في كلام طويل : ليس النصر بالكثرة

والقلة ، وجرح الموت أيسر من جرح الضيم والذل ، فقال المأمون : بايثار حب الدعة صار من صار الى فساد العاقبة في امر دنياه وآخرته ، وكتب يمنعه من ذلك . ويدفعه عنه .

ثم تقدم المأمون الى الفضل بن سهل أن يكتب الى محمد بالبعثة اليه بحرمه وولده ، وكان له ببغداد ابنان من أم عيسى بنت موسى الهادي ، نزولا معها في قصر المأمون . وبمئة الف دينار ، كان الرشيد اوصى له بها من بيت المال ، فأجابه بانه قد صرف المال في امور المسلمين ، فيما هو اولى مما اوصى به الرشيد ، وأن حرمه وولده يجرون عنده مجرى حرمه وولده ، وانه لا يرى تعريضهم لما عرضهم له من مشقة السفر ، وغرر الطريق ، وأنه اذا رأى لذلك وجها اذن له فيه ، فاستحكمت وحشة المأمون . وعلم مذهب محمد فيه . وأخذ في أهبة التحرز منه .

خلع المأمون : ولما استوسق الامر لمحمد ، زين له الفضل بن الربيع خلع المأمون ، وكان يخافه ان افضى الامر اليه ، وعاون الفضل على ذلك علي بن عيسى ابن ماهان ، فكتب الى جميع العمال بالدعاء لموسى بن محمد بعد الخليفة ، وخلع المأمون ، وبلغ المأمون ذلك وما احدثه لموسى ابنه بعده من أمر الخطبة .

وندب الفضل بن سهل طاهر بن الحسين للشخوص الى الري ، ورآه متثاقلا ، فقال له : ما امنيتك ؟ قال : امنيتي ان اخطب على منبر فوسنج ، ويكون في صندوقي مئة الف درهم ، فولاه فوسنج ، وأمر له بمئة الف درهم ، وتركه أياما ، ثم دعاه الى الشخوص ، فأجابه ، فقال الفضل : اذا نال الرجل المنى ، خاض الدماء .

وكان الحسين بن مصعب بفوسنج ، فلما قدم الى حضرة المأمون ، وعرف خبر ابنه طاهر ، انكر تعرضه لما تعرض له ، فقال : الفتن لا يتعرض فيها الا كل خامل ، لا اصل له ولا نباهة ، ليذكر فيها ، او يعطب فلا يبالي ، وأنت فلك قديم مؤثل ، فقال له : لم يذهب علي ما قلت ، ولكني خفت ان لم اقبل ما دعيت اليه ، أن يقلد الامر غيري واضم اليه ، فلأن أكون متبوعا ، أفضل من أكون تابعا .

قال عبيد الله بن الحسن بن سهل سمعت ابي يقول :

لما انتهى الى الفضل بن سهل خبر علي بن عيسى ، وخروجه من العراق ، امر القواد كلهم بجمع اولادهم ، فاتى الحسين بن مصعب بطاهر ،

فلما رأى طاهرا اعرض عن غيره ، وكان اعور كريه الوجه مشمرا ، وجعل يقول : هو هو ، ثم عقد له على الري ، فرمى الحسين بن مصعب نفسه بين يديه . واستعفاه من انفاذه ، وقال له : اني لم اقل هذا اشفاقا عليه ، ولكن خوفا من ان يحدث عليك حادثة يعسر تلافيها ، فوالله لقد كنت أراه في ولاية علي بن عيسى خراسان ، وانه ليقف بين يديه في جملة خلق كثير ، وفرائصه ترعد منه . ولعله ان ينظر اليه بتلك العين ، فقال له الفضل بن سهل : أمسك ، فقد عقدت له عقدا لا ينقض نيفا وستين سنة .

ولما عزم محمد على مكاتبة المأمون بأن ينزل له عن بعض اعماله ، تقدم الى اسماعيل بن صبيح ان يكتب اليه في ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ان مسالتك له الصفح عن بعض ما في يديه توكيد للظن ، وتقوية للتهمة ، ومدعاة للحذر ، ولكن تكتب اليه وتعرفه حاجتك اليه ، وشوقك الى قربه ، وايثارك الاستعانة برايه ومشورته ، وتسأله القدوم عليك ، فان ذلك أحرى أن لا يوحشه ، فقال : اكتب بذلك ، فكتب به ، فلم يلتفت اليه المأمون ، ولا اجابه عنه .

ثم الح الفضل بن الربيع على محمد في خلع المامون ، وقوي عزمه فيه ، واعانه عليه علي بن عيسى ، فبايع لابنه موسى بالعهد بعده ، وسماه : « الناطق بالحق » ، وخلع المامون والقاسم ، وكتب الفضل بن الربيع عنه بذلك ، وبالنهي عن الدعاء لهما على المنابر ، واحضر عبد الله بن محمد احد الحجبة ، وسأله التلطف في أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما في بيت الله الحرام بالبيعة ، ففعل ذلك . وسرقهما وصار بهما اليه ، فدفعهما الفضل الى محمد ، فمزقهما .

وسارت الركبان في الآفاق بغدر محمد ، وبحسن سيرة المامون ، فاستوحش الناس منه ، وانحرفوا عنه ، وسكنوا الى المامون ، ومالوا اليه.

وكان محمد لما اجمع على خلع المامون شاور يحيى بن سليمان في ذلك ، فقال له : وكيف بذلك يا امير المؤمنين مع ما وكده الرشيد من بيعته ، وتوثق في عهده عند خاصته وعامته ؟ فقال له محمد : ان ذلك كان فلتة وخطأ من رأي الرشيد ، شبه عليه فيه جعفر بن يحيى بسحره ، فغرس لنا غرس مكروه ، لا ينفعنا ما نحن فيه الا بقطعه ، وانت رجل مهذار ، ولست بذي راي مصيب، والراي الى الشيخ الموفق ، والوزير الناصح ، قم فالحق بمدادك واقلامك ، يعني محمد بهذا القول الفضل بن الربيع .

وكان بكر بن المعتمر يعاون الفضل على رأيه عند محمد في مساءة المأمون . قال يوسف بن محمد شاعر طاهر بن الحسين ابياتا منها :

اضاع الخلافة غش الوزير	وحمق الامير وجهل المشير
فبكر مشير وفضل وزير	يريدان ما فيه حتف الامير
ومن يؤثر الفسق يخذل به	وتنفر عنه بنات الضمير
لواط الخليفة اعجوبة	واعجب منه بغاء الوزير
فهذا يدوس وهذا يداس	كذاك لعمري اختلاف الامور
فلو يستعفان هذا بذا	لكانا بعرضة امر ستير

مقتل ابن عيسى : وجهز محمد علي بن عيسى في سنة خمس وتسعين ومئة ، فكان من امره ما كان ، فلما ورد خبر قتله ، اشار الفضل بن الربيع على محمد يقبض ضياع المأمون وماله ببغداد والسواد ، فأذن له في ذلك ، ففعل .

ولما قتل طاهر بن الحسين علي بن عيسى ، دعا بكاتبه ليكتب الى الفضل بن سهل بخبره ، فلم يكن في الكاتب فضل ، لافراط الجزع ، وشدة الزمع بما شاهد ، فكتب طاهر الى الفضل بيده ، وكانت عادته ان يخاطبه بالامرة ، فاسقط ذلك وكتب : اطال الله بقاءك ، وكبت أعداءك ، وجعل من يشنؤك فداءك ، كتبت اليك وراس علي بن عيسى بين يدي ، وخاتمه في أصبعي ، وعسكره تحت يدي ، والحمد لله رب العالمين . فلما وصل الكتاب الى الفضل انكره ، حتى وقف على ما تضمن ، فقال : حق له ، ونهض فدخل على المأمون ، فسلم عليه بأمير المؤمنين .

وقيل : ان الخريطة سارت ، وبين الموضع وبين مرو نحو من مئتين وخمسين فرسخا ، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الاحد ، فوردت يوم الاحد .

ثم امر محمد الفضل بعد قتل علي بن عيسى بتجهيز عبد الرحمن الابناوي ، فجهزه وشخص ، وكان من أمره وقتله ما كان .

وقائع واحداث : ثم دعا الفضل بن الربيع بأسد بن يزيد بن مزيد ، قال: فدخلت عليه وهو في صحن داره ، وهو يقول : ينام نوم الظربان ، وينتبه

انتباه الذئب ، همه بطنه ، لا ينكر زوال نعمة ، ولا يروي في امضاء رأي ، قد شغله كأسه ولهوه عن مصلحته ، والايام توضع في هلاكه . ثم اقبل علي ، فقال لي : انما نحن وانت يا أبا الحارث شعب من اصل ، ان قوي قوينا ، وان ضعف ضعفنا ، وان هذا الرجل قد القي بيده القاء الامة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويخلد الى الرؤيا ، وهو يتوقع الظفر ، ويتمنى عقب الايام ، والحتف أسرع اليه من السيل الى قيعان الرمل ، وقد خشيت والله ان نهلك لهلاكه ، ونعطب بعطبه ، وقد فزعت اليك في لقاء هذا الرجل لامرين ، احدهما : صدق طاعتك ، وفضل نصيحتك ، والثاني : يمن نقيبتك ، وشدة بأسك ، والاقتصاد رأس النصيحة . فاشتط عليه أسد فيما التمسه من الاموال ، والعتاد ، والرجال ، والسلاح ، فصار به الى محمد ، وعرفه ذلك ، فغضب ، وأمر بحبسه .

وكان الفضل بن الربيع يقول :

مسألة الملوك عن حالهم من تحية النوكي ، فاذا أردت ان تقول : كيف اصبح الامير ؟ فقل : صبح الله الامير بالكرامة ، واذا أردت ان تقول : كيف يجد الامير نفسه ؟ فقل : انزل الله على الامير الشفاء والرحمة فان المسألة توجب الجواب ، فان لم يجبك اشتد عليك ، وان أجابك اشتد عليه .

وأهدى أبو العتاهية الى الفضل نعلا ، وكتب اليه :

نعل بعثت بها لتلبسها — تسعى بها قدم الى المجد
لو كنت اقدر ان اشركها — خدي جعلت شراكها خدي

وكان ابو نواس ينادم محمدا ، ويخص به ، وله فيه اشعار كثيرة ، ومعه اخبار مشهورة ، فقال الفضل بن سهل يزري على محمد به ، ويعيبه باحتماله آياه : وكيف لا يستحل قتال محمد وشاعره يقول في مجلسه ما لا ينكره عليه ؟ وهو :

الا سقني خمرا وقل لي هي الخمر — ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر

فبلغ ذلك محمدا ، فأمر باحضار ابي نواس ، فأحضره وعنده سليمان ابن أبي جعفر ، وقد كان اتصل بمحمد عنه انه قال :

وقد زادني تيها على الناس أنني — اراني اغناهم وان كنت ذا عسر
ولو لم انل فضلا لكانت صيانتي — فمي عن جميع الناس حسبي من الفخر
فلا يطمعن في ذاك مني طامع — ولا صاحب التاج المحجب في القصر

وهذه الابيات من قصيدة له جيدة ، وأولها :

ومستعبـــد اخوانــه بثــــراثه لبست له كبرا ابـــر على الكبـــر

وبلغه انه قال :

اسقنيهـــا يـــا ذفافــــه مـــزة الطعـــــم سلافــــة
ذل عنــــدي مـــن جفــاها لرجـــاء ومخــــــافة
مثــل ما ذلــــت وضاعــت بعـــد هـــارون الخلافـــة

فلما دخل عليه ، قال له : يا عاض بظر امه ! شحمة العاهرة ، وشتمه اقبح شتم ، انت تتكسب بشعرك أوساخ أيدي جميع الناس ، ثم تقول :

● ولا صاحب التاج المحجب في القصر ●

فقال له سليمان بن ابي جعفر : وهو والله يا امير المؤمنين من كبـــار الثنوية ، فقال له : ايشهد عليه بهذا احد ؟ فاستشهد سليمـــان جماعة ، شهد بعضهم انه وضع قدحا في يوم مطـــر ، حتى قطر فيه من المطر قطـــر كثير ، وقال بعد شربه اياه : يزعمون ان مع كل قطرة ملكا ، فكم تراني قد شربت من الملائكة ؟ فوجه به الى الفضل بن الربيع ، وامره بحبسه مع قوم كانوا يتهمون بالزندقة ، فقال في حبسه ابياتا منها :

لا العذر يقبل لي فتقبـــل توبتي فيهم ولا يرضون حلـــف يميني
اما الامين فلست ارجـــو دفعه عنى فمن لي اليـــوم بالمامون ؟

فمات قبل دخول المامون مدينة السلام .

وكان للفضل بن الربيع خال يستعرض اهل السجـــون ويتعهدهم ، فدخل الى الحبس الذي هو فيه ، ولم يكن يعرفه ، فقال له : يا هذا ، انت زنديق ، فقال له ابو نواس : معاذ الله ، فقال له : فلعلك ممن يعبد الكبش ؟ فقال له : انا آكل الكبش بصوفه ، فقال له : فلعلك تعبد الشمس ؟ فقـــال له : اني اتجنب القعود فيها بغضا لها ، فقال : فباي جرم حبست ؟ فقال : لاني أنام خلف الناس ، فقال له : ليس الامر كذلك ، قال : والله لقد صدقتك؟ فجاء الى الفضل ، فقال له : يا هذا ، لا تحسنون جوار نعـــم الله بحبس الناس بغير جرم ، فقال : وما ذاك ؟ فخبره الخبر ، فضحك منه ، وعـــرف محمدا الخبر ، وشفع اليه فيه ، فأمر باستحلافه أن لا يشرب ولا يفسق ، ففعل ذلك ، فاطلقه ، فقال فيه :

ما من يد في النـــاس واحـــدة كيد أبـــو العبـــاس أولاهــــا
نام الكـــرام على مضاجعهـــم وسرى الى نفسي فاحيـــاها

قد كنت خفتــــك ثم آمننـــي   من ان أخافـــك خوفـــك الله
فعفوت عنـــي عفو مقتـــدر   وجبت لـــه نقـــم فالغـــاها

وله ايضا فيه ، وفي توبته :

أنت يابن الربيع علمتني الخير وعودتنيه والخير عادة

وعتب الفضل بن الربيع على ابراهيم بن شبابة الشاعـــر في شيء فكتـــب اليه :

ان كان جرمي قد احاط بحرمتي   فالحظ بجرمي عفـــوك المأمولا
هبني ظلمت ، وما ظلمت ، بلى ظلمت ، اقر كي يزداد مجدك طولا

ووجدت بخط ميمون بن هارون : حدثني اسحاق بن ابراهيـــم ، قال : حدثني الفضل بن الربيع ، قال :

كنت أقرأ كتابا ، والى جانبي رجل من اهل المدينة ، فجعل ينظر في كتابي ، فقلت له : ما تصنع ؟ ويحك ! فقال : حدثت انه من اطلع في كتاب اخيه بغير امره ، فانما يطلع في النار ، ولنا اشياخ قد تقدموا ، فقلت : لعلي ان ارى بعضـهم .

ولما افضت الخلافة الى محمد الامين أطلق محمدا وموسى ابني يحيى ابن خالد من الحبس بالرقة ، ووصل جماعة آل برمك : الرجال والنساء ، واحسن اليهم ، ولم يتصرفوا معه ، فلما ضاق امر محمد ، وحبسه الحسين ابن علي بن عيسى ، واحاط هرثمة بالمدينة ، شخص العباس بن الفضـــل ابن يحيى ، واحمد بن محمد بن يحيى الى الفضل بن سهل ، فلما وصلا اليه برهما ، واكرمهما اشد اكرام ، واوصلهما الى المأمون ، ولم يزل قائما حتى قبلا يده ، والمأمون يقول له : اجلس يا ذا الرياستين ولا تقم ، فيقول : يا امير المؤمنين ، ان لهما عليّ حقا ارجو ان اقضيـــه بك ، ثم امر بالخلع عليهمـــا وحملانهما ، واجرى عليهما انزالا واسعة ، وكتب الى محمد بن يحيى يستدعي مصيره اليه ، ويشير عليه بالدخول في جملة المأمون ، فلما وصل الكتاب الى محمد بن يحيى ، بادر بالخروج الى طاهر ، لمكانه من اصطناع الفضل بـــن سهل ، فبره طاهر وأكرمه ، واقام موسى بن يحيى مع محمد ، وفارق الكتابة الى السيف ، فناصح له ، وقاتل دونه ، وبذل نفسه في الدفع عنه ، ولـــم يفارقه حتى قتل ، وانضم الى هرثمة ، واجتمع معه على حرب ابي السرايا ، وخاض تلك الفتن المشهورة ، فلما ورد المأمون العـــراق صار اليه ، فبره واكرمه وقدمه ، وانبسط اليه في المشورة والراي ، حتى غلب عليه .

وكان الامين لاعب الفضل بن الربيع بالنرد ، ورهنـــا خواتيمهما على شيء اتفقا عليه ، على أن يحضره المقمور منهما ، فقمر محمد الفضـــل ، فصار خاتمه في يده ، وكان نقش فصه : « الفضل بن الربيع » ، ونهض ليبول

وهو معه ، فدعا بنقاش ، فكتب تحت السطر الذي فيه الكتاب في القص : « ينكح » ، فصار يقرا : « الفضل بن الربيع ينكح » ، ثم عاد الى مجلسه ، واحضر الفضل فكاك الخاتم ، فدفعه اليه ، فلما كان بعد عشرة ايام ، دعا بالفضل ، وعاود ملاعبته بالنرد ، واخذ الخاتم منه ، فتأمله ، وسأله عن نقشه ، فقال له : اسمي واسم ابي ، فقال له : ارى عليه شيئا آخر سوى ذلك ، ودفع الخاتم اليه ، فتأمله ، فلما راى ما احدث في خاتمه ، لم يتمالك ان قال : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، هذا خاتم وزيرك ، يختم به على جميع الآفاق منذ عشرة ايام ، وممن كاتبته اخوك الذي يظهر انك لست موضعا للخلافة ، ويجمع خلعك ، والله ما بقيت من هتك نفسك عند اوليائك ، والمنافقين لك ، والمطرحين ببغضك شيئا الا وقد اتيته ، وما يضر ذلك الفضل ولا الربيع ، والله المستعان فما زاد محمد على الضحك شيئا .

وفي الفضل بن الربيع يقول اسماعيل القراطيسي :

لئن اخطأت في مدحيك ما اخطأت في منعي
لقد أحللت حاجاتي بسواد غير ذي زرع

وكان الفضل بن الربيع وعد زبير بن دحمان المقام عنده ، فدخل زبير الى اسحاق بن ابراهيم الموصلي ، فسأله ان يقيم عنده ، فقال له : انى قد وعدت ابا العباس الفضل بن الربيع بالمقام عنده ، فقال اسحاق :

أقم يا أبا العوام ويحك نشرب ونلهو مع اللاهين يوما ونطرب
اذا ما رأيت اليوم قد بان خيره فخذ بشكر واترك الفضل يغضب

فأقام عنده ، واخل بالفضل بن الربيع .

عبث الامين بالاعمال ونتائجه : وعزم الامين يوما على الاصطباح ، وأحضر ندماءه والمغنين ، وصفت الموائد ، فلما ابتدأ ليأكل ، دخل عليه اسماعيل بن صبيح ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا هو اليوم الذي وعدتني فيه أن تنظر في أعمال الخراج والضياع وجماعات العمال ، وقد اجتمعت علي اعمال ، منذ سنة لم تنظر في شيء منها ، ولم تأمر فيها ، وفي هذا دخول خلل في الاعمال ، فقال له محمد : ان اصطحابي لا يحول بيني وبين النظر ، وفي مجلسي من لا انقبض عنه ، من عمي وبني عمي واخوتي ، وهم اهل هذه النعمة ، التي يجب ان تحاط ، فأحضر ما تريد عرضه ، فاعرضه علي وانا اكل ، لاتقدم اليك فيه بما تحتاج اليه ، الى ان يرفع الطعام ، ثم اتم النظر فيما يبقى ، ولا أسمع سماعا او ابرم الباقي ، وافرغ منه . فحضر كتاب الدواوين بأكثر ما في دواوينهم ، واقبل اسماعيل بن صبيح يقرا عليهم ، ومحمد يأمر وينهي بأحسن امر ونهي واشده ، وربما شاور من حوله في

الشيء بعد الشيء ، وكلما وقع في شيء وضع بالقرب من اسماعيل ابن صبيح ، ورفعت آلموائد ، ودعا بالنبيذ ، وكان لا يشرب في القدح اقل من رطل واحد في تتميم العمل ، ثم دعا بخادم له ، فناجاه بشيء اسره اليه ، فمضى ثم عاد ، فلما رآه نهض واستنهض سليم بن علي ، وابراهيم بن المهدي ، فما مشوا عشر اذرع ، حتى أقبل جماعة من النفاطين ، فضربوا تلك الكتب والاعمال بالنار ، وكان الفضل بن الربيع حاضرا ، فلحق محمدا وقد شق ثوبه ، وهو يقول : الله والله أعدل من أن يرضى أن يكون مدبرا امور امة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، من هذه افعاله ! ومحمد يضحك ، ولا ينكر على الفضل قوله :

وفي اسماعيل بن صبيح يقول أبو نواس ويخاطب الامين :

الست امين الله سيفك نقمة	اذا ماق يوما من خلافك مائق
فكيف باسماعيل يسلم مثله	عليك ، ولم يسلم عليك منافق
أعيذك بالرحمن من شر كاتب	له قلم زان ، وآخر سارق

وفيه يقول أيضا :

خبز اسماعيل كالوشـ	ـى اذا ما انشق يرفى
ان رفاءك هذا	أحذق الامة كفا
عجبا من اثر الصنعـ	ـة فيه كيف تخفى !
أحكم الصنعة حتى	لا يرى مطعن اشفى
وله في الماء ايضا	فطنة أبدع ظرفا
يمزج المالح بالعذ	ب لكي يزداد ضعفا
وهو لا يشرب منه	مثل ما يشرب صرفا

وكان صبيح أبو اسماعيل مولى عتاقة لسالم الافطس ، ولما أعتق سالم الافطس صبيحا ، جعله قيما لمسجد حران ، وكان سالم الافطس مولى عتاقة لبني أمية .

وكان أبو الخطاب محمد بن الخطاب بن يزيد بن عبد الرحمن ، لسان الحسن بن سهل عند المأمون ، وخطيبه بحضرته بفضله ومعاذيره ، وكان قصد طاهر بن الحسين ، وطاهر بالجزيرة ، فاكرمه وبره ، وسرحه الى الفضل بن سهل ، فمر في طريقه بخالد بن يزيد بن متى الكاتب، وكان يتقلد الموصل من قبل طاهر بعد قتل المخلوع محمد الامين ، وقد شرع يزيد بن متى في قتال قوم من العرب بغير امر طاهر ، فانكر عليه ذلك ، ونفذ الى الحسن ابن سهل ، واتصل خبر قتال يزيد العرب بطاهر ، فوقع اليه :

اقذر بدنيا ينـــال المخطئون بها حظ المصيبين والمغـــرور مغرور

وصـــرفه .

ولما راى الفضل بن الربيع قوة امر المأمون ، واتصال ضعف محمـــد وتخليطه ، وانفلال الناس عنه ، وتمزق الاموال التي كانت في يده ، استتـــر في رجب من سنة ست وتسعين ومئة ، وتمم استتاره الى أن غلب على بغداد محمد بن ابي خالد ، وحارب الحسن بن سهل ، وغلبه على ما بينها وبيـــن واسط ، فاستأمنه الفضل بن الربيع وظهر ، ولم يزل ظاهرا الى أن غلـــب ابراهيم بن المهدي على الامر ، وتسمى بالخلافة ، فصار اليه ، فرسمـــه بحجابته ، فكان فتيان آل الربيع يقومون بها ، ليرفع الفضل عنها ، ثم اختل أمر ابراهيم ، واتصلت الاخبار باجماع المأمون ورود العراق ، فعاد الفضل الى استتاره .

وتقلد موسى بن أبي الزرقاء فـــارس ، فاستكتب علي بن أبي كبيـــر الكوفي ، وكان شاعرا ظريفا صاحب شراب ولهو ، فشرط عليه الا يأتيـــه في يوم جمعة ، فاحتاج موسى الى حضوره في يوم الجمعة الأمر طرقه ، فوجه اليه فأحضره ، فحضر وهو شارب ، فقال له : ويحك ! ماذا تشرب ؟ قال : اشرب ما احل الله ، مما حرم الله . فهل شربت ــ اصلحك الله ــ شرابا قط ، حتى لانت اعطافك ، وسخت نفسك ، وحبب اليك جلساؤك ؟ قال : لا والله ، قال : فهل خرجت في صيد فبادرت اصحابك الى طريدتك ، ووثبت عن دابتك ، وتوليت ذبحها بيدك ؟ قال : لا والله ، قال : فهل عشقت حتى راسلت وكاتبت ، ووعدت وتوقعت ؟ قال : لا والله ، قال : فوالله ما ذقت لذة العيش قط ، ولا تفلح ابدا .

ولما استتر الفضل بن الربيع صار زهير بن المسيب الى داره فـــي شارع الميدان ، فسكنها رعاية لحرمته ، ولحقوق كانت بينه وبين الفضل ، واراد بها فعله حفظها عليه . فلما صار فيها اقام في حجرة منها كانت تعرف بدار الذهب ، واقر حرم الفضل وخدمه واسبابه في مواضعهم منها ، ودعـــا بسليم خادم الفضل ، فقال له : اني انما سكنت هذه الدار ، لكيلا يطمـــع فيها أحد ، ولا يجترىء على دخولهـــا ، ولأصون من فيها من اسبـــاب أبي العباس ، ودفع اليه عشرة آلاف دينـــار ، وقال : انفقها على عيال ابـــي العباس ، فانما أنا حافظ لهم ولهذه الدار ، فشكر الفضل له ذلك ، وامـــر برد الدنانير عليه ، فلما ورد المأمون العراق أسكنها القاســـم بن الرشيد ، فلم يزل فيها الى أن ظهر الفضل ، فنقله عنها ، وسلمها اليه .

أيام المأمون

ولما قتل طاهر محمدا المخلوع ، انفذ راسه الى المأمون ، فقال الفضل ابن سهل : ما فعل بنا طاهر ؟ سل علينا سيوف الناس والسنتهم ، امرناه ان يبعث به اسيرا ، فبعث به عقيرا !.

وذكر علي بن ابي سعيد انه راى راس محمد وقد ادخله ذو الرياستين على ترس بيده الى المأمون ، فلما رآه سجد ، ثم أمره المأمون أن ينشىء كتابا عن طاهر بخبره ، ليقراه على الناس ، فكتب عدة كتب لم يرضها واستطالها ، فكتب أحمد بن يوسف في ذلك كتابا نسخته : « اما بعد ، فان المخلوع وان كان قسيم امير المؤمنين في النسب واللحمة ، فقد فرق حكم الكتاب والسنة بينه وبينه في الولاية والحرمة ، لمفارقته عصمة الدين ، وخروجه من الامر الجامع للمسلمين ، يقول الله عز وجل فيما اقتص علينا من نبأ نوح : « يا نوح انه ليس من اهلك ، انه عمل غير صالح » ، ولا صلة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت القطيعة في ذات الله ، وكتبت الى امير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع ، ورداه رداء نكثه ، وأحصد لامير المؤمنين أمره ، وانجز له ما كان ينتظره من وعده ، فالحمد لله الراجع الى أمير المؤمنين معلوم حقه ، الكائد له من ختر عهده ، ونقض عقده ، حتى رد الله به الالفة بعد فرقتها ، واحيا به الاعلام بعد دروسها ، وجمع به الامة بعد فرقتها ، والسلام » .

فلما عرض النسخة على ذي الرياستين رجع نظره فيها ، ثم قال لاحمد

ابن يوسف : ما انصفناك ! وأمر له بصلات وكسى وكراع وغير ذلك ، وقال له : اذا كان غدا فاقعد في الديوان ، وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتب الى الآفاق .

ولما استقامت الامور للمأمون رد التدبير الى ذي الرياستين ، وأمضاها على رايه ، وكتب الى طاهر وهرثمة بتسليم ما في ايديهم من العمل الى علي بن أبي سعيد ، أبن خالة الفضل بن سهل ، وكان يعرف بذي القلمين .

وكان علي بن أبي سعيد كريما متكبرا ، قليل الضحك ، وذكر الاصمعي انه اجتهد في ان يضحكه فما ضحك الا مرة متبسما ، قال : ولقد اضحكت الرشيد ويحيى بن خالد فمن دونهما . قال : وامر لي مرة بطيلسان ، فلما القاه الغلام علي ، لزمت الذي كان علي بيدي جميعا ، فقال لغلامه : البسه فوقه ، فالقاه فوق طيلساني ، فمسسته بيدي ، فقال لي : كأنك تسترقه ؟ قلت : نعم . فامر لي بطيلسان أصفق منه ، فلما ذهب الغلام ليلقيه علي ، امسكت الطيلسانين الاولين بيدي ، فقال للغلام : البسه فوقهما ، فالقاه علي ، فقمت وعلي ثلاثة طيالسة ، فتبسم حينئذ ، وامر لي بعشرة آلاف درهم .

ثم قلد المأمون الحسن بن سهل خلافته ، وانفذه الى العراق ، فلما خرج من حضرته خرج معه مودعا له ، فلما بلغ غاية المشيع قال له : اذكر يا ابا محمد حاجة ان كانت لك ، فقال له : نعم يا امير المؤمنين ، أحفظ علي من قلبك ما لا أستطيع حفظه الا بك .

ولقب المأمون الفضل بن سهل « ذا الرياستين » . ومعنى ذلك رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وعقد له على سنان ذي شعبتين ، واعطاه مع العقد علما قد كتب عليه لقبه ، فحمل العقد علي بن هشام ، وحمل العلم نعيم بن حازم .

الفضل والامارة : وكان الفضل يؤمر مع الوزارة ، وهو أول وزير لقب ، وأول وزير اجتمع له اللقب والتأمير .

وذكر عيسى بن محمد بن حميد أنه راى توقيعا بخط المأمون للفضل ابن سهل :

« اغنيت يا فضل بن سهل بمعاونتك اياي على طاعة الله ، واقامة سلطاني ، فرايت ان اغنيك ، وسبقت الناس من الحاضر كان لي ، والغائب لي ، والغائب كان عني ، فأحببت أن أسبق الى الكتاب لك بخطي ، بما رأيته على نفسي ، وأنا أسأل الله تمامه ، فان حولي وقوتي ومقدرتي وقبضي وبسطي به ، لا شريك له ، وقد اقطعتك السيب بأرض العراق ، على حيازة تميم مولى أمير المؤمنين ، عطاء لك ولعقبك ، لما انت عليه من النزاهة عن

أموال رعيتي ، ولما قمت به من حق الله وحقي ، فلم تأخذك في لومة لائم ، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره ، وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه ، ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت ما أمرتك به ، من العمل لله ولنبيه ، والقيام بصلاح دولة انت ولي بقيامها ، وجعلت ذلك كله لك بشهادة الله ، وجعلته لك كفيلا على عهدي . وكتبت بخطي سنة ست وتسعين ومئة .

وكان ذو الرياستين يقول لكتابه :

قاربوا بين الحروف ، لئلا يسافر البصر سفرا بعيدا في حروف قليلة .

قال الفضل بن مروان : قال لي المأمون :

جهدت بالفضل بن سهل الجهد كله أن أزوجه بعض بناتي ، فأبى ، وقال : لو صلبتني ما فعلته .

وكان الفضل بن سهل سجيا سريا ، نبيل النفس ، كثير الافضال ، يذهب مذاهب البرامكة في ذلك ، وكان غليظ العقوبة اذا عاقب ، مقدما اذا انكر ، حسن الرجوع اذا استعطف ، وكان حسن البلاغة ، مستقلا بما يحتاج اليه من حل محله .

وحكي أنه كان ربما انكر على بعض اصحابه شيئا ، فاذا تقرب اليه بخدمة ، أو بمناولة شيء ، أو بملازمة ، زال ما في نفسه .

وكان اذا ساله احد حاجة يقول : اكره ان اقول : نعم ، فأكون ضامنا ، أو اقول : لا ، فأكون مؤيسا ، ولكن ننظر ويسهل الله ، ولا ينصرف أحد من عنده الا وهو راض .

وكان مهذارا مكثارا ، يشير بيده اذا تكلم ، ويحب أن يتصل كلامه ، وكان يأخذ اللقمة بيده ويبدأ بكلام ، فلا يقطعه حتى تبرد .

وكان الفضل يقول :

عجبت لمن يرجو من فوقه ؛ كيف يمنع من دونه .

وكان يقول :

اذا اعطيت الرجل شيئا فقطعه عليه ، فانه لا يسألك حاجة حتى يستنفد ذلك ، ويقطع به دهرا .

ووقع الفضل الى خزيمة بن خازم :

« الامور بتمامها ، والاعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها ، والى الغاية جرى الجواد ، وهناك كشفت الخبرة قناع الشك ، فحمد السابق ، وذم الساقط » .

وكتب صاحب المقاطعة بهمذان الى الفضل يذكر أن كاتب المتولي للبريد بهذه الكورة ، ذكر أن صاحبه اقتطع مالا جليلا من مال السلطان ،

وأنه يصحح ذلك عليه ، وانه وكل به وبصاحبه ، ليصحح ما رفعه ، فوقع على كتابه :

قبول السعاية شر من السعاية ، لان السعاية دلالة ، والقبول اجازة ، ومن قبل ما نهي الله عنه ، كان بعيدا منه ، وحقيقا الا يقبل قوله ، فانف هذا الكاتب ، فانم لم يرع ما كان يجب أن يرعاه من حقوق صاحبه ، وحرمة خدمته .

وكان الفضل يبغض السعاة ويقصيهم ، واذا اتاه ساع قال له : ان صدقتنا ابغضناك ، وان كذبتنا عاقبناك ، وان استقلتنا أقلناك .

ويشبه هذا ما ذكر عن الوليد بن عبد الملك انه قال لمتنصح أتاه يستخليه :

ان كانت نصيحتك لنا فأظهرها ، وان كانت لغيرنا فلا حاجة بنا اليها ، فقال له : جار لي اخل ببعثه . فقال له : اما أنت فتخبرنا انك جار سوء ، فان شئت أن ننظر ، فان كنت صادقا أقصيناك ، وان كنت كاذبا عاقبناك ، وان شئت تاركناك ، فقال : بل تتاركني .

وكان الفضل قد حرم النبيذ ، وحظر شربه ، وامر بعقوبة شاربه .
قال ابو الحسن بن أبي عباد :

كان في جوارنا رجل من آل حماد البربري ، مشهور بالخسارة والفسق ، فأتلف ماله في هذا الباب ، حتى افلس ، فكان يقول لمجونه في مجلسه : زيدونا قحابا . فلما لم يبق له شيء أظهر الزهد رياء ، وأظهر رفض ما كان فيه ، وشخص الى ذي الرياستين ، فانصرف الينا وهو من أحسن الناس حالا في دينه وذات يده ، فسألته عن ذلك ، فقال : اتيت ذا الرياستين ، فأقمت ببابه على ما كنت اظهرته من الرياء ، فلم البث ان سعى بي اليه وكيل له : أنني متصنع . فدعاني ، فقال : يا هذا ، قد فعلت فعلا ان كان على صحة من نيتك ، فالحمد لله ، والا يكن ، فقد ينبغي أن تعرف مقدار الباطل من الحق ، قال : فنفعني كلامه ، فصححت التوبة ، ورزق الله منه فضلا كثيرا .

ولما استقام الامر للمأمون جلس مجلسا عاما ، فحمد الله ، وذكر ما أولاه ، وعدد نعمه ، في كلام طويل ، فقال له الفضل بن سهل : انه لم يكن

أحد مع امر الله ولزوم أدبه ، فأخلفه ما تقــدم الله به من وعده ، قــال : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ، فمتى كنت يا أمير المؤمنين موجبا شكره ، لم تجد خلفا فيما وعد من فضله وزيادته . فقال الحسن بن سـهل : مما حفظ يا أمير المؤمنين عن العالمين قولهم : لا تخافوا الله مع الاحسان ، على أنفسكـم ، وخافوا انفسكم على التقصير الموجب لحلول العقوبة بكم .

وكان يكتب لطاهر بن الحسين رجل يعرف بعيسى بن عبد الرحمن ، فأنفذه الى الفضل بن سهل ، وطاهر مقيم بالجزيرة ، والفضل بخراسان ، وقد كان الشغب الذي حد شبينهما ظهر ، فأنفذ طاهر عيسى هذا يظهــر الاعتذار ، ويستبقي مخاطبته اياه ، فورد عسكر المأمون بمرو ، وكثير ممــن بها من الوجوه عاتب على الفضل ، فحضره وبحضرته عبد الله بن مالــك الخزاعي ، وهو اشدهم عتبا ، فكلمه بكلام كثير ، اغلظ له به ، وعرض له بكل ما يكرهه ، ثم قال بعقبه : فلولا اني رسول مأمون ما قلت ما قلته ، فقال له الفضل : انما خشيت في تحمل مثل هذه الرسالة القتل ؟ فقال عيسى : ما شككت في القتل ، ولكني ميلت بين أن آبى على صاحبي تحملها ، وبيــن أن اقبلها ، فرايت أني ان لم اتحملها عجل لي القتل ، وحصلت لي مذمة المخالفة، وان تقبلتها كنت قد شكرت نعمته ، واطعت امره ، وعشت بينه وبين الامين أعزه الله المسافة التي عشتها ، ثم لعلي ان اكون قد وردت من فضل الأمير وعفوه وحلمه على ما أرجو الا ابعد عنه ، فقال له الفضل : لو اطعت فيك النصحاء لاسترحت منك ، ولم تكلمني في مجلس امير المؤمنين ودار الخلافــة بما كلمتني به ، فقال له عيسى : وما راي النصحاء اعز الله الامير ؟ فقــال له الفضل : أن كنت اضرب عنقك قبل أن تصل الي ، وارد راسك في مخــلاة الى صاحبك ، فأكون قد قطعت يده ولسانــه ، فقال له عيسى : انا يــده ولسانه لا والله لو أن صاحبي أخرج يده من مضـربه لوجد حولــه سبعين ، بل سبع مئة ، بل سبعة آلاف ، كلهم اغنى واجزا وأكفى مني ، ومن انا فيمن قد عضده الله به ، وأعطاه من كفاته . فبلغ هذا الكلام من الفضل كل مبلغ .

وكان عيسى كاتب طاهر لما دخل مجلس الفضل نزع قلنسوته ، وجعلها الى جانبه ، ثم فعل ذلك مرارا ، فقال نعيم بن حازم ليعقوب ابن عبد الله ، وكان يعقوب آلفا لعيسى : ان أبا العباس — يعني عيسى — اذا جلس في مجلس الامير — يعني الفضل — رفع قلنسوته عن رأسه ، وهذا استخفاف منه بالامير ، وقد انكره الناس ، وتكلموا فيه ، فأعلمه ذاك ، ليمسك عنــه فيما يستقبل ، فانه أن عاود دنوت منه ، ورددتها على راسه بعنف وانكار ، فقال يعقوب لعيســى ذلك ، فقال له : باي شيء رددت عليه ؟ قــال : قلت له : انه محرور ، ولعله قد استأذن الامير في ذلك ، ان كان لا يجهل ما يأتي

ويذر ، فقال : والله ما بي اني محرور ، وما استاذنت ، ولكني اريد ان يعلم الفضل أولا ؛ ثم من حوله ، أنه أهون علي وادق في عيني ما دام صاحبي — اعزه الله حيا — من هذه الشعرة — وقلع شعرة من عرف دابته — ومن فوق نعيم ، فضلا عن نعيم ، أشد تهيبا للاقدام علي بشيء انكره ، فلا يدخلك من قولهم شيء ، وعرّف نعيم بن حازم ما قلته .

وحكي أن المأمون قال للفضل بن سهل :

قد كان لأخي راي لو عمل به لظفر بنا ، فقال الفضل : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : لو كتب الى اهل خراسان وطبرستان ودنباوند أنه قد وهب لهم الخراج لسنة ، لم نخل نحن من احدى حالين : اما رددنا فعله ، ولم نلتفت اليه ، فعصانا اهل هذه البلدان ، وانفسدت نياتهم ، فانقطعوا عن معاونتنا ، واما قبلناه وانفذناه ، فلم نجد مالا نعطي منه من معنا ، وتفرق جندنا ، ووهى امرنا ، فقال الفضل : الحمد لله الذي ستر هذا الراي عنه وعن نصائحه .

ودخل القاسم بن يسار الكاتب على الفضل بن سهل عند تقلده الوزارة وتلقبه ، فأنشده :

يا أبا العباس انى ناصح	لك والنصح لذى الود كبير
لا تعدن ليوم صالح	ان اخوانك في الخير كثير
وليكن للشر ما أعددتهم	ان يوم الشر يوم قمطرير
هذه السوق التي أملتها	يا أبا العباس والعمر قصير

خلع المأمون وما تلاه من احداث : وكان ابراهيم بن المهدي يتقلد البصرة من قبل المأمون ، وكاتبه ابراهيم ابن نوح بن أبي نوح . وكان المأمون جد في تجديد العهد لعلي بن موسى ابن جعفر ، وتقدم الى الفضل بأخذ البيعة على الناس ، والكتاب الى الاقاليم في ابطال لبس السواد ، وكتب الفضل بن سهل الى الحسن يعلمه ذلك ، ويأمره بطرح لبس السواد ، وأن يلبس الخضرة ، ويجعل الاعلام والقلانس خضراً ، ويطالب الناس بذلك ، ويكاتب فيه جميع عماله . فكتب الحسن الى عيسى بن ابي خالد بذلك ، فدعا عيسى أهل بغداد ، وعرفهم ما كتب به الحسن ، فبعض اجاب ، وبعض امتنع ، ودب الهاشميون بعضهم الى بعض ، وخلعوا المأمون ، وعقدوا الامر

لابراهيم ابن ألمهدي في يوم الثلاثاء لخمس بقين من ذي الحجة سنة احدى ومئتين ، وكان القيم بأمره عيسى بن محمد بن ابي خالد ، فكان من أمره ما كان .

وكان المأمون قد قال للفضل :

ينبغي أن تحضر نعيم بن حازم ، فانه وجه من الوجوه ، وله سابقة وجلالة ورياسة ، فتناظره فيما أجمعناه من هذا الامر ، فأحضره الفضل بحضرة المأمون ، وعرفه بما عزم عليه ، ورغبه فيه ، وذكره ما يلزم من الانقياد له ، فأبى ذلك نعيم ، وذكر ما كان منه ، ومن سلفه في نصرة الدولة الهاشمية ، وما وصلوا اليه بها من العز والامن ، والثروة والجاه ، وما بلغوه فيها من الحماية ، وبذل المهجة ، ومقارعة الاعداء ، وانه لا يقبل الضيم، ولا يسمح بطاعة من كان يسفك دمه ، ويدفعه عما يلتمسه ، ويقارعه دونه . فكلمه الفضل في ذلك ، وخلط له لينا وغلظة . فقال له نعيم : انك انما تريد ان تزيل الملك عن بني العباس الى ولد علي ، ثم تحتال عليهم لا فتصير الملك كسرويا ، ولولا أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده ، وهي البياض ، الى الخضرة ، وهي لباس كسرى والمجوس ، ثم اقبل على المأمون فقال : الله الله يا أمير المؤمنين ، لا يخدعنك عن دينك وملكك ، فان اهل خراسان لا يجيبون الى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه ، فقال له المأمون : انصرف ، ولم يظهر له غضبا ، واقبل على الفضل ، فقال له : ما ترى ؟ قال : ارى أن يخرج هذا عن خراسان ، فلا خير في مقامه معنا ، فقال له : أفلا اقتله ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين ، انك قتلت بالامس هرثمة ، وقدره في الناس قدره ، واظهرت موته ، وقد تيقن الناس قتلك اياه ، وضربت عنق يحيى بن عامر صبرا ، وامرت بحمل عبد الله بن مالك ، وضربت استه كما يضرب الصبيان ، والخوف ان قتلت هذا ان يكون لأهل خراسان في أمره حركة ، ولكنا نوجهه في عدة قليلة ، ونأمره بمحاربة بن شكلة ، ونكتب الى كل عامل يجتاز به بترك ازاحة علله ، وقلة الالتفات اليه ، فقال : اني اكره ان يصير الى ابن شكلة ، فقال له : ذلك أهون علي في امره ، فقال له : افعل ، ففعل ذلك ، فصار نعيم بن حازم الى ابن شكلة ، ولم يزل معه الى أن استتر ابراهيم ، ثم ظفر به ، وصير به الى الحسن بن سهل . فذكر محمد بن الجهم ان نعيما أدخل حافيا حاسراً ، وقد كان الحسن جلس مجلسا عاما ، فلما وقف بين يديه اقبل يقول : ذنبي اعظم من السماء ، ذنبي اعظم من الهواء ، ذنبي اعظم من الماء ! فقال له الحسن : على رسلك ، فقد تقدمت

منك طاعة ، وكان آخر امرك الى توبة ، وليس للذنب بينهما مذهب ، وما ذنبك في الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين عنك في العفو ، وقد أقالك الله ، وعفا عنك .

وحكى ثمامة :

ان الناس اجتمعوا جميعا : القواد ، والقضاة ، والفقهاء ، ووجوه العامة ، وجلس الفضل على فرش مرتفعة ، فلما وصلوا اليه قام فخطب ، فحمد الله ، واثنى عليه ، ثم ابتدا في الوقيعة في عبد الله بن مالك ، وذكر انه كان يدعي على الرشيد في حكايته دخول بيوت القيان ، وهو كاذب في ذلك ، وهو الذي كان ياتي المواخير والدساكر ، لا يرفع عن ذلك نفسه ، ولا يأنف من فجره ، ولا يصون قدره . قال ثمامة : ثم اقبل علي فقال : وان ابا معن ليعلم ذلك ، ويعرف ما اقول . فتركت تشييع قوله بالتصديق ، واطرقت الى الارض ، ودخلتني العصبية لعبد الله بن مالك ، للعربية أولا ، ثم لنفسه اخرى ، ثم عاد الى أن يهتر (١) عبد الله ، ويتوسع في الدعاوي عليه ، ثم أقبل علي وقال : وان ثمامة ليعلم ذلك ، فأطرقت وأمسكت ، وانما كان يريد مني ان أشيع كلامه بالتصديق . فلما راى اعراضي عن مساعدته ترك الاقبال علي ، واخذ في خطبته ، حتى فرغ من أربه في عبد الله بن مالك . فلما تفرق الناس وانصرفت علمت أني قد وقعت ، وتعرضت لموجدة الفضل ، وهو الوزير ، وحالي عنده حالي ، فلما وصلت الى منزلي جاءني بعض اخواني ، ممن كان في ناحية الفضل ، فأخبرني أن يحيى بن عبد الله وغيره قالوا : ماذا صنعت يا أبا معن ؟ يخاطبك فتعرض عنه مرة بعد اخرى ؟ قال فقلت : أنا والله أحق بالموجدة عليه ، اعزه الله ، لأنه قام في مثل ذلك المجمع ، وقد حضره كل شريف ومشروف ، ولم يستشهد بي في خطبته ، وما اجراه من كلامه ، الا في موضع ريبة ، أو ذكر دسكرة ، أو منزل مقين أو مقينة ، والله ما أقدر أن أشهد بذلك الا ان اكون للقوم تاليا . قال : صدقت ، والله يا ابا معن ، بئس الموضع وضعك ! ورجع اليه بكلامي . فقال : صدق والله ، ثمامة أحق بالمعتبة منا عليه ، واندفعت عني موجدته ، وما كنت أردت الا ما دخلني من الحمية لعبد الله بن مالك .

---

(١) يهتره : يمزق عرضه .

وكان سبب ضرب المأمون عبد الله بن مالك ، على ما حكاه فرج السلامي ، قال :

حضرت يوما المأمون بخراسان ، وقد جلس في ايوانه ، وأسبل سترا رقيقا في وجهه ، وأمر باحضار قاضي خراسان ، فأحضر ، واذن له ، واجلس في مجلس أمر به ، فتقدم الفضل بن سهل مستعديا على عبد الله ابن مالك ، فقال القاضي للفضل : ما تدعي ؟ قال : شتم أمي ، قال : وامك باقية ؟ قال : نعم ، قال : فالحق لها ان كنت صادقا ، فلتحضر وتطالب بحقها ، أو توكلك، ويشهد عندي شاهدان أعرفهما بتوكيلها اياك بطلب حقها . فنهض الفضل عن مجلسه ، ثم عاد بهارون بن نعيم والرستمي ، فشهدا عنده ان أمه قد وكلته بطلب حقها . فقال القاضي لعبد الله بن مالك : ما تقول ؟ فأنكر ما ادعاه الفضل عليه ، فقال للفضل : الك بينة ؟ قال : نعم ، ونهض من مجلسه ، ثم عاد ومعه هارون والرستمي ، فشهدا له بما أدعى على عبد الله فقال له الفضل : خذ لي بحقي ، فقال له القاضي : ليس بمثل شهادة هذين تباح ظهور المسلمين ، فاغتاظ الفضل من قوله ، وصاح المأمون من وراء الستر : احكم له بشهادتهما . فقال : أما انا فما أبيح ظهر رجل مسلم بشهادة هذين ، ولا احكم بقولهما ، وانت الامام ، ان رأيت ان تحكم له فافعل . فأمر المأمون بالقاضي فسحب حتى اخرج من الدار ، ثم امر بعبد الله بن مالك فحمل على ظهر رجل ، وأمر بضربه . وصار القاضي الى منزله ، ولم يعاود القضاء ، وامتنع ، فولى المأمون غيره .

قال هارون اليتيم :

حضرت هرثمة بن أعين ، وقد قدم مرو الى المامون مغاضبا لذي الرياستين ، وكان ذو الرياستين يجلس على كرسي مجنح ، ويحمل فيه اذا اراد الدخول على المامون ، فلا يزال يحمل حتى تقع عين المأمون عليه ، فاذا وقعت وضع الكرسي ، ونزل عنه ، فمشى ، وحمل الكرسي ، حتى يوضع بين يدي المامون ، ثم يسلم ذو الرياستين ، ويعود فيقعد عليه ، وكان فيمن يحمل الكرسي سعيد بن مسلم ، ويحيى بن معاذ ، قال : وانما ذهب ذو الرياستين في ذلك الى مذهب الاكاسرة ، فان وزيرا من وزرائها كان يحمل في مثل ذلك الكرسي ، ويقعد بين أيديها عليه ، ويتولى حمله اثنا عشر رجلا من أولاد الملوك ، فدخل هرثمة في أصحابه دار المامون ، فوجد ذا الرياستين جالسا على الكرسي في الدار ، والمامون في دار اخرى ، فلما انتهى الى

موضعه قعد ، ولم يسلم على ذي الرياستين ، وفي يدي ذي الرياستين كتاب يكتبه ، وهو مقبل عليه ، فلما فرغ منه التفت الى هرثمة ، فقال : مرحبا واهلا وسهلا يا ابا حاتم ، اسعدك الله بمقدمك ، وعظم بركته عليك ، فلم يرد عليه هرثمة شيئا ، ثم قال : اني قد عرفت أمير المؤمنين — اعزه الله — خبرك وان ما حملت نفسك عليه من الدخول بغير اذن لغير معصية منك ، وصرفت ذلك الى احسن الجهات ، فقبل ذلك ، ورجع عما سبق الى قلبه منه ، فلم يكلمه هرثمة . ثم قام ذو الرياستين ، فدخل الى المأمون ، ثم خرج وقال : يا ابا حاتم ، قد عرفت أمير المؤمنين مكانك ، والحال التي انت عليها من العلة ، وانه لا يمكنك الوصول اليه الا على الحال التي وصلت عليها الينا ، فلم يكلمه ، ثم اذن له المأمون ، فدخل عليه ، فبره واقبل عليه ، وأمر بأن يطرح له كرسي الى جانبه ، واقبل عليه بوجهه يحدثه ويسائله ، ويدعوه بكنيته ، ودخل ذو الرياستين ، فطرح كرسيه ، وقعد عليه . قال : فقال المامون : يا ابا حاتم ، ما كان لتجشمك هذا السفر مع علتك معنى ، فقال : بلى ، يا امير المؤمنين ، تجشمته لأقضي حق الله علي في طاعتك ، وانبهك على امرك ، واقول بالتنصح لك ، فقال : يا أبا حاتم ، ليست بك حاجة الى هذا وانت تعب ، فانصرف الى منزلك ، قال : كلا ، يا امير المؤمنين ، ما تجشمت طول السفر لأنصرف الى منزلي ، قال : بلى ، يا أبا حاتم ، أحب أن تنصرف الى منزلك ، وتدع ذكر ما لا نحتاج اليه ، وما انت عنه غني ، قال : لا ، يا أمير المؤمنين ، او اقضي الحق علي في نصحك ، لأني لا آمن أن يحدث علي في هذه الساعة حادثة ، فألقى ربي مقصرا في حق امامي ، ثم التفت وقال : الحمد لله الذي لم يمتني حتى رأيت هذا المجوسي — يعني ذا الرياستين — في هذا المجلس ، على كرسي ، ثم قال : يا أمير المؤمنين : ما لمسرور وسلام يحبسان بغير ذنب ، ويأخذ هذا المجوسي اموالهما وامتعتهما فيبيعها ويمزقها ! قال له : يا هرثمة ، وترك الكنية ، امنعك عن ذكر ما لا نحتاج اليه ، وغضب المامون ، فقال : لا والله ، او يدفع الينا هذا المجوسي، فننزل به ما يستحقه ، فقال له ذو الرياستين : وما انت وهذا يا علج !؟ خذوا برجله وجروه ، فتبادر الناس الى هرثمة ، واخذوا برجله ، وجروه من بين يدي المامون ، وحبس ثمانية ايام ، وقتل ، ثم اخرج في اليوم الثامن ميتا في لبادة .

قال :

ودخل على المامون محمد بن سعيد بن عامر احد قواد هرثمة ، فقال :

السلام عليك يا أمير المنافقين ، فوثب اليه ذو الرياستين فضربه بسيفه حتى قتله . وكان فيمن حضر مجلس ذي الرياستين قبل دخول هرثمة الى المأمون ، أحمد بن ابي خالد ، فقام وقال : يا أيها الامير – يعني ذا الرياستين – ان سيوفنا قد ظمئت الى دم هذا العاصي الخائن الخانع ، وبسط لسانه في هرثمة ، ونال منه ايضا بحضرة المأمون .

ولما دخل الرستمي على الفضل بن سهل بعد معصيته ، قال له الفضل : ان كنا نرى العفو عمن لم يتقدم بحسنة في طاعتنا ، ولم يأل جهدا في مخالفتنا ، فأنت بالعفو أولى ، لتقدم طاعتك ، وانك لم تغرق في مخالفتك ، ولعل حادث ذنبك يذهب طرفا من دالتك ، ويحدث زيادة في حبك ومناصحتك.

حدّث الحسن بن سهل ، قال : حدثني : عبد الله بن بشر ، قرابة الفضل ، وكان يخصه ويؤنسه :

ان الفضل كان اذا دخل من السيب الى مدينة السلام لحوائجه ، نزل على رجل فامي ، يقال له خذابوذ ، وكان يخدمه هو وزوجته وولده ، ويقوم بحوائجه ، وانه مكث بذلك زمانا ، ثم تهيا من امر الفضل ما تهيأ ، وتغيرت حال الفامي ، وتنكر الزمان له ، فذكر الفضل وما صار اليه ، ومكانه بخراسان ، فتحمل المشقة في قصده ، على ظلع وتمحل لنفقته ، فقصد عبد الله بن بشر . قال عبد الله : فلما رايته سررت به ، وسالته عن حاله ، وانكرت عليه تأخره ، مع حرمته وحقوقه ، وأمرت له بثياب ، واصلحت شأنه ، وكان ذلك بعقب ورود فتح بغداد ، وابتداء صلاح الامور وانتظامها، فدخلت على الفضل وقد دعا بطعامه ، وحضر مؤاكلوه ، من اهله وجلسائه، قال : فلما ابتدأ بالاكل قلت : أليس تعرف الشيخ الفامي الذي كنا ننزل عليه ببغداد ؟ قال لي : سبحان الله ! تقول لي : تعرفه ! انما ينبغي ان تسألني عن اسم امراته وصبيانه ، وكيف يمكنني أن أنساه وله من الحق علينا ما قد علمته ! وكيف ذكرته البائس ؟ أظن انسانا أخبرك بموته ؟ فقلت له : كلا ، بل هو والله في منزلي . فلما سمع كلامي استطير فرحا ، ثم قال : جيئوني به الساعة ، ثم رفع يده ، وقال : لا نأكل والله لقمة حتى تجيء به . قال : فحين نظر اليه ، تطاول له ، وقال : أبا فلان ! واوسع فيما بينه وبينه ، ثم اقبل عليه اقباله على أخ شقيق ، ثم قال له : يا هذا ، ما حبسك عنا طول هذه المدة ؟ فاعتذر اليه ، وذكر محنا اتت عليه ؟ ثم اقبل يسأله عن واحدة واحدة من بناته ، وعن كل شيء كان يعهده ؟ فقال : ما بقي لي بعدك ولد ولا

أهل ولا مال . ولا تحملت اليك الا ببيع شيء من أثاث بقــي لي ، فاستتم غداءه ، وهو كالمشــغول عنه ، فرحا بخذابوذ ، ثم أمر له بثياب من ثيابه .

قال : وكان التجار ببغداد قد انفذوا وكلاءهم ورسلهم الى الفضل بن سهل ، ليناظروه عنهم في غلات السواد ، وأعطوه عطايا لم يجبهــم اليها ، فقال لي : قد علمت ما دار اليوم بيني وبين وكلاء تجار السواد ، وأني تأبيت قبول ما بذلوه ، فأحضرهم . وامض البيع لهم ، على أن لخذابوذ معهم شركة في البيع . قال : ففعلت ذلك ، فقال لخذابوذ : كأني بك الآن وقد خرجــت اليهم الساعة ، فهولوا عليك ، وقالوا : نحتاج الى انفاذ وكلائك معنا ، وأن تسلفهم ، وتطلق لهم نفقات ، ويبذلون لك ربحك في سهمك مئة الف درهم ، فلا تقبل منهم أقل من خمسين الف دينــار ، قال له : نعم ، وخرج وهــم ينتظرونه ، فقالوا له : ما خبرهم به الفضــل ، ومضوا في السوم الـــى ان اجابوه الى خمسين الف دينار ، ودفعوا اليه المال من وقته ، ومضوا بكتب التسليم ، ودخل خذابوذ يشكر الفضل ، فأنكر ذلك وأكبره ، وأعلمه انه ان تنازل له عن شطر ملكه كان حقيقا به ، لمنزلته عنده . واقام خذابوذ لا يفارق الفضل بن سهل ، ولايأكل ولا يشرب الا معه .

وحدثني عبد الله الانباري ، عن أبي الفتح قال :

كنت في دار ذي الرياستين (1) .

وفي الفضل يقول التميمي الشاعر ، وهو عبد الله بن ايوب :

لعمرك ما الاشراف في كل بلدة وان عظموا الا لفضــل صنائع

ترى عظماء الناس للفضل خشعا اذا ما دنا والفضل لله خاشع

---

(1) لم يمكن قراءة بقية الخبر في الاصل .

فهــرس الاعــلام

ـ أ ـ

— ب —

ت — ث

— ج —

— ح —

— خ —

ع - غ

ف ـ ق

ك ـ ل

ـ م ـ

ـ ن ـ

هـ ـ و

فهـــرست

الصفحة	الموضـــوع
٥	— تقـــديم
٨	— مقدمة المؤلف
١٥	— أسماء من ثبت علي كتابة رسول الله (صلعم)
١٧	— أيام أبي بكر الصديق
١٧	— أيام عمر بن الخطاب
٢٠	— أيام عثمان بن عفان
٢١	— أيام علي بن ابي طالب (ع)
٢٢	— أيام معاوية بن أبي سفيان
٢٦	— أيام يزيد بن معاوية
٢٧	— أيام معاوية بن يزيد بن معاوية
٢٧	— أيام مروان بن الحكم
٢٧	— أيام عبد الملك بن مروان
٣٠	— تحويل الدواوين الى العربية
٣٣	— مصعب بن الزبير
٣٤	— ايام الوليد بن عبد الملك
٣٥	— أيام سليمان بن عبد الملك
٣٥	— بناؤه الرملة ومسجدها
٣٥	— ابن المهلب واستعماله على العراق
٣٧	— اسامة بن زيد على خراج مصر
٣٨	— أيام عمر بن عبد العزيز
٤٠	— أيام يزيد بن عبد الملك
٤٢	— أيام هشام بن عبد الملك

الصفحة	الموضــوع